بسم الله الرحمن الرحيم

مقامات المقربين
فى الوصول إلى رب العالمين

تأليف : راجى عفوه القدير

حسن عبدالرحيم السيوطى

مدير عام وعظ سوهاج

نقيب السادة الخلوتية الدومية بجرجا



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعين به ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .. من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـ . وأشهد أن محمد عبده ورسوله :

(ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولاَ ،مُوتُنَّ إِلاَّ وأَنتُم مُّسْلِمُونَ) آل عمران 102

(ا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ وخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً ونِسَاءً واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والارحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً) النساء .

(ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * صلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ومَن يُطِعِ اللَّهَ ورَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً) الأحزاب 70 ، 71

أما بعد فإن أصدق الحديث كتابه تعالى . وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

تعالى جده وارتفع شأنه رضى من عباده باليسير من العمل وتجاوز لهم عن الكثير من الزلل وأفاض عليهم النعمة وكتب على نفسه الرحمة . وأرسل رسوله رحمة للعالمين وقدوة للعاملين ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين . وبعثه بالإيمان مناديا ولدار السلام داعيا وللخليقة هاديا ولكتابه تاليا وفى مرضاته ساعيا وبالمعروف آمرا وعن المنكر ناهيا . فهدى الله به الطريق وأوضح به السبيل وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيره وتوقيره وأمرهم بالقيام بحقوقه . . وسد جميع الطرق إلى الجنة فلم يفتحها لأحد إلا من طريقه . فلو أتوا من كل طريق واستفتحوا من كل باب لما فتح لهم حتى يكونوا خلفه من الداخلين وعلى منهاجه وطريقته من السالكين :

وأنت باب الله أى امرئ وافاه من غيرك لا يدخل

سبحانه لم يخلق خلقه عبثا ولم يتركهم سدى بل خلقهم لأمر عظيم عرضه على السموات والأرض والجبال فأبين وأشفقن وحمله الإنسان على ضعفه وعجزه وباء به على

ظلمه وجهله فإذا أكثر الناس قد ألقى الحمل وخالف العهد .. ونقض الميثاق وصحب الدنيا صحبة الأنعام السائمة لا يعرف حق موجده ولا الغاية من إيجاده .. ولا فكر فى قلة مقامه فى الدنيا الفانية وسرعة رحيله إلى الآخرة الباقية .. فخدعهم طول الأمل وران على قلوبهم سوء العمل وآثروا عاجل الدنيا على ثواب الآخرة . قال تعالى :

(**عْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَ وهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**) الروم 7 .

وقال (**ولاَ ا كُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ**) الحشر 9 .

إنهم لم يمعنوا النظر فى الجانب الروحى .. ولو أمعنوا لتجلى لهم مكون الأكوان ولغاب الشهود فى العيان .. ولم يروا إلا الله تعالى .. واعلم أن الحق جل جلاله قد تجلى لعباده فى مظاهر الأكوان لكنه لحكمته وقدرته قد تجلى بين الضدين .. بين الأنوار والأسرار . بين الحس والمعنى . بين مظهر الربوبية وقالب العبودية . فالأنوار ما ظهر من الأوانى . والأسرار ما خفى من المعانى . والحس ما يدرك بحاسة البصر والمعنى ما يدرك بالبصيرة .. فالحس رداء للمعنى فمن فتح الله بصيرته استولى نور بصيرته على نور بصره فأدرك المعانى خلف رقة الأوانى .. فلم تحجبه الأوانى عن المعانى بل تمتحق فى حقه الأوانى .. ولا يرى حينئذ إلا المعانى .. لذلك قال الحلاج .. لما سئل عن المعرفة : قال : استهلاك الحس فى المعنى .. فإذا فنى المعبود عن شهود حسه بشهود معناه غاب وجوده فى شهود معبوده فشاهد الحق بالحق .. فالعارفون لما فنوا عن أنفسهم لا يقع بصرهم إلا على المعانى فهم يشاهدون الحق عيانا .. ولذلك قال شاعرهم :

مذ عرفت الإله لم أر غيراً وكذا الغير عندنا ممنوع

وقال فى الحكم : ' ما حجبك عن الحق وجود موجود معه .. إذ لا شئ معه . وإنما حجبك توهم موجود معه " : البحر المديد : جـ صـ 53 : وقال صاحب العينية :

تجلى حبيبى فى مرائى جماله ففى كل مرئى للحبيب طلائع

فلما تبدى حسنه متنوعا تسمى بأسماءٍ فهن مطالع

فما برز فى عالم الشهادة هو من عالم الغيب على التحقيق فرياض الملكوت فائضة من بحر الجبروت : كان الله ولا شئ معه وهو الآن على ما كان عليه : ولا يعرف هذا ذوقا إلا أهل العيان الذين وحدوا الله فى وجوده وتخلصوا من الشرك جليه وخفيه : المرجع السابق .

أخى القارئ : إننا نعيش هذه الأيام فى زمان معكوس كل شىء فيه فى غير شكله أو فى غير محله . قد أصبح فيه الذئب راعيا والخصم الجائر قاضيا .. كما أصبح فيه المجرم سعيدا حظياً والصالح محروما شقيا لقد طغت المادية وعمت الإباحية وانتشرت الرذيلة بكل أشكالها . وللخلاص من هذا لابد من الرجوع إلى الله . وذلك عن طريق الجد والاجتهاد لنتغلب على هذه العقبات وتلك المعوقات . لكى نصل إلى رب الأرباب . لابد أن نقوى الجانب الروحى الذى أشار إليه الحديث الشريف بمقام الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه .. فإن لم تكن تراه فإنه يراك : ' إن طريق الوصول إلى الله طريق الجد والتشمير لا طريق البطالة والتقصير .. طريق موت النفوس وحط الرؤوس وبذل الفلوس طريقة قريحة واعتناء .. واستهلاك وفناء . لا تجد صاحبها إلا ذاكرا أو متفكرا أو تاليا أو مصليا أو مذكرا أو مستمعا .. أوقاته معمورة محفوظة وحركاته وسكناته بالإخلاص ملحوظة .. إن تكلم فبذكر الله . وإن صمت فعن الغيبة فى الله يجول فى عظمة الله أو فيما يقربه إلى الله . وإن تحرك فبالله .. وإلى الله . وإن سكن فمع الله . مستأنسا بالله مشتغلا بربه .. غائبا عن نفسه ليس له عن نفسه إخبار ولا مع الله قرار .. أنسه بالله ومجالسته مع الله .. التقوى زاده والقناعة رفاده . ومن بحر العرفان استمداد .. قد استغنى بالله عما سواه ورفض وراء ظهره دنياه وهواه .. قد اتخذ الله صاحبا وترك الناس جانبا فإن كان هكذا فالولاية طوع يده وإلا فإدراكه على قدر جده وكده . ومن رام الوصول بغير ذلك فهو مغرور : تفسير الفاتحة الكبير لابن عجيبة صـ 23 :

ولا يتحقق هذا إلا بسلوك مقامات المقربين التسعة : وهى : التوبة .. والشكر .. والخوف .. والرجاء .. والزهد .. والرضا .. والتوكل .. والمحبة : وهى موضوع بحثنا

فى هذا الكتاب : وذلك لا يتم إلا بالانقياد لأحكام ربوبيته .. والقيام بوظائف عبوديته : لان الخلق كلهم عبيد ربوبيته وأهل طاعته وولايته هم عبيد ألوهيتة ..

قال رسول الله ﷺ .. لمعاذ بن جبل .. أتدرى ما حق الله على العباد ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم .. قال حق الله عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا .. قال أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت الله ورسوله أعلم .. قال : حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار : مسلم .

إن الأمة الإسلامية تمر بأزمات عصيبة وأحوال رهيبة يشيب من هولها الطفل وتنفطر منها مرائر النمور ولا تتحملها قوة فى الأرض .. فهى أشبه بزلزال شديد هز الأمة هزا عنيفا فإذا نحن ' فى زمن اقشعرت فيه الأرض وأظلمت السماء وظهر الفساد فى البر والبحر من ظلمة الفجرة وذهبت البركات وقلت الخيرات وهزلت الوحوش وتكدرت الحياة من فسق الظلمة وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة وشكى الكرام الكاتبون والمعقبات الى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات القبائح وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه .. ومؤذن بليل بلاء قد أدلهم ظلامه " الفوائد لابن قيم الجوزية : وما نحن فيه من غموم وكروب وبعد عن ساحة الإسلام وتنكب لصراطه المستقيم يحتاج الى شحنة من الله العلى الأعلى يقذفها فى قلوب عباده المؤمنين . فترد الى حظيرة القدس وتنير قلوبهم وتشرح صدورهم :

قال رسول الله ﷺ : إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح : قيل يا رسول الله : هل من علامة يعرف بها ؟ قال : التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود و الاستعداد للموت قبل نزوله : الدر المنثور وابن كثير والقرطبى .

وهذا يدرك به العبد أن ما سوى الله إنما هو من قبيل الظل الزائل .. قال : فى لطائف المنن : وأشبه شىء بالكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظل . والظل لا هو موجود باعتبار مراتب الوجود ولا هو معدوم باعتبار مراتب العدم . ومن هنا يتبين لك أن الحجاب ليس أمرا وجوديا بينك وبين الله . وإلا لكان اقرب إليك منه عن ابن مسعود قال : نام رسول الله على حصير وقد اثرت فى جنبه فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا

لك وطاء . قال : مالى وللدنيا ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها . ابن ماجة والترمذى وقال حسن صحيح .

على أن الإسلام لا يمنع من الطيبات والملذوذات :

(**قلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**) الأعراف 32 وإنما يطلب من القادة أن يكونوا قدوة للضعفة والمحتاجين قال الربيع بن زياد الحارثى لعلى ﷺ .. أسعدنى على أخى عاصم قال ما به : قال لبس العباء يريد النسك .. فقال على .. على به .. فأوتى به متأزرا بعباءة مترديا باخرى . شعث الرأس واللحية : فعبث فى وجهه وقال : ويحك أما استحييت من أهلك . أما رحمت ولدك .. أترى أن الله أباح لك الطيبات وهو يكره أن تنال منها شيئا بل أنت أهون على الله .. أما سمعت من الله يقول فى كتابه (**وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ**) إلى قوله (**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**) أفترى أن الله أباح هذا للعباد الا ليبتذلوه ويحمد الله عليه فيثيبهم .. وان ابتدا لك نعم الله بالفعل خير منه بالمقال : قال عاصم : فما بالك فى خشونة مأكلك وخشونة ملبسك قال ويحك : ان الله فرض على ائمة الحق ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس : التنوير فى اسقاط التدبير صـ 70

والمؤمن يتعامل مع الدنيا على حذر ومع الله على وجل . بغية الوصول الى رب الأرباب من اجل هذا سميت هذا السفر " مقامات المقربين فى الوصول الى رب العالمين " وحاولت فيه أن اذكر النص كما هو لحصول البركة .. متخيرا له ما أمكن رابطا بحسب الاستطاعة .. فمن وجد فيه عيبا فأصلحه أصلحه الله ومن وجد فيه زللا .. أرجو أن يغفره . فالكمال لله وحده :

إن تجد عيبا فسد الخلل جل من لا عيب فيه وعلا

ولقد بذلت فى هذا الكتاب كل جهدى ، أفرغت فيه كل طاقتى ووسعى أن يكون سلوة للمحزون وجلوة للمشتاق وعدة للمكروب ومخففا للآلام .. ومحركا للقلوب إلى اجل مطلوب . وحاديا للنفوس إلى مجاورة الملك القدوس ممتعا لقارئه مشوقا للناظر فيه لا يسأم من مطالعته ولا يمل من مؤانسته يجد فيه الطالب بغيته والحيران دليله مع تضمينه

لكثير من الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة والآيات المشروحة مدعما بأقوال الصالحين من العلماء العاملين راجيا من المولى أن يكون قد حقق رجائى ومطلبى للقارئ .. سائلا الحق جل وعلا . أن ينفع به وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم وهو حسبنا ونعم الوكيل .. وآخر دعواذ .. أن الحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

التوبة والاستغفار

التوب .. فى اللغة الرجوع .. يقال تاب الرجل . أى رجع . فالتوبة الرجوع عما كان مذموما فى الشرع إلى ما هو محمود فيه . والتائبون هم . الراجعون إلى الله بالتوبة من المعصية إلى الطاعة أو بالإنابة من الغفلة إلى الذكر .. أو بالأوبة من الغيبة إلى الحضور . فهى رجوع من البعد عن الله إلى القرب إليه سبحانه وتعالى . فمن رجع عن المخالفات خوفا من عذاب الله فهو تائب ومن رجع حياء منه فهو منيب .. ومن رجع تعظما لجلال الله سبحانه .. فهو أواب .

وقال أبو على الدقاق : التوبة على ثلاثة أقسام أولها التوبة وأوسطها الإنابة وآخرها الأوبة .. فمن تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة .. ومن تاب طمعا فى الثواب فهو صاحب إنابة .. ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة فى الثواب أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة : ويقال : التوبة .. صفة المؤمنين :

(**وتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**) النور 31 .

والإنابة : صفة الأولياء والمقربين (**مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ**) ق 33 والأوبة : صفة الأنبياء والمرسلين (**نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**) ص 30 وهذا التقسيم باعتبار الحاصل عليها .

والمقصود من التوبة : خروجك عن كل ما يحجبك عن الحق من الذنوب : وهى ثلاثة أقسام : ذنوب الأعمال المتعلقة بالجوارح التى منشؤها القالب والنفس الأمارة وذنوب الأحوال : وهى المتعلقة بالقلب والروح والسر .. وذنوب الوجود وهى المتعلقة باللطيفة الأنانية الإنسانية المختفية فى الهيكل المخصوص الإنسانى المحتجب بهذا الوجود عن شهود نور الأنوار .. والأولى : منشؤها القالب والنفس الأمارة التى هى محل تراكم الظلمات وأصل القبائح .. والثانية متعلقة بالقلب وهو نورانى : لأنة قد يطرأ عليها من الأوساخ المذمومة ما يعكره والثالثة : إذا رأى الإنسان له وجودا فى الخارج قد يجره إلى المعصية ولذا قيل : وجودك ذنب لا يقاس به ذنب .

فالحق إنما أمرك بالتوبة ليطهرك من التدنيس ويلبسك أوصاف التقديس .. فألق من أوصافك الذميمة وتخلق بالحميدة :

قد رشحوك لأمر لو فطنت له   فأربا بنفسك أن ترعى مع الهمل

وسئل سهل عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة فالاستجابة أعمال الجوارح والإنابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاه وترك الخلق .

التوبة أصل كل مقام ومفتاح كل خير وعليها ينبنى كل شرف . قال صاحب عوارف المعارف : التوبة أصل كل مقام وقوام كل مقام ومفتاح كل حال .. وهى أول المقامات وهى بمثابة الأرض للبناء فمن لا أرض له لا بناء له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقال له .. ثم اعلم أن من أصول التوبة العلم بالذنب ليصح قصد الإنخلاع عنه . والعلم بالرب الذى خالفته بأن تعلم جلاله وعظمته فتخشاه .. وجماله ورحمته فترجوه .. وستره وحلمه فتشكره .. ونظره وإطلاعه فتستحى منه .. ونداءه واستدعاءه لك لتجيبه .. وسعة جوده وكرمه فلا يعظم عندك ذنب .. وكبرياءه وعظمته فلا تستخف بذنب وغير ذلك من أنوار المعارف .

وجعل على كرم الله وجهه ترك التوبة مقاما فى العمى حيث قال : ومن عمى نسى الذكر واتبع الظن وطلب المغفرة بلا توبة ولا استكانة ففرض التوبة الذى لابد للتائب منه ولا يكون محقا صادقا إلا به الإقرار بالذنب والاعتراف بالظلم ومقت النفس على الهوى وحل الإصرار الذى كان عقده على أعمال السيئات وإطابة الغذاء بغية ما يقدر عليه لأن الطعمة أساس الصالحين ثم الندم على ما فات من الجنايات : قوت القلوب .. جـ . صـ 318 .

وسئل الجنيد : ما السبيل إلى الانقطاع إلى الله .. فقال : بتوبة تزيل الإصرار وخوف يزيل التسويف ورجاء يبعث على مسالك الأعمال وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل .. واعلم أن من أصول التوبة العلم بشهوات النفس ودناءتها بما طبعت عليه حتى يثمر ذلك ودوام الانكسار والاستحياء وتحقيق عجزها عن أدنى شئ جلبا أو

دفعا فيرجع العبد إلى رب الفعل منيبا تائبا ... والعلم بعنصرها الأصلى العلوى الروحانى وكونها مضافة إلى جانب الحق منزلة من عالم الأمر .. متخلفة فى المملكة ممدة بالعلم الأسمائى والصفاتى وحقائق الأشياء .. والندامة هى توجع القلب وتألمه على ما فرط من المخالفة : نتائج الأفكار القدسية : جـ 2 صـ 71 وهى بحسب متعلقها .. توبة العوام من الهنات . وتوبة الخواص من العادات . وتوبة خواص الخواص من السوى والأغيار والركون إلى المقامات والأنوار .. ولها شروط وحقائق وسرائر .. فشرائطها ثلاثة : الندم والاعتذار والإقلاع .. وحقائقها ثلاثة : تعظيم الجناية واتهام التوبة وطلب أعذار الخليقة .. وسرائر تلك الحقائق ثلاثة : تمييز التقية من العزة ونسيان الجناية . والتوبة من التوبة أبدا لأن التائب داخل فى الجميع لقوله تعالى : (**وتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً**) النور 31 . فأمر التائب من التوبة .

نهاية التوبة

ونهاية التوبة تكون على حسب البداية .. فمن دخل فيها بالله كانت نهايته منها إلى الله .. ومن كانت بدايته بالتفويض إلى الله .. كانت نهايته بالرضا عن الله ومن كانت بدايته بالتوكل على الله .. كانت نهايته بالرجوع إلى الله .. ومن كانت بدايته بالاستعانة بالله .. كانت نهايته بحسن الظن بالله .. ومن كان لله .. كان الله له .. ومن كان فى الله ملقه .. كان الله خلفه .. ومن كان لغير الله .. كان الغير حظه من الله .. وفى الحديث : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ... البخارى ومسلم وغيرهما فيجب على المسلم أن يتذكر ما بدر منه ويتحرك قلبه فيما حدث منه وألا يكون من الغافلين وليعلم أنه محاسب على ما قدم وليجد ويجتهد وليهجر قرناء السوء ويلازم الصالحين من العلماء وليكون ابن وقته .. روى أن الجنيد رآه بعض أصحابه مهموما فسأله عن السبب .. فقال : فاتنى ورد من أورادى . فقال له صاحبه اقضه .. فقال : كيف أقضيه والوقت مشغول بأهم منه .. وفى وصيته للسهرودى : لا تحل إلى غد شغل يومك فإن كل يوم آت بمشاغله فلعلك لا تلحقه .. فجد فى السير ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد واستغل الفرصة التى أنت فيها فلعلها لا تعود ..

إذا هبت ك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكون
وبادر لاغتنام الخير فيها فلا تدرى السكون متى يكون

وقال أبو سليمان الدارانى : لو لم يبكِ العاقل فيما بقى من عمره إلا على فوت ما مضى منه فى غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات فكيف بمن يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله .. وقال سهل : التائب لا يقله شئ يكون قلبه متعلقا بالعرش حتى يفارق النفس ولا عيش له إلا الضرورة للقوام ويغتم على ما مضى والجد فى الأمر ومباينة النهى فيما بقى ولا يتم له ذلك إلا باستعمال علم اليقين فى كل شئ ثم المتابعة بأعمال الصالحات ليكون ممن قال الله تعالى :

(**يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**) الرعد آية 22

أى يدفعون ما سلف من السيئات بما يعملون من الحسنات .

وجمل ما على العبد فى التوبة وما تعلق بها عشر خصال :

أولها فرض عليه ألا يعصى الله .

والثانية إن ابتلى بمعصية لا يصر عليها .

والثالث التوبة إلى الله منها .

والرابع الندم على ما فرط منه .

والخامسة عقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت .

والسادسة خوف العقوبة .

والسابعة رجاء المغفرة .

والثامنة الاعتراف بالذنب .

والتاسعة اعتقاد أن الله قدر ذلك عليه وأنه عدل منه .

والعاشرة المتابعة بالعمل الصالح .. لقوله ﷺ واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ، وقال تعالى : (**والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ**) العنكبوت (.

التوبة طريق الفلاح

قال تعالى : **(وتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)** النور 31 ارجعوا إليه من هوى نفوسكم ومن وقوفكم مع شهواته عسى أن تظفروا ببغيتكم وتسعدوا بدخول جنة ربكم .

وهذه الآية فى سورة مدنية خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم .. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجى .. إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح فلا يرجو الفلاح إلا التائبون .. جعلنا الله منهم .. فكل تائب مفلح .. ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه .. ومن هنا قسم الله العباد إلى قسمين .. تائب وظالم حيث قال :

(ومَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) الحجرات 1. وما ثم قسم ثالث البتة وأوقع اسم الظالم على من لم يتب ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وبآفات أعماله .. لأن النظر إلى الوعد والوعيد يحدث له ذلك خوفا وخشية يحمله على التوبة . والنظر إلى أمره ونهيه يحدث له الاعتراف بكونه خطيئة والإقرار على نفسه بالذنب والنظر إلى تخلية الله بينه وبينها وتقديرها عليه ولو شاء لعصمه منها .. يوجب له ذلك أنواعا من المعرفة لأسماء الله وصفاته ورحمته ومغفرته وحلمه وكرمه .. وتوجب له هذه المعرفة عبودية كاملة لله .. ثم النظر إلى الأمر له بالمعصية وهو شيطانه الموكل فيتخذه عدوا له . وكمال الاحتراز منه والتحفظ والتيقظ لما يريده منه عدوه وهو لا يشعر به من عقبات مهلكات لا يعلمها إلا الله .

أما التائبون فهم كما وصفهم الرحمن وعدد صفاتهم بقوله : (**لتَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ والْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ** التوبة 112

فهى حقيقة الإسلام ومنبع الإيمان والإحسان وأصل جميع المقامات والأحوال .

روى صاحب نهج البلاغة : " أن عليا قال لرجل .. قال بحضرته : أستغفر الله ثكلتك أمك .. أتدرى ما الاستغفار ؟ الاستغفار درجة العليين .. وهو اسم واقع على ستة معان :

أولها الندم على ما مضى .. **والثانى** العزم على ترك العود إليه أبدا .

والثالث : أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل ليس عليك تبعة ..

والرابع أن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدى حقها .. **والخامس** أن تعمد إلى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد ..

والسادس : أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول أستغفر الله " .

الأمر بالتوبة والاستغفار

ولقد أمر الأنبياء والمرسلون أقوامهم بالتوبة والاستغفار والرجوع إلى الله فى كل حال . ووعدوهم عليه الخير الجزيل والثواب الوفير فى الدنيا والآخرة ..

فنوح نصح قومه بالاستغفار ووعدهم عليه السعة والقوة : (**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * رْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً * ويُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وبَنِينَ ويَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ ويَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً**) نوح 0. 2. .

وهود عليه السلام نصح قومه نفس النصيحة : (**ويَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْراراً ويَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ولاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ**) هود 52 .

وكذلك قال صالح لقومه ثمود : (**فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ**) . هود 61 .

وكذلك قال شعيب : (**واسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ ودُودٌ**) هود 90 .

واستدل إبراهيم الخليل على وجود الله بأنه يغفر الذنوب حيث قال :

(قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) الشعراء 75 – 82 .

وروى عن الحسن البصرى أن رجلا شكى إليه الجدب .. فقال له : استغفر الله ، وشكى إليه آخر الفقر .. وآخر قلة النسل وآخر قلة ريع أرضه . فامرهم كلهم بالاستغفار فقيل له : شكوا إليه أنواعا فأمرتهم كلهم بالاستغفار .. فتلى الآية :

(وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ) الطلاق 3 .

وعن ابن عباس قال .. قال رسول الله ﷺ : " من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب ".

رواه : أحمد وأبو داود وابن ماجه .

وهكذا نرى القرآن الكريم والسنة النبوية يصفان التوبة والاستغفار بأنهما سلم إلى رحمة الله واستنزال رزقه واستمطار فضله وإمداد المكروبين التائبين المستغفرين بالأموال والبنين وزيادتهم قوة إلى قوتهم .

أنواع الاستغفار

وهو نوعان : مفرد كما مر فى نصيحة نوح وهود وصالح ومنه قوله تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) الأنفال 33

وهو كالتوبة بل هو التوبة بعينها .. مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره لا كما ظنه بعض الناس أنها الستر .. فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له . ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه . فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم .. وحقيقتها وقاية شر الذنب .. فالاستغفار يتضمن التوبة والتوبة تتضمن الاستغفار وكل منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الإطلاق .

وأما عند الاقتران : فالاستغفار : طلب وقاية شر ما مضى .. والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخاف فى المستقبل من سيئات أعماله . فها هنا ذنبان : ذنب قد مضى . فالاستغفار منه طلب وقاية شره . وذنب يخاف وقوعه . فالتوبة : العزم على أن

لا يفعله . والرجوع إلى الله يتناول النوعين : رجوع إليه ليقيه شر ما مضى ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله .

فهنا أمران مفارقة شئ والرجوع إلى غيره .. فخصت التوبة بالرجوع والاستغفار بالمفارقة .. وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين .. كما مر .

ولهذا جاء الأمر بهما مرتبا لقوله : (**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**) .

فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل . وأيضا : فالاستغفار من باب إزالة الضرر : والتوبة طلب جلب المنفعة . فالمغفرة أن يقيه شر الذنب .. والتوبة : أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه .. وكل منهما مستلزم الآخر عند إفراده : مدارج السالكين جـ صـ 307 .

الفرق بين التوبة والاستغفار

قال الراغب : الاستغفار باللسان .. والتوبة بالجنان .. وهى الرجوع عن المعصية إلى الطاعة أو من الغفلة إلى الذكر أو من الغيبة إلى الحضور .. ثم هى مقاصد الشريعة وأول مقامات سالكى الآخرة . والمغفرة منه تعالى لعبده ستره لذنبه فى الدنيا بأن لا يطلع عليه أحدٌ وفى الآخرة بان لا يعاقبه عليه ..

قال الطيبى والتوبة فى الشرع ترك الذنب لقبحه . والندم على ما فرط منه . والعزيمة على ترك المعاودة . وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة ..

وقال أبو على القارى : الاستغفار مراقبة . والتوبة مشاهدة .. أو الاستغفار فناء والتوبة بقاء ... أو الاستغفار شعور بالتقصير فى الطاعة ورؤية النفس فى العبادة .. والتوبة .. رجوع إلى أحكام الشريعة ..

لذا نرى أن أرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونوا استغفارا عقيب أدائهم الطاعات لشهودهم تقصيرهم فيها وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه وأنهم لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ولا رضيها لسيده .. وقد أمر الله وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات وهو من أجل المواقف وأفضلها

(فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ واذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ واسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) البقرة الآيتان 98 ، 99 .

وختم آيات الصوم بقوله :

وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ولْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ) البقرة 86 .

وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى : (والْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ آل عمران 17 قال : مدوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل .

وفى الصحيح : أن النبى ﷺ : كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثا ثم قال : " اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام "

ولقد أمره الله بالاستغفار بعد أداء الرسالة والقيام بما عليه من أعبائها وقضاء فريضة الحج واقتراب أجله فقال فى آخر سورة كاملة أنزلت عليه : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ والْفَتْحُ .....) ومن هنا فهم عمر وابن عباس .. أن هذا أجل رسول الله .. أعلمه الله به كأنه يقول له يا محمد .. لقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ولم يبق عليك شئ .. فاجعل خاتمة حياتك التوبة والاستغفار . كما هو حالك فى كل شأن وأمر .. فما صلى صلاة قط بعد إذ انزلت عليه هذه السورة إلا قال : سبحانك الله وبحمدك اللهم اغفر لنا .

وكان رسولنا ﷺ دائم الاستغفار والتوبة . " فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة " : البخارى .

وكان أصحابه يعدون له فى المجلس الواحد قبل أن يقوم : رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور مائة مرة .

وكان يقول فى خاتمة الوضوء : سبحانك اللهم وبحمدك .. أشهد أن لا إله إلا أنت .. استغفرك وأتوب إليك .. اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين ، وكان يدخل فى الصلاة بدعاء الاستفتاح ، ومن هذا نرى أن أعماله كلها دعاء وتوبة واستغفار .

توبته ليست عن معصية

قال ابن الملك : " توبته ﷺ : كل يوم سبعين مرة . واستغفاره ليس لذنب لأنه معصوم .. بل لاعتقاد قصوره فى العبودية عما يليق بحضرة ذى الجلال والإكرام وحث للأمة على الاستغفار فإنه ﷺ مع كونه معصوما وكونه خير المخلوقات إذا استغفر وتاب إلى ربه فى كل يوم أكثر من سبعين مرة فكيف بالمذنبين والاستغفار طلب المغفرة بالمقال والفعال جميعا والمغفرة من الله أن يصون العبد من أن يمسه عذاب . قال على : كان فى الأرض أمانان من عذاب الله فرفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به . أما المرفوع فرسول الله ﷺ وأما الباقى فالاستغفار : قال تعالى : (**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**) الأنفال 33 .

أقول إذا كان الاستغفار ينفع الكفار فكيف لا يفيد بالمؤمنين الأبرار .. وقيل استغفاره ﷺ من ذنوب الأمة فهو كالشفاعة لهم " : المرقاة جـ [illegible] صـ 23 .

حديث الغين

عن الأغر المزنى قال : قال رسول الله ﷺ : " إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة " مسلم

" **قال أبو بكر بن طاهر** : إن الله أطلع نبيه ﷺ على ما يكون فى أمته من بعده من الخلاف وما يصيبهم فيه . وكان إذا ذكر ذلك وجد غينا فى قلبه فاستغفر لأمته .. " .

" **وقال الإمام أحمد** : زعم بعض أهل العلم أن الغين شئ يغشى القلب فيغطيه بعض التغطية ويحجبه عما يشاهده . وهو كالغين الرقيق الذى يعرض فى الهواء فلا يكاد يحجب عين الشمس ولا يمنع ضوءها والنبى ﷺ ذكر أنه يغشى قلبه ما هذه صفته وذكر أنه ليستغفر الله فى كل يوم مائة مرة " : شعب الإيمان للبيهقى : جـ [illegible] صـ 380 .

وزعم بعضهم : أن النبى ﷺ : كان ينقل من حال إلى حال هو أرفع منه فإذا رفع إلى درجة أخرى رأى ما نقل عنها تقصيرا فى واجب حق الله فرأى ذلك غينا يجب له الاستغفار منه : وقال : بندار بن الحسين الصوفى : الغين ثقل مطالبة الحق على قلب النبى ﷺ فإنه كان مطالبا بالأوامر .. فكان إذا أمر بأمر التزمه . فكان يثقل عليه إلى أن يدخل فيه .. قال الله عز وجل : (**نَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**) المزمل [illegible] .

وقال ابن الملك : قيل لما كان ﷺ : أتم القلوب صفاء . وأكثرها ضياء . وكان لم يكن له بد من النزول إلى الرخص والالتفات إلى حظوظ النفس من معاشرة الأزواج والأكل والشرب والنوم ونحوها وكان إذا يعطى شيئا نفسه أسرع كدورته إلى القلب لكمال رقته وفرط نورانيته فكان إذا أحس بشئ من ذلك يلوم نفسه بترك كمال الحضور ويعده تقصيرا ويستغفر منه " : المرقاة جـ ٥ صـ 24 .

والحاصل أن كل أحد فسر فى مقاله بمقتضى حاله وفهم مبانيه وتحقيق معانيه فكل إناء يترشح بما فيه ولكن لا يخفى على المحققين أن لا يقاس الملوك بالحدادين فكذلك لا يقاس أحوال القلب السليم بما يجرى على القلب السقيم فأولى أن ينزه قلبه عن الذنوب صورة ومعنى ويؤول الاستغفار والتوبة فى حقه بطريق الاجمال تأويلا حسنا .. وتفصيل أحواله وبيان انتقاله من نقصانه إلى كماله يوكل إلى خالق القلوب وعلام الغيوب . ولهذا لما سئل الأصمعى عن هذا الحديث فقال عن قلب من تروون هذا فقالوا عن قلب النبى فقال لو كان عن قلب غيره لكنت أفسره لك .

قال الطيبى : ولله دره فى انتهاج منهج الأدب وإجلال القلب الذى جعله الله موقع وحيه ومنزل تنزيله .

وقال أبو على القارى : ومجمل الكلام ما قاله الإمام أبو الحسن الشاذلى : هو غين أنوار لا غين أغيار .. وأقول : هو غين العين .. لا غين الغين " : المرجع السابق .

الخطيئة والمتاب

خلق الله الإنسان وزوده بطاقات ترضى الرحمن . وتدفعه إلى فعل الخير والإحسان وتشعره بالطمأنينة والارتياح ..

كما زوده بطاقة عكسية تدفعه إلى الشر وتقوده إلى الرذيلة وتنحرف به عن الطريق المستقيم وتشده إلى الشهوات التى تجره إلى مستنقع السيئات والآثام .

من أجل هذا .. وما ركب فيه من خير وشر .. فقد يقوى عزمه ويشتد حزمه فيرتفع إلى أعلى .. ويصبح ملائكيا .. وقد يهبط إلى أصله الطينى فيشد إلى أسفل ويرتكب المنكرات وتحيط به السيئات ..

لذا كان من الحكمة الإلهية أن تهيأ له فرص الطاعات والعبادات والاستغفارات المقرونة بالتوبة والندم والعزم على الاستقامة . حتى تطهره من قذارات الإثم وتغسله من أدران الأوساخ وهذا من فضل الله على الناس : (**ولَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ وأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ومَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ ولَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ولَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** . النور 20 ، 21

وقال تعالى (**ولَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ والْفُسُوقَ والْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * ا ضْلاً مِّنَ اللَّهِ ونِعْمَةً واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**) الحجرات 7 ، 8 .

فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا فى النفس ولكن الله من بهما على العبد فهو عليم بما يصلحه فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه .. علم أنها منبع كل شر ومأوى كل سوء .. وأن كل ما فيها من خير تفضل من الله من به عليها .. لم يكن منها ..

إذ لولا فضل الله بالعفو والمغفرة .. ما صلح أحد منا ولا طهر من أرجاس ذنوبه . وذلك بأن الإنسان خطاء مذنب بفطرته .. قال تعالى : (**واللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ويُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً * رِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً** النساء 27 ، 28 .

وقد جاء التخفيف فى مقابلة الضعف الإنسانى بفتح باب العفو والمغفرة .. إن الإنسان كثيرا ما يضل عن الطريق وينحرف عنه بوازع من الجهل أو استجابة لإغراء عابس أو شهوة جامحة فتمر به ساعة تنام فيها قواه الروحية ويغفو فيها ضميره وتستيقظ فيها غرائزه ويسقط صريع الهوى والشهوة .. وفى خلال هذه المحنة عليه أن يذكر أنه لم يخلق ملكا كريما ولا بشرا معصوما وإنما هو إنسان تتنازعه قوى الخير والشر فتارة تتغلب عليه قوى الخير الروحية فيسمو ويرتفع . وتارة أخرى تتغلب طبيعة الشر فيخلد إلى الأرض ويتردى فى حمأة الرذيلة . وإن على الإنسان فى هذه الحالة أن يصحح أخطاءه ويعالج أمراضه ويغسل نفسه مما قد يكون ران عليها ويستأنف العمل فى الحياة

فى ثوب نقى نظيف ويتذكر قول النبى ﷺ : " كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون " : الترمذى وابن ماجه وأحمد عن أنس : وقال الحاكم حسن صحيح .

حد التوبة

من نظر إلى أن الإنسان متركب من طرفى مشابهة الملائكة والبهائم فبميله إلى صفة البهائم يبعد عن ربه وبميله إلى صفة الملائكة يقرب من ربه . وطباع البهائم شر كله وطباع الملائكة خير كله .. قال إن حقيقة التوبة .. ترجع إلى الرجوع من الشر الشريعى إلى الخير الشريعى .. ومن الطريق المبعدة إلى الطريق المقربة ..

وهذا الحد : أعم من قولنا هى الرجوع من المعصية إلى الطاعة .. لأن الحد الأول يدخل فيه الوجوب والاستحباب : قال تعالى : (**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ** التوبة آية 117 . وتوبة رسول الله ﷺ فى رجوعه من حسن إلى أحسن منه ومن قرب إلى ما هو أقرب منه وأسنى منه ..

وقال البيهقى : وحد التوبة : القطع للمعصية فى الحال إن كانت دائمة والندم على ما سلف منها والعزم على ترك العودة وحقيقتها : الندم على ما سلف .. والإقلاع عن المعاصى فى الحال . والعزم على تركها فى الاستقبال وهى واجبة بجميع أجزائها الثلاث .

وقال السرى : التوبة على أربعة دعائم : استغفار باللسان وندم بالقلب وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود فيه : وقال الجنيد : التوبة على ثلاثة معان : أولها : الندم ، وثانيها : العزم على ترك المعاودة .. وثالثها : أداء المظالم : الشعب : جـ 5 صـ 436 .

الندم :

قال ﷺ : " كفارة الذنب الندامة " : أحمد والطبرانى .

وقال ﷺ " التائب من الذنب كمن لا ذنب له ": ابن ماجه .

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : " إن العبد إذا اعترف ثم تاب .. تاب الله عليه " : متفق عليه . أى أتى بأركان التوبة من : الندم والخلع والعزم والتدارك :

وسئل رويم عن التوبة فقال : هى التوبة من التوبة : وهى أن يشتغل بربه ودوام ذكره ولا يرى لنفسه شيئا .

وسئل البوشنجى : عن التوبة فقال : إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوتة عند ذكره فهو التوبة .

وقال ذو النون : حقيقة التوبة أن تضيق الأرض عليك بما رحبت ثم لا يكون لك فرار ثم تضيق عليك نفسك : (**وعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا**) التوبة 18 . والمهم أن يتوب الله عليهم .

عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ إن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم .. فقال الرب وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى : أحمد .

وعن على قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله يحب العبد المفتن التواب " المرقاة المفتن : هو المبتلى كثيرا بالسيئات أو بالغفلات أو بالحجب عن الحضرات لئلا يبتلى بالعجب والغرور اللذين هما أعظم الذنوب وأكثر العيوب .

وقال طلق بن حبيب : إن حقوقه أعظم من أن يقوم بها العباد ولكن أصبحوا تائبين وامسوا تائبين .

وقال عبد الله بن عمر : من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه فى أم الكتاب .

وقال بعضهم : إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول إبليس ليتنى لم أوقعه فى الذنب .

وقال بن عطاء الله : ' رب معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة جلبت عزا واستكبارا " . وأوحى الله إلى داود .. يا داود .. أنين المذنبين أحب إلى الله من صراخ العابدين .

وقال أبو يزيد البسطامى : كابدت العبادة ثلاثين سنة فرأيت قائلا يقول لى : يا أبا يزيد خزانتك مملوءة من العبادة .. فإن أردت الوصول إليه فعليك بالذلة والافتقار .

وقال صاحب القوت : " وحقيقة الندم إن كان حقا إذ لكل حق حقيقة ألا يعاود إلى مثل ما وقع الندم عليه ثم اعتقاد الاستقامة على الأمر ومجانبة النهى .. وحقيقة الاستقامة

أن لا يتقابل ما استقبل من عمره بمثل ما وقع الاعوجاج به وأن يتبع سبيل من أناب إلى الله وأن لا يصحب جاهلا فيرديه ثم الاشتغال باصلاح ما أفسد فى أيام بطالته ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوا فإن الله عز وجل لا يصلح عمل المفسدين كما لا يضيع أجر المحسنين .. ثم الاستبدال بالصالحات من السيئات .. والصالحات من الحسنات ليكون ممن تبدل سيئاته حسنات لتتحقق بالتوبة وحسن الإنابة . لأن التبديل يكون فى الدنيا يبدل بالأعمال السوء أعمالاً حسنى بدليل قوله تعالى : (**نَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** الرعد 1. ط صـ 318 .

عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال : إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسئى النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها : مسلم والنسائى .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه : مسلم .

عن صفوان بن عسال قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى جعل للمغرب بابا عرضه مسيرة سبعين عاما للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله وذلك قوله تعالى : (**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ**) الأنعام 58. : الترمذى .

قال الطيبى : يعنى أن الباب مفتوح على الناس وهم فى فسحة وسعة عنها ما لم تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت سد عليهم فلم يقبل منهم إيمان ولا توبة لأنهم إذا عاينوا ذلك واضطروا إلى الإيمان والتوبة فلا ينفعهم ذلك كما لا ينفع المحتضر .

وقال تعالى : (**ولَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ ولاَ لَّذِينَ يَمُوتُونَ وهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيما**) النساء 8. .

وقال عن فرعون حين أدركه الغرق : (**وجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وجُنُودُهُ بَغْياً وعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * لآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ**

نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ) يونس الآيات 90 92 .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر : الترمذى وابن ماجه : وهذا الحديث يدل على قبول توبة الله عز وجل لعبده ما دامت روحه فى جسده لم تبلغ الحلقوم والتراقى .

ويؤيد ذلك قوله تعالى (**نَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً**) النساء 17 .

وعمل السوء إذا أفرد .. دخل فيه جميع السيئات صغيرها وكبيرها والمراد بالجهالة الإقدام على عمل السوء .. وإن علم صاحبه أنه سوء . فإن كل من عصى الله فهو جاهل وكل من أطاعه فهو عالم .

لأن من كان عالما بالله لا يعصيه ومن آثر المعصية على الطاعة فهو جاهل لذا كان كل من عصى الله جاهلا وكل من أطاعه كان عالما .. وكفى بخشية الله علما وبالاغترار به جهلا : وقول : يتوبون من قريب : يعنى التوبة قبل الموت . والعمر كله قريب والدنيا كلها قريب فمن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب . وكل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت .. ومن مات ولم يتب فقد بعد .. فالحى قريب والميت بعيد من الدنيا على قربه منها فإن جسمه فى الأرض يبلى وروحه عند الله تنعم أو تعذب ولقاؤه لا يرجى فى الدنيا . كما قيل :

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه ... لقاؤك لا يرجى وأنت قريب
تزيد بلى فى كل يوم وليلة ... وتنسى كما تبلى وأنت جبيب

هذان البيتان سمعهما داود الطائى من امرأة فى مقبرة تندب بهما ميتا لها فوقعتا من قلبه موقعا فاستيقظ بهما ورجع زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة فانقطع إلى العبادة إلى أن مات : لطائف المعارف صـ 570 .

فمن مات قبل الغرغرة أو قبل المرض فقد مات من قريب .. وأفضل منه من مات وهو صحيح قوى .. قادر على عمل المعاصى . خوفا من الله ورجاء لثوابه وايثارا لطاعته على معصيته .

دخل قوم على بشر الحافى وهو مريض فقالوا له على ماذا عزمت ؟ قال : عزمت أنى إن عوفيت تبت فقال له رجل منهم : فهلا تبت الساعة ؟ فقال يا أخى أما علمت أن الملوك لا تقبل الأمان ممن فى رجليه القيد وفى رقبته الغل وإنما يقبل الأمان ممن هو راكب الفرس والسيف مجرد بيديه . فبكى القوم جميعا ...

لذا كانت توبة الشاب أفضل وأحسن . **وفى الأثر** إن الله يحب الشاب التائب : وقال عمير بن هانئ : تقول التوبة للشاب أهلا ومرحبا وتقول للشيخ نقيلك على ما كان منك .

الشاب ترك المعصية مع قوة الداعى إليها والشيخ قد ضعفت شهوته وقل داعيه فلا يستويان : وفى بعض الآثار : يقول الله عز وجل أيها الشاب التارك شهوته المبتذل شبابه لأجلى أنت عندى كبعض ملائكتى ..

قال عمر : إن الذين يشتهون المعاصى ولا يعملون بها :

(**أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٌ**) الحجرات 3

كم بين حال الذى : قال (**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ** يوسف آية 23 وبين شيخ عنين يدعى لمثل ذلك فيجيب . المرجع السابق .

كان عمر يعسُّ بالمدينة فسمع امرأة غاب عنها زوجها . فاشتعلت نيران الأنوثة فى قلبها وتحركت بين جوانحها غريزة الفطرة تريد أن تطفئ لهيبها . ولكن الذى يمنعها هو خوف الله وخشيته .. فقالت : معبرة عما بداخلها من حب وهيام ووجد وغرام :

تطاول هذا الليل واسود جانبه ... وأرّقنى أن لا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله لا شئ غيره ... لحرك من هذا السرير جوانبه

ولكن تقوى الله عن ذا تصدنى ... وحفظا لبعلى أن تنال مراكبه

ولكننى أخشى رقيبا موكلا ... بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه

فقال لها عمر : يرحمك الله ثم بعث إلى زوجها فأمره أن يقدم عليها وأمر أن لا يغيب أحد عن امرأته أكثر من أربعة أشهر وعشرا ..

أما الشيخ الفانى أو كبير السن فإن المعاصى قد تركته ولا أرب له فيها .. كما قال القائل :

تاركك الذنب فتاركته بالفعل والشهوة فى القلب
فالحمد للذنب على تركه لا لك فى تركك للذنب

فمن جاء إلى الله قبله ومن تاب إليه أجابه وإن اشتغل رأسه شيبا جعل الشيب شفيعا له من العذاب ..

لما أتونا والشيب شافعهم وقد توالى عليهم الخجل
قلنا لسود الصحائف انقلبى بيضا فإن الشيوخ قد قبلوا

وقال بعضهم :

إن الملوك إذا شابت عبيدهم فى رقهم عتقوهم عتق أبرار
وأنت يا خالقى أولى بذا كرما قد شبت فى الرق فاعتقنى من النار

فتأخير التوبة فى حال الشباب قبيح وأقبح منه تأخيره فى حال المرض أو المشيب ..

نعى لك ظل الشباب المشيب ونادتك باسم سواك الخطوب
فكن مستعدا لداعى الفنا فكل الذى هو آت قريب
ألسنا نرى شهوات النفو س تفنى وتبقى علينا الذنوب
يخاف على نفسه من يتوب فكيف يكن حال من لا يتوب

وأفضل من هذا من يعملون الأعمال الصالحة فى الصحة والشباب ويجددون التوبة والاستغفار عند الممات ويختمون أعمالهم بالاستغفار وكلمة التوحيد ..

ومن هؤلاء .. العلاء بن زياد .. لما احتضر بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال : كنت والله أحب أن استقبل الموت بتوبة . قالوا : فافعل رحمك الله . فدعا بطهور فتطهر ثم دعا بثوب له جديد فلبسه ثم استقبل القبلة فأومأ برأسه مرتين ثم اضطجع ومات .

وقال سلمة بن سعيد : رؤى العلاء بن زياد أنه من أهل الجنة فمكث ثلاثا لا ترقأ له دمعة ولا يتكحل بنوم ولا يذوق طعاما . فأتاه الحسن فقال : أى أخى أتقتل نفسك أن بشرت بالجنة . فازداد بكاء فلم يفارقه حتى أمسى وكان صائما فطعم شيئا : السير . جـ 4 صـ 203 .

وقال هشام بن حسان : كان العلاء يصوم حتى يخضر ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس والحسن فقالا : إن الله لم يأمرك بهذا كله : الحلية : جـ 2 صـ 243

وهذا : عامر بن عبد الله : لما احتضر بكى وقال : لمثل هذا المصرع فليعمل العاملون : اللهم إنى أستغفرك من تقصيرى وتفريطى وأتوب إليك من جميع ذنوبى . لا إله إلا الله : ثم لم يزل يرددها حتى مات رحمه الله ..

وهذا : عمرو بن العاص يقول عند موته : اللهم أمرتنا فعصينا ونهيتنا فركبنا ولا يسعنا إلا عفوك .. لا إله إلا الله : ثم رددها حتى مات .

وهذا : عمر بن عبد العزير قال عند موته : أجلسونى .. فأجلسوه فقال : أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت . ولكن لا إله إلا الله .. ثم رفع رأسه فأحد النظر فقالوا له : إنك تنظر نظرا شديدا يا أمير المؤمنين .. قال : إنى أرى حضرة ما هم بإنس ولا جن .. ثم قبض رحمه الله .. وسمعوا تاليا يتلو : **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواًّ فِي الأَرْضِ ولاَ فَسَاداً والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** القصص 83

يا غافل القلب عن ذكر المنيات	عما قليل ستثوى بين أموات
فاذكر محلك من قبل الحلول به	وتب إلى الله من لهو ولذات
إن الحمام له وقت إلى أجل	فاذكر مصائب أيام وساعات
لا تطمئن إلى الدنيا وزينتها	قد حان للموت يا ذا اللب أن يأتى

وأشرف أنواع التوبة وأرفعها من يفنى عمره فى الطاعة ثم ينبه إلى قرب الأجل ليتزود ويتهيأ للرحيل وليقلى الله بعمل صالح يكون خاتمة له .. وهو مقام أشرف الأنبياء والمرسلين .

قال ابن عباس : لما نزلت على النبى ﷺ : إذا جاء نصر الله والفتح .. نعيت لرسول الله ﷺ نفسه . فأخذ فى أشد ما كان اجتهادا فى أمر الآخرة ..

قالت أم سلمة : كان النبى ﷺ فى آخر عمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيئ إلا قال : سبحان الله وبحمده : فذكرت ذلك له . فقال .. إنى أمرت بذلك وتلى هذه السورة .

وكان من عادته أن يعتكف فى كل عام فى رمضان عشرا . ويعرض القرآن على جبريل مرة .. فاعتكف فى ذلك العام عشرين يوما . وعرض القرآن مرتين وكان يقول .. ما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلى .. ثم حج حجة الوداع .. وقال للناس : خذوا عنى مناسككم فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا .. وطفق يودع الناس . فقالوا : هذه حجة الوداع : ثم رجع إلى المدينة فخطب قبل وصوله إليها .. وقال : أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسل ربى فأجيب .. ثم أمر بالتمسك بكتاب الله ثم توفى بعد وصوله إلى المدينة بيسير ﷺ .

إذا كان سيد المحسنين يؤمر أن يختم عمره بالزيادة فى الإحسان فكيف يكون حال المسئ : لطائف المعارف صـ 582 .

ورود التوبة فى القرآن

وردت التوبة فى القرآن على ثلاثة أوجه :

الأولى بمعنى التجاوز والعفو وهذا مقيد بعلى : (**فَتَابَ عَلَيْكُمْ**) البقرة 87 : أو (**يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**) آل عمران 28 (**ويَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ** التوبة 5 .

الثانى بمعنى الرجوع والإنابة . وهذا مقيد بإلى (**تُبْتُ إِلَيْك**) الأعراف 43 .

(**فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ** البقرة 54 . (**تُوبُوا إِلَى اللَّهِ** التحريم 8 .

الثالث معنى الندم على الزلة . وهذا غير مقيد لا بإلى ولا بعلى :

(**لاَّ الَّذينَ ابُوا وأَصْلَحُوا** البقر 60 . (**فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** التوبا 3

ويقال أن التوبة بطريق المعنى على ثلاثة أنواع :

فالأول التوبة من ذنب يكون بين العبد وربه وهذه تكون بندامة الجنان واستغفار اللسان

الثاني: التوبة من ذنب يكون بين العبد وطاعة الرب . وهذه تكون بجبر النقصان الواقع فيها .

الثالث: من ذنب يكون بين العبد وبين الخلق : وهذه تكون بإرضاء الخصوم بأى وجه من الإمكان .

شروط التوبة

الأول : أن يقلع المذنب عن المعصية .

الثاني : الندم على فعلها .

الثالث : العزم على عدم العودة إليها .

الرابع : أن تكون قبل الموت والغرغرة .

الخامس : أن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها .. وذلك خروج الدجال ودابة الأرض

السادس : إذا كانت تتعلق بحقوق العباد يشترط أن يؤديها لصاحبها أو يحصل على مسامحته من غير إكراه .. وإن لم يستطع ذلك استمر فى صدق توبته . والله قادر على إرضائه والمغفرة للجميع ..

حقيقة التوبة من كل ذنب

واعلم أن حقيقة التوبة من كل ذنب عشرة أعمال إلا أن يكون العبد توابا يحبه الله ولا تكون توبته نصوحا التى شرطها الله وفسرتها النبوة إلا أن يحكم العبد عشر توبات من كل ذنب .

أولها : ترك العود إلى فعل الذنب : ثم يتوب من القول به .. ثم يتوب من الاجتماع مع سبب الذنب .. ثم التوبة من السعى فى مثله .. ثم التوبة من النظر إليه .. ثم التوبة من الاستماع إلى القائلين به .. ثم التوبة من الهمة به .. ثم التوبة من التقصير فى

حق التوبة .. ثم التوبة من أن لا يكون أراد إلا وجه الله خالصا بجميع ما تركه لوجهه .. ثم التوبة فى النظر إلى التوبة والسكون إليها والإدلال بها : القوت .

صفات التائبين

قال ذو النون المصرى : إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب .. نصبوها بين أعينهم حيث ترمقها القلوب .. وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عى ولا بكم وأنهم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء . ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم فى العلا حتى أناخوا فى رياض النعيم وخاضوا فى بحر الحياة وردموا خنادق الجزع .. وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة : ابن خميس فى : مناقب الأبرار .

التوبة النصوح

قال تعالى :

(ا أَ;دَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) التحريم 8 .

فنصوحا من النصح جاء على وزن فعول للمبالغة فى النصح .. وقد قرأت نصوحا بالضم فتكون حينئذ مصدر نصحت له نصحا ونصوحا .. فمعناه خالصة لله .. وقيل اشتقاقه من النصاح وهو الخيط .. أى مجرورة لا تتعلق بشئ ولا يتعلق بها شئ وهو الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى المعصية كما تروغ الثعالب . أن لا يحدث نفسه بعود إلى ذنب متى قدر عليه وان يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصا لوجهه كما ارتكبه لأجل هواه مجمعا عليه بقلبه وشهوته فمتى أتى الله بقلب سليم من الهوى وعلم خالص مستقيم على السنة فقد ختم له بحسن الخاتمة : ومن الصفات العليا والأسماء

الحسنى التى تفرد بها الحق عز وجل . تفضلا منه وكرما .. صفة التوبة : وهى كما
قال الحلبى : التواب فى الأسماء الحسنى .. العائد على عباده بفضله ورحمته كلما رجع العبد إلى طاعته وندم على معصيتة . فلا يحبط عنه ما قدمه من خير ولا يحرمه ما وعد به الطائع من الإحسان .

وقال الخطابى : التواب : الذى يعود إلى القبول كلما عاد العبد إلى الذنب وتاب : جامع الأصول . جـ ص 3ـ .

وقد اختلفت عبارات السلف وأذواقهم فكل عبر عما بداخله :

فقال عمر بن الخطاب .. وأبى بن كعب : التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع .

وقال الحسن البصرى . هى أن يكون العبد نادما على ما مضى مجمعا على ألا يعود :

وسئل عنها مرة أخرى فقال : هى ندم بالقلب واستغفار باللسان وتزكية الجوارح واضمار أن لا يعود .

وقال الكلبى : أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن .

وقال ابن المسيب .. توبة نصوحا .. تنصحون بها أنفسكم .

وقال الواسطى : التوبة النصوح لا تبقى على صاحبها أثرا من المعصية سرا ولا جهرا ومن كانت توبته نصوحا لا يبالى كيف أمسى ولا كيف أصبح .

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : **تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً** التحريم 8 . قال العلماء : التوبة النصوح : هى أن يقلع عن الذنب فى الحاضر ويندم على ما سلف منه فى الماضى ويعزم على ألا يفعل فى المستقبل ثم إن كان الحق لآدمى رده إليه بطريقته : جـ ص 96 .

وقال القرطبى : يجمعها أربعة أشياء الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سئ الأخلاق والخلان .

وقال الجنيد : التوبة النصوح : هو أن ينسى الذنب فلا يذكره أبدا . لأن من صحت توبته صار محبا لله ومن أحب الله نسى ما دون الله .

وقال ذو الأذنيز : أنس : هو ان يكون لصاحبها دمع مسفوح وقلب عن المعاصى جموح : القرطبى : جـ 3 ص 98 .

وقال تعالى : **لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**) التوبه 104

وقال : (**ۼافِرِ الذَّنبِ وقَابِلِ التَّوْبِ**) غافر 3 . عن يزيد الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد على عمر . ففقده عمر فقال : ما فعل فلان بن فلان ؟

فقالوا : يا أمير المؤمنين يتابع فى هذا الشراب .. قال : فدعا عمر كاتبه فقال : أكتب : من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .. (**ۼافِرِ الذَّنبِ وقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المَصِيرُ**) ثم قال لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه وان يتوب الله عليه : فلما بلغ الرجل كتاب عمر .. جعل يقرؤه ويردده ويقول : (**ۼافِرِ الذَّنبِ وقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ**) لقد حذرنى عقوبته ووعدنى أن يغفر لى ..

وفى رواي : فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع . فلما علم عمر خبره قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم زلة زلة فسددوه .. ووفقوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا عونا للشيطان عليه : ابن كثير : جـ ص 18 .

وذكر ابن أبى الدني : أن صالحا المرى قرأ عنده قارئ : **وأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ولا شفِيعٍ يُطَاعُ يطاع**) غافر 8 .

فذكر صالح النار وحال العصاة فيها وصفة سياقهم إليها وبالغ فى ذلك وبكى الناس .. فقام فتى كان حاضرا فى مجلسه وكان مسرفا على نفسه فقال : أكل هذا فى القيامة ؟ قال صالح : نعم وما أكثر منه لقد بلغنى أنهم يصرخون فى النار حتى تتقطع أصواتهم فلا يبقى منهم إلا كهيئة الأنين من المريض المدنف . فصاح الفتى : أيالله . وأغفلناه عن نفسى أيام الحياة .. وا أسفاه على تفريطى فى طاعتك يا سيداه .. وا أسفاه على تضييع عمرى فى دار الدنيا . ثم استقبل القبلة وعاهد الله على توبة نصوحا ودعا الله أن يتقبل منه وبكى حتى غشى عليه فحمل من المجلس صريعا فمكث صالح وأصحابه يعودونه أياما ثم مات .. فحضره خلق كثير .. فكان صالح يذكره فى مجلسه كثيرا ويقول : وبابى قتيل القرآن .. وبابى قتيل المواعظ والأحزان .. فرآه رجل فى منامه فقال

ما صنعت ؟ قال : عمتنى بركة مجلس صالح فدخلت فى سعة رحمة الله التى :
(**وسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**) الأعراف 56 .

من آلمته سياط المواعظ فصاح فلا جناح . ومن زاد ألمه فمات فدمه مباح

قضى الله فى القتلى قصاص دمائهم ولكن دماء العاشقين جبار

لطائف المنن ص 582 .

غفار الذنوب

إن الله يغفر الذنوب جميعا وربما ألحق المسيئين بالمحسنين فضلا منه وكرما ..

قال الجنيد : إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين ..

وقال إبراهيم الخليل يوما : يا كريم العفو .. فقال جبريل عليه السلام أتدرى ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه : البيهقى فى الشعب .

وكان يحيى بن معاذ يقول : يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى لك مع الأعمال .. لأننى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الإخلاص وكيف أصفيها وأحذرها ؟ وأنا بالآفات معروف .. وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك . وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف ففضل الله كبير وعطاؤه عظيم وقد يعطى التائب أكثر من الذى لم يعص لذا أختلف العلماء فى هذه المسألة وقالوا أيهما أفضل :

فقيل التائب لأن توبته بعد أن ذاق لذات المعصية تدل على أنه أعلى صدقا وأقوى إيمانا لأنه باشر المانع ثم تركه بخلاف الثانى :

وقيل الثانى لأنه لم يتدنس بالمعاصى .. وتوقف فى هذه المسألة ابن حجر والله أعلم .

عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ من لقى الله لا يعدل به شيئا فى الدنيا ثم كان عليه مثل جبال ذنوب غفر الله له : البيهقى .

فإذا لم يشرك بالله ولم يتمرد على الله . ونطق بكلمة التوحيد ولم يتجرأ على مخالفته والاستكبار على أمره ونهيه فهو عرضة للمغفرة .

عن أبى عمر قال : كنا مع النبى ﷺ فى بعض غزواته فمر بقوم فقال من القوم قالوا نحن المسلمون .. وامرأة تحضب : توقد : بقدرها ومعها ابن لها فإذا ارتفع وهج

تنحت به . فأتت النبى ﷺ فقالت : أنت رسول الله : قال : نعم . قالت : بأبى أنت وأمى .. أليس الله أرحم الراحمين .. قال : بلى .. قالت : أليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها . قال : بلى .. قالت : إن الأم لا تلقى ولدها فى النار . فأكب رسول الله ﷺ يبكى . ثم رفع رأسه إليها . فقال : إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذى يتمرد على الله وأبى أن يقول : لا إله إلا الله : ابن ماجه .

عن عمر بن الخطاب قال : قدم على رسول الله ﷺ بسبى فإذا امرأة من السبى تسعى قد تحلب ثديها إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته .. فقال : رسول الله ﷺ : أترون هذه المرأة طارحةً ولدها فى النار ؟ قلنا : لا .. والله . وهى تقدر على ألا تطرحه . قال : فإن الله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها : البخارى .

الكرم الإلهى .. والجود الربانى

قال الفضيل بن عياض : ما من ليلة اختلط ظلامها وأرخى الليل سربال سترها إلا نادى الجليل جل جلاله : من أعظم منى جودا .. والخلائق لى عاصون وأنا لهم مراقب .. أكلؤهم فى مضاجعهم كأنهم لم يعصونى وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا .. من بينى وبينهم أجود بالفضل على العاصى .. وأتفضل على المسئ . من ذا الذى دعانى فلم أسمع إليه ؟ أو من ذا الذى سألنى فلم أعطه ؟ أم من ذا الذى أناخ ببابى ونحيته . أنا الفضل ومنى الفضل .. أنا الجود ومنى الجود .. أنا الكريم ومنى الكرم .. ومن كرمى أن أغفر للعاصى بعد المعاصى .. ومن كرمى أن أعطى التائب كأنه لم يعصنى فأين عنى تهرب الخلائق . وأين عن بابى يتنحى العاصون ؟ : حلية الأولياء : جـ صـ 2(.

عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : المؤمن واه راقع . فخيرهم من مات على رقعه . الطبرانى والبيهقى والبزار .

المؤمن واه بالذنب راقع بالتوبة والندم .. ولقد بين الحق عز وجل أن الذين يذنبون ثم يتوبون لهم أجران . قال تعالى : (**أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة**) القصص 54 . فجعل لهم صبرين على الذنب وعلى التوبة فأتاهم أجرين ..

لأن ازدراءه لنفسه ومقته لها وشعوره بالمعصية كفارة للذنوب ولأنه من باب قوله تعالى (**فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**) النجم 32 .

وقال سهل : قال الله لآدم .. يا آدم .. إنى أنا الله لا إله إلا أنا .. فمن رجا غير فضلى وخاف غير عدلى لم يعرفنى . يا آدم . إن لى صفوة وضنائن وخيرة من عبادى أسكنتهم صلبك بعينى من بين خلقى أعزهم بعزى وأقربهم من وصلى وأمنحهم كرامتى وأبيح لهم فضلى وأجعل قلوبهم خزائن كتبى وأسترهم برحمتى واجعلهم أمانا بين ظهرانى عبادى . فبهم أمطر السماء وبهم أنبت الأرض وبهم أصرف البلاء .. هم أوليائى وأحبائى ودرجاتهم عالية ومقاماتهم رفيعة وهممهم بى متعلقة . صحت عزائمهم .. ودامت فى ملكوت غيبى فكرتهم فارتهنت قلوبهم بذكرى فسقيتهم كأس الأنس صرف محبتى فطال شوقهم إلى لقائى وإنى إليهم لأشد شوقا .. يا آدم من طلبنى من خلقى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فطوبى يا آدم لهم ، ثم طوبى لهم . ثم طوبى لهم وحسن مآب .. يا آدم هم الذين إذا نظرت إليهم هان على غفران ذنوب المذنبين لكرامتهم علي : حلية الأولياء .

عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : إذا عملت سيئة فأحدث عنها توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية : أحمد

وفى رواية احمد من حديث أبى ذر : إذ عملت سيئة فأتبعها بحسنة تمحها .. قيل يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال هى أفضل الحسنات :

وفى القوت : صدقة الليل تكفر ذنوب النهار .. وصدقة السر تكفر ذنوب الليل .

الحسنات يذهبن السيئات

عن أبى هريرة : قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ : فقال : يا رسول الله : إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها . فأنا هذا .. فاقض ما شئت فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت على نفسك .. قال : ولم يرد عليه النبى ﷺ : شيئا فقام الرجل فانطلق فأتبعه النبى ﷺ رجلاً فدعاه .. فتلى عليه هذه الآية :

(**وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * واصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ**) هود 14 . 15 .

فقال رجل من القوم : يا نبى الله هذا له خاصة ؟ قال : بل للناس كافة : مسلم وغيره .

وفى رواية ابن مسعود : أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له كأنه يسأل عن كفارتها فأنزل عليه : (**وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ** .... " الآية . فقال الرجل يا رسول الله ألى هذا ؟ قال : هى لمن عمل بها من أمتى : متفق عليه .

عن أبى طويل الممدود .. أنه أتى النبى ﷺ فقال : أرأيت من عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئا .. وهو فى ذلك لم يترك حاجة ولا داجة : الصغيرة : إلا أتاها .. فهل لذلك من توبة ؟ قال : فهل أسلمت ؟ قال : أما أنا .. فأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .. قال تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله لك خيرات كلهن .. قال : وغدراتى وفجراتى .. أفعالى الذميمة ومعاصى .. قال : نعم .. قال : الله أكبر : فمازال يكبر حتى توارى . البزار والطبرانى : الترغيب والترهيب : جـ 4 صـ 12. .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن رجلين كانا فى بنى إسرائيل متحابين .. أحدهما مجتهد فى العبادة .. والآخر يقول مذنب .. فجعل يقول : أقصر عما أنت فيه . فيقول : خلنى وربى حتى وجده يوما على ذنب استعظمه فقال : أقصر .. فقال : خلنى وربى أبعثت على رقيبا .. فقال والله لا يغفر الله لك أبدا ولا يدخلك الجنة . فبعث الله إليهما ملكا . فقبض أرواحهما . فاجتمعا عنده . فقال للمذنب ادخل الجنة برحمتى . وقال للآخر أتستطيع أن تحظر على عبدى رحمتى . فقال : لا يا رب . فقال : اذهبوا به إلى النار : أحمد

وإنما أدخله الله النار مجازاة له على قسمه بأن الله لا يغفر للمذنب ذنبه لأنه جعل الناس آيسين من رحمة الله وحكم بأن الله غير غفور .. وكان مغرورا باجتهاده محتقرا للمذنب لإصراره على الذنب . ولذا قيل : " معصية أورثت ذلا واستصغارا خير من طاعة أوجبت عجبا واستكبارا " وقال وهيب بن الوردى : بلغنا أن عيسى مر ورجل من بنى اسرائيل من حواريه بلص فى قلعة فلما رآهما اللص ألقى الله فى قلبه التوبة . قال : فقال لنفسه . هذا عيسى بن مريم .. روح الله وكلمته . وهذا فلان حواريه . ومن أنت يا شقى . لص بنى إسرائيل . قطعت الطريق وأخذت الأموال وسفكت الدماء . ثم هبطت إليهما تائبا نادما على ما كان منى . فلما لحقهما قال لنفسه تريد أن تمشى معهما ؟ لست

لذلك بأهل .. امش خلفهما كما يمشى الخطاء المذنب مثلك .. قال : فالتفت إليه الحوارى فعرفه فقال فى نفسه : انظر هذا الخبيث الشقى ومشيه وراءنا .. قال : فأطلع الله على ما فى قلوبهما من ندامة وتوبة .. ومن ازدراء الحوارى إياه وتفضيله نفسه عليه . قال : فأوحى الله إلى عيس أن مر الحوارى ولص بنى إسرائيل يأتنفا العمل جميعا أما اللص فقد غفرت له ما مضى لندامته وتوبته . وأما الحوارى فقد حبط عمله لعجبه بنفسه وازدرائه هذا التائب : حلية الأولياء .

وعن ابن عمر : قال : سمعت رسول الله ﷺ : يحدث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات ولكن سمعته أكثر .. سمعته يقول : كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله .. فأتته امرأة .. فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها .. فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته . أرعدت وبكت . فقال ما يبكيك .. أكرهتك ؟ قالت : لا .. ولكنه عمل ما عملته قط .. وما حملنى عليه إلا الحاجة .. فقال : تفعلين أنت هذا .. وما فعلته قط .. اذهبى فهى لك .. وقال : لا والله .. لا أعصى الله بعدها أبدا .. فمات من ليلته . فأصبح مكتوبا على باب داره إن الله قد غفر للكفل : الترمذى وحسنه .. وابن حبان فى صحيحه .

وعن جابر قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : وا ذنوباه .. وا ذنوباه مرتبن أو ثلاثا : فقال له رسول الله ﷺ قل اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبى . ورحمتك أرجى عندى من عملى . فقالها : ثم قال : عد .. فعاد .. ثم قال : عد .. فعاد .. فقال : قم .. فقد غفر الله لك : الأذكار للنووى .

أنا المذنب الخطاء وا لعفو واسع ولو لم يكن ذنب لما وقع العفو

وقال يحيى بن معا : لولم يكن العفو أحب الأشياء إليه . لم يبتل بالذنب أكرم الخلق إليه

يا رب أنت رجائى وفيك حسنت ظنى

يا رب فاغفر ذنوبى وعافنى واعف عنى

العفو منك إلهى والذنب قد جاء منى

والظن فيك ربى حقق بحقك ظنى

وقيل : أوحى الله إلى آدم .. يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب .. وورثتهم التوبة . من دعانى منهم لبيته كتلبيتك .. يا آدم أحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب .

وقال رجل لرابعة : إنى قد أكثرت من الذنوب والمعاصى فلو تبت فهل يتوب الله على ؟ فقالت : لا .. بل لو تاب عليك لتبت .

مبشرات الأمة فى القرآن

قال بن عباس : ثمان آيات فى سورة النساء هى خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت .. أولهن (**ريدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ** . ثلاث متتابعات .. والرابعة : (**ن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً** . والخامسة : (**نَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً** .. والسادسة : (**وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً** .. والسابعة : (**نَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** .. والثامنة : (**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً** . النساء 52 .

فأخبرهم ثم أقبل يفسرها بن عباس فى آخر الآية : " وكان الله للذين عملوا من الذنوب غفورا رحيما " الشعب : جـ 5 صـ 427 .

وقال شمر بن عطية فى قوله تعالى : **إن ربنا لغفور شكور** " قال غفر لهم الذنوب التى عملوها وشكر لهم الخير الذى دلهم عليه فعملوا به فأثابهم عليه .

وقال الله تعالى : **ڤلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**) الزمر 53 .

هذه الآية دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت .. وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر .

وقال ابن عباس فى تفسيرها : قد دعا إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ومن زعم أن المسيح هو ابن الله .. ومن زعم أن عزيرا ابن الله .. ومن زعم أن الله فقير ومن زعم أن يد الله مغلولة .. ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة .. ويقول الله تعالى لهؤلاء : (**فَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ؟**) المائدة 74 . ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولا من هؤلاء من قال : (**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**) النازعات 24 . وقال :

(**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**) القصص 38 . قال ابن عباس من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله .. ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه : ابن كثير : جـ 7 صـ 99 .

قال ابن مسعود : إن أعظم آية فى كتاب الله (**اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ**) وأن أجمع آية فى القرآن بخير وشر : (**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ...**) .

وأن أكثر آية فى القرآن فرجا : آية الغرف : الزمر 53 : (**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ..**) وأن أشد آية فى كتاب الله تصريفا (**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**) الطلاق 2 ، 3 .

عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .. يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم .. يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم .. يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم .. يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا .. فاستغفرونى أغفر لكم .. يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى .. ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص من ملكى شيئا .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا ادخل

البحر .. يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه : مسلم .

ونريد أن نلقى الضوء على آية الغرف : **(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ...** " مما قاله المفسرون : لفظ ياعبادى : مختص بالمؤمنين .. لأن المؤمن يعترف بكونه عبد الله .. وقد قال تعالى فى وصف المؤمنين : **(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً)** الفرقان آية 3 وقال : **(عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ)** وقال : **(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)** الإسراء .

أما المشركون فإنهم يسمون أنفسهم بعبد اللات والعزى وعبد المسيح . وإذا ثبت هذا فنقول : قل يا عبادى .. لا تليق إلا بالمؤمن .. وهذه الآية تدل على الرحمة الواسعة وغفرانه للصغائر والكبائر من الذنوب .. وأن هؤلاء العباد هم عباد الله وأهل مغفرته ورضوانه ..

قال الإمام الرازى : واعلم أن هذه تدل على الرحمة من وجوه :

الأول : أنه سمى المذنب بالعبد والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة واللائق بالرحيم الكريم إفاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج . .

الثانى : أنه تعالى أضافهم إلى نفسه بياء الإضافة . فقال : قل يا عبادى الذين أسرفوا : وشرف الإضافة إليه يفيد الأمن من العذاب

الثالث: إن الله تعالى قال : **أسرفوا على أنفسهم)** ومعناه أن ضرر تلك الذنوب ما عاد إليه بل هو عائد إليهم فيكفيهم من تلك الذنوب عود مضارها إليهم ولا حاجة إلى إلحاق ضرر آخر بهم . **والرابع** : أنه قال **(لا تقنطوا من رحمة الله)** نهاهم عن القنوط فيكون هذا أمرا بالرجاء .. والكريم إذا أمر بالرجاء فلا يليق به إلا الكرم .

الخامس : أنه قال : أولا : يا عبادى وكان الأليق أن يقول لا تقنطوا من رحمتى . لكن ترك هذا اللفظ وقال : لا تقنطوا من رحمة الله : لأن قولنا الله .. أعظم أسماء وأجلها فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل .

السادس : أنه لما قال : لا تقنطوا من رحمة الله : كان الواجب أن يقول : أنه يغفر الذنوب جميعا : ولكنه لم يقل ذلك . بل أعاد اسم الله وقرن به لفظه إن المفيدة لأعظم وجوه التأكيد . وذلك يدل على المبالغة فى الرحمة .

السابع : أنه لو قال يغفر الذنوب لكان المقصود حاصلا لكنه أردفه باللفظ الدال على التأكيد فقال جميعا وهذا من المؤكدات .

الثامن : إنه وصف نفسه بكونه غفورا .. ولفظ الغفور يفيد المبالغة .

التاسع إنه وصف نفسه بكونه رحيما .. والرحمة تفيد فائدة على المغفرة فكان قوله : إنه هو الغفور : إشارة إلى موجبات العقوبة . وقوله " الرحيم : إشارة إلى تحصيل موجبات الرحمة والثواب .

العاشر : أن قوله : إنه هو الغفور الرحيم : يفيد الحصر .. ومعناه أنه لا غفور ولا رحيم إلا هو .. وذلك يفيد الكمال فى وصفه سبحانه بالغفران والرحمة فهذه الوجوه العشرة مجموعة فى هذه الآية . وهى بأسرها دالة على كمال الرحمة والغفران . ونسأل الله تعالى الفوز بها والنجاة من العقاب بفضله ورحمته : الفخر الرازى : جـ 27 صـ 4 .

وعن ثوبان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية : يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم : فقال رجل .. ومن أشرك ؟ فسكت النبى ﷺ ثم قال : ' ألا ومن أشرك . ثلاث مرات : لا يقال المغفرة لمن أشرك بشرط الإسلام أمر واضح فلا يجوز أن تخفى على السائل وعليه .. ﷺ .. حتى يسكت لانتظار الوحى .. أو لاجتهاد لأنا نقول : السؤال للاستبعاد من حيث العادة . والسكوت لتعليم سلوك طريق التأنى والتدبر . وإن كان الأمر واضحا : وقيل : الظاهر أنه لانتظار الإذن أو الاجتهاد فى التصريح بعموم المغفرة فإنهم ربما اتكلوا على ذلك فيخشى التفريط فى العمل وهو لا ينافى التعليم فإنه عليه السلام إنما يعلمهم التدبر بعد أن يتدبر هو فى نفسه ﷺ : أحمد وعن ابن سيرين قال : قال على كرم الله وجهه : أى آية أوسع : فجعلوا يذكرون آيات من القرآن : ' من يعمل سوءا .. أو يظلم نفسه " ونحوها . فقال على : ما فى القرآن أوسع آية من : **يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** " : روح المعانى جـ 24 صـ 15

عن ابى سعيد الخدرى : أن النبى ﷺ قال : إن رجلا كان قبلكم رغسه الله مالا فقال لبنيه لما حُضرَ أى أب كنت لكم ؟ قالوا : خير أب . قال : فإنى لم أعمل خيرا قط فإذا مت فأحرقونى ثم اسحقونى ثم ذرونى فى ريح عاصف . ففعلوا : فجمعه الله . فقال : ما حملك على هذا ؟ فقال : مخافتك .. فتلقاه برحمته : البخارى ومسلم .

الكل ناجون إن شاء اللّه

عن أسامه بن زيد عن النبى ﷺ فى قول الله عز وجل : ومنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات " قال : كلهم ناجون : البيهقى .

وفى رواية للبيهقى عن عمر مرفوعا : سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له .

وعن عائشة قالت لصهبان : أما السابق فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ وشهد له بالجنة .. وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به وأما الظالم فمثلى ومثلك .

وعن على كرم الله وجهه : الظالم أنا والمقتصد أنا والسابق أنا .. فقيل له كيف ذلك .. قال : أنا الظالم بمعصيتى ومقتصد بتوبتى وسابق بمحبتى .

وقال الحسن البصرى : السابق من رجحت حسناته على سيئاته والمقتصد من استوت حسناته والظالم الذى ترجحت سيئاته على حسناته .

وقال جعفر الصادق : فرق المؤمنين ثلاث فرق .. ثم سماهم عبادنا أضافهم إلى نفسه تفضلا منه وكرما وجعلهم أصفياء مع علمه بتفاوت معاملاتهم .. ثم جمعهم فى آخر الآية . فقال : (**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا**) وبدأ بالظالمين . إخبارا بأنه لا يتقرب إليه إلا بمحض كرمه ..

وأن الظلم لا يؤثر فى الاصطفائية .. ثم ثنى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء .. ثم ختم بالسابقين .. لئلا يأمن أحد مكره وما يقنط من كرمه . وكلهم فى الجنة بحرمة كلمة الإخلاص : المرقاة : جـ 5 صـ 64 .

وقال إبراهيم بن أدهم : فى قوله تعالى : (**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** فاطر 32
قال : السابق مضروب بسوط المحبة .. مقتول بسيف الشوق .. ومضطجع على باب

الكرامة .. والمقتصد مضروب بسوط الندامة .. مقتول بسيف الحسرة .. مضجطع على باب العفو .. والظالم لنفسه . مضروب بسوط الغفلة .. مقتول بسيف الأمل مضطجع على باب العقوبة : حلية الأولياء .

وقال ابن عباس فى قوله : " ثم أورثنا الكتاب .. " قال هم أمة محمد ﷺ ورثهم كل كتاب أنزل .. فظالمهم مغفور له . ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا . وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وقال ابن مسعود : هذه الأمة ثلاثة أثلاث : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب . وثلث يحاسبون حسابا يسيرا . وثلث يحبسون بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بالله فيقول الرب : ادخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى . ثم قرأ الآية : ابن جرير .

قال البيضاوى : ظالم لنفسه . بالتقصير فى العمل به . وقوله : مقتصد : أى يعمل به فى أغلب الأوقات .. والسابق : هو الذى يضم التعليم والإرشاد إلى العمل .. ومثل الظالم الجاهل .. المقتصد .. المتعلم . والسابق العالم .. وقيل الظالم . المجرم . والمقتصد . الذى خلط الصالح بالسئ .. والسابق .. الذى ترجحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفرة وهو معنى قوله ﷺ : أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب .. وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون فى طول المحشر ثم يتلقاهم الله برحمته .

وروى البيهقى عن أبى الدرداء .. قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالى : (**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** .....) فاطر 32 فأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب .. وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا .... وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحاسبون فى طول المحشر ثم يتلقاهم الله برحمته . فهم الذين يقولون : (**وقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**) فاطر 34 .

ويقال : الظالم من زهد فى دنياه .. والمقتصد من رغب فى عقباه . والسابق من آثر على الدارين مولاه .

وقيل : الظالم من ترك الزلة . والمقتصد من ترك الغفلة . والسابق من ترك العلافة : وفى الآية أقوال كثيرة غير ما ذكر .

وروى الواحدي أن رجلا من أشراف أهل البصرة كان منحدرا إليها فى سفينة ومعه جارية له .. فشربا يوما وغنته جاريته بعود لها . وكان معهم فى السفينة فقير صالح . فقال له : يا فتى تحسن مثل هذا ؟ قال : أحسن ما هو أحسن منه . وكان الفقير حسن الصوت ....

فاستفتح وقرأ : (**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ولاَ ظْلَمُونَ فَتِيلاً * يْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ ولَوْ تُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**) النساء 77 ، 78

فرمى الرجل ما بيده من الشراب فى الماء وقال : أشهد أن هذا أحسن مما سمعت . فهل غير هذا ؟ قال : نعم . فتلا عليه : (**وقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن ومَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا**) الكهف 29 .

فوقعت من قلبه موقعا .. ورمى بالشراب فى الماء .. وكسر العود .. ثم قال : يا فتى هل هنا فرج .. قال : نعم : **ل يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ** ..) الآية فصاح صيحة عظيمة . فنظروا إليه فإذا هو قد مات . رحمه الله .

تملقوا الله

وإذا كان الله قد أمر بالتوبة وحث عليها ودعا إليها ووعد بالمغفرة من جاء إليه نائبا .. فإنه يحب من عبده أن يلح عليه ويتملقه ففى الحديث : " تملقوا الله : معتذرين إليه خاضعين .. وفى الحديث : لا أحد أحب إليه العذر من الله : من اعتذر إلى الله قبل الله عذره .. فذلك بأن يقول بقلبه ولسانه : اللهم لا براءة لى من ذنب فأعتذر . ولا قوة لى فأنتصر .. ولكنى مذنب مستغفر .. اللهم لا عذر لى وإنما هو محض حقك ومحض جنايتى فإن عفوت وإلا فالحق لك .. متمثلا بقول القائل :

وما قابلت عتبك باعتذار ولكنى أقول كما تقول
وأطرق باب عفوك بانكسار ويحكم بيننا الخلق الجميل

وفى الأثر " إن العبد إذا أذنب . فقال : يا ربى هذا قضاؤك وأنت قدرت على . وأنت حكمت على .. وأنت كتبت على .. يقول الله عز وجل : وأنت عملت وأنت كسبت وأنت أردت واجتهدت .. وأنا أعاقبك عليه .. وإذا قال : يا رب أنا ظلمت وانا أخطأت

وأنا اعتديت وأنا فعلت : يقول الله عز وجل : وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت .. فأنا أغفر لك .. وإذا عمل حسنة فقال :

يا رب أنا عملتها وأنا تصدقت وأنا صليت وأنا أطعمت .. يقول الله عز وجل : وأنا أعنتك وأنا وفقتك .. وإذا قال يا رب : أنت أعنتنى ووفقتنى وأنت مننت على . يقول الله : وأنت عملتها وأنت أردتها وأنت كسبتها " : مدارج السالكين : جـ . صـ 84 .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن عبدا أذنب ذنبا .. فقال : ربى أذنبت ذنبا فاغفره .. فقال ربه علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به . غفرت لعبدى .. ثم مكث ما شاء الله .. ثم أذنب ذنبا آخر فقال : ربى أذنبت ذنبا فاغفره .. فقال : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به .. غفرت لعبدى .. ثم مكث ما شاء الله .. ثم أذنب ذنبا فقال ربى أذنبت ذنبا آخر فاغفره لى .. فقال : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى فليفعل ما شاء . متفق عليه . وهذه الصيغة للتلطف وإظهار العناية والشفقة أى إن فعلت أضعاف ما كنت تفعل واستغفرت منه غفرت لك . فإنى أغفر الذنوب .

وقال الطيبى : اعمل ما شئت ما دمت تذنب ثم تتوب فإنى أغفر لك .. وهذه العبارة تستعمل فى مقام السُّخط كقوله تعالى : (**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**) فصلت 40 ، وفى مقام الحفاوة والتلطف كما فى حديث حاطب بن أبى بلتعة : لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

والحديث يدل على أن الاعتراف بالذنب والالتجاء إلى الله سبب للغفران .

وقد علق سبحانه وتعالى قبول التوبة بالاستغفار وعدم الإصرار . دون المعاودة فقال :

(والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ومَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ولَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وهُمْ يَعْلَمُونَ) آل عمران 135 .

والإصرار : عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به . فهذا الذى يمنع مغفرته .

قال رسول الله ﷺ : ما أصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة : أبو داود والترمذى والبيهقى .

وقال سهل التسترى : لابد للعبد فى كل حال من مولاه .. فأحسن أحواله أن يرجع إليه فى كل شئ فإن عصى يقول : يا رب استر على .. فإذا فرغ من المعصية قال : يا رب تب على .. فإذا تاب قال : يا رب ارزقنى العصمة .. فإذا عمل قال : يا رب تقبل منى . وحكى أنه كان فى بنى إسرائيل شاب عبد الله عشرين سنة .. ثم عصاه عشرين سنة . ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته فساءه ذلك . فقال : إلهى أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين . فإذا رجعت إليك فهل تقبلنى ؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصه : أحببتنا فأحببناك وعصيتنا فأمهلناك . وإن رجعت إلينا قبلناك .

وقال سهل : استجلب حلاوة الزهد بقصر الأمل واقطع أسباب الطمع بصحة اليأس وتعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الذكر واستجلب نور القلب بدوام الحذر .. واستفتح باب الحزن بطول الفكر وتزين لله بالصدق فى كل الأحوال .. وتحبب إلى الله بتعجيل الانتقال : وإياك والتسويف فإنه يغرق فيه الهلكى وإياك والغفلة فإن فيها سواد القلب . وإياك والتوانى فيما لا عذر فيه فإنها ملجأ النادمين . واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم وكثرة الاستغفار واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر واستدم عظيم الشكر بخوف زوال النعم .

: حلية الأولياء .

فإذا رجع العبد إلى مولاه وانتبه من غفلته وصحا من رقدته ونظر فيما يصنعه من سيئات .. فترك المعاصى . وأصر على عدم العود .. قبله الله وتاب عليه .

قال القشيرى : إن للتوبة أسبابا وترتيبا وأقساما . فأول ذلك انتباه القلب عن رقدة الغفلة ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة . ويصل إلى هذه الجملة بالتوفيق والإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق سبحانه بسمع قلبه فإنه جاء فى الخبر : واعظ الله فى قلب كل امرئ مسلم : وفى الخبر : إن فى القلب لمضغة إذا صلحت صلح جميع الجسد وإذا فسدت فسد جميع البدن ألا وهى القلب فإذا ذكر بقلبه فى سوء ما يصنعه وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال سنحت فى قلبه إرادة التوبة .. والإقلاع عن قبيح المعاملة فيمده الحق سبحانه بتصحيح العزيمة الأخذ فى جميل الرجعة والتأهب لأسباب التوبة ..

وأول ذلك : هجر إخوان السوء فإنهم هم الذين يحملون على رد هذا القصد ويشوشون على صحة هذا العزم ولا يتم ذلك إلا بالمواظبة على المشاهدة التى تزيد رغبته فى التوبة .

وتوفر دواعيه على إتمام ما عزم عليه مما يقوى خوفه ورجاءه فعند ذلك تنحل من قلبه عقدة الإصرار على ما هو عليه من قبيح الأفعال فيتوقف عن تعاطى المحظورات ويكبح لجام نفسه عن متابعة الشهوات فيفارق الزلة فى الحال ويبرم العزيمة على أن لا يعود إلى مثلها فى المستقبل .. فإن مضى على موجب قصده ونفذ بمقتضى عزمه فهو الموفق صدقا . وإن نقض التوبة مرة أو مرات .. فقد يكون مثل هذا أيضا كثيرا فلا ينبغى قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء فإن لكل أجل كتابا : الرسالة القشيرية صـ 2(.

والتائب النادم فيه من الذلة والانكسار القلبى ما يجعله قريب من الله .. لأن العبد أقرب ما يكون إلى ربه عند ذله وانكسار قلبه ..

وفى الأثر .. الإسرائيلى : يا رب أين أجدك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم من أجلى :

ولأجل هذا كان : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد : لأنه مقام ذل وانكسار بين يدى ربه ، وتأمل قول النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل إنه يقول يوم القيامة : يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى .. قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه .. أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندى .

ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى .. قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه .. أما لو سقيته لوجدت ذلك عندى ..

ابن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما إن عبدى فلانا مرض فلم تعده .. أما لو عدته لوجدتنى عنده .

فقال فى عيادة المريض : لوجدتنى عنده . وقال فى الإطعام والإسقاء .. لوجدت ذلك عندى .. ففرق بينهما .. فإن المريض مكسور القلب ولو كان من كان فلابد أن يكسره المرض . فإذا كان مؤمنا قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده .

: مدارج السالكين ، جـ صـ 298 .

والمبادرة إلى التوبة فرض على الفور فمن أخرها عصى بالتأخير فإن تاب وجبت عليه توبته من تأخير التوبة ، وإن كان جاهلا ذلك : ففى صحيح ابن حبان : أن النبى ﷺ قال : الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . فقال أبو بكر : فكيف الخلاص منه يا

رسول الله ؟ قال : أن تقول : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم واستغفرك لما لا أعلم : وقال : اللهم اغفر لى ذنبى كله دقه وجله خطأه وعمده سره وعلانيته أوله وآخره .

التذلل والخضوع للّه

ليس شئ أحب إلى الله من الخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له : قائلا : أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى .. أسألك بقوتك وضعفى وبغناك عنى وفقرى إليك .. هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك .. عبيدك سواى كثير .. وليس لى سيد سواك .. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك .. أسألك مسألة المسكين .. وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل .. وأدعوك دعاك الخائف الضرير .. سؤال من خضعت لك رقبته ورغم لك أنفه وفاضت لك عيناه .. وذل لك قلبه :

يا من ألوذ به فى ما أؤمله	ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره	ولا يهيضون عظما أنت جابره

عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت .. خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت .. أعوذ بك من شر ما صنعت .. أبوء لك بنعمتك على .. وأبوء بذنبى . فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ..

وقال : ومن قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة .. ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة " : البخارى .

قال الطيبى : اعترف أولا بأنه تعالى أنعم عليه . ولم يقيده ليشمل كل الإنعام . ثم اعترف بالتقصير وأنه لم يقم بأداء شكرها . وعده ذنبا مبالغة فى التقصير وهضم النفس تعليما للأمة ..

والإقرار بالذنب اعتراف والاعتراف يمحق الاقتراف .. كما قيل :

فإن اعتراف المرء يمحو اقترافه	كما أن انكار الذنوب ذنوب

قال ابن حجر جمع فى الحديث من بديع المعانى وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى سيد الاستغفار .. ففيه الإقرار لله وحده بالألوهية والعبودية والاعتراف بأنه الخالق والإقرار بالعهد الذى أخذه عليه . والرجاء بما وعده به . والاستغفار من شر ما جنى على نفسه . وإضافة النعم إلى موجدها .. وإضافة الذنب إلى نفسه . ورغبته فى المغفرة . واعتراف بأنه لا يقدر على ذلك إلا هو ... وكل ذلك إشارة إلى الجمع بين الحقيقة والشريعة . لأن تكاليف الشريعة لا تحصل إلا إذا كان عون من الله .. قال : ويظهر أن اللفظ المذكور إنما يكون سيد الاستغفار إذا جمع صحت النية والأدب " : فيض القدير . جـ ا صـ 119

عن أبى بكر قال : قلت يا رسول الله .. علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى . قال : قل .. اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت .. فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم " : متفق عليه .

أى اغفر لى مغفرة من عندك أنت لا أنا لها بسعى ولا بعملى . ولكن هى من عندك أنت . مصداقا لقول النبى ﷺ : فيما رواه عنه أبو هريرة .. قال : قال رسول الله ﷺ : لن ينجى أحدا منكم عمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله . قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمته . فسددوا .. وقاربوا . واغدوا وروحوا بشئ من الدلجة . والقصد القصد تبلغوا : متفق عليه .

والمعنى فضل الله ورحمته وهو المطلوب .. والعمل مهما بلغ لا يخلو عن التقصير .. وليس المراد توهين العمل وإنما توقيف العباد على أن العمل لا يتم إلا بفضل الله ورحمته لكى لا يتكل على أعماله اغترارا بها .. وأن العمل المجرد لا ينفع وإنما يفيد إذا كان مقرونا بالفضل والرحمة ...

وقال الطيبى : النجاة من العذاب والفوز بالثواب بفضل الله ورحمته والعمل غير مؤثر فيها على سبيل الإيجاب بل غايته أنه يعد العامل لأن يتفضل عليه ويقرب الرحمة إليه ولذا قال سددوا وقاربوا ثم قال القصد القصد تبلغوا التوسط فى العبادة .

وقال الطيبى أيضا : بين أولا أن العمل لا ينجى إيجابا لئلا يتكلوا عليه وحث آخرا على العمل لئلا يفرطوا فيه بناء على أن وجوده وعدمه سواء بل العمل أدنى إلى النجاة فكأنه معد وإن لم يوجب " المرقاة : جـ 5 صـ 57 .

باب الله مفتوح ورحمته وسعت كل شئ

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ .. قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى .. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى .. يا ابن آدم لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة : الترمذى وأحمد ..

وذلك لأن الدعاء مخ العبادة والرجاء متضمن لحسن الظن بالله . وقد قال أنا عند ظن عبدى بى . فعند ذلك تتوجه الرحمة له . وإذا توجهت لا يتعاظمها شئ لأنها وسعت كل شئ ... ففضل الله على عباده كبير ورحمته لا حد لها وهو يحب من عبده أن يتوب إليه .

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاه .. (مفازة) فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منهافأتى شجرة .. فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال : من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك .. أخطأ من شدة الفرح : مسلم

ويذكر عن بعض العباد : أنه كان يسأل ربه فى طوافه بالبيت أن يعصمه ثم غلبته عيناه فنام .. فسمع قائلا يقول له : أنت تسألنى العصمة وكل عبادى يسألوننى العصمة .. فإذا عصمتهم .. فعلى من أتفضل وأجود بمغفرتى وعفوى ؟ وعلى من أتوب ؟ وأين كرمى وعفوى ومغفرتى وفضلى : مدارج السالكين .

وفى الحديث القدسى : يا ابن آدم إذا آمنت بى ولم تشرك بى شيئا أقمت حملة عرشى ومن حوله يسبحون بحمدى ويستغفرون لك وأنت على فراشك .

وفى الحديث الإلهى .. عن أبى ذر .. يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فمن علم أنى ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالى : (**قُلْ يَا عِبَادِيَ**

الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِ .. .) الآية . يا عبدى لا تعجز .. فمنك الدعاء وعلى الإجابة .. ومنك الاستغفار وعلى المغفرة ومنك التوبة وعلى تبديل سيئاتك حسنات .

وكما قيل بلسان الحال فى قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه : يا آدم لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيِّـــك فقد استخرج بها منك داء لا يصلح أن تجاورنا به وألبست بها حلة العبودية ..

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

" يا ابن آدم إنما ابتليتك بالذنب لأنى أحب أن أظهر فضلى وجودى وكرمى على من عصانى "

" لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم " .

" يا ابن آدم كنت تدخل على دخول الملوك على الملوك . واليوم تدخل على دخول العبيد على الملوك " .

" يا آدم إذا عصمتك وعصمت بنيك من العذاب فعلى من أجود بحلمى؟ وعلى من أجود بعفوى ومغفرتى وتوبتى وأنا التواب الرحيم ؟ .

" يا آدم لا تجزع من قولى لك : أخرج منها : فلك خلقتها ولكن اهبط إلى دار المجاهدة وابذر بذر التقوى . وأمطر عليه سحائب الجفون .. فإذا اشتد الحب واستغلظ واستوى على سوقه فتعال فاحصده .. " .

" يا آدم ما أهبطتك من الجنة إلا لتتوسل إلى فى الصعود وما أخرجتك منها نفيا لك عنها ما أخرجتك منها إلا لتعود :

إن جرى بيننا وبينك عتب وتناءت منا ومنك الديار

فالوداد الذى عهدت مقيم والعثار الذى أحببت جبار

" يا آدم ذنب تذل به لنا أحب إلينا من طاعة تدل بها علينا : يا آدم أنين المذنبين أحب إلينا من تسبيح المدلين " : مدارج السالكين : جـ ـ صـ 300 .

إنها أمة مرحومة مغفور لها :

عن عبد الله بن عمرو : أن النبى ﷺ : تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم :

(رب إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ومَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيم) إبراهيم 36 .

وقال عيسى عليه السلام : (**إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**) المائدة 118 . فرفع يده وقال : اللهم أمتى أمتى وبكى .

فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد .. وربك أعلم .. فسله ما يبليك . فأتاه جبريل عليه السلام .. فسأله فأخبره رسول الله .. بما قال .. وهو أعلم .. وقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك .

فى هذا الحديث : البشارة العظيمة لهذه الأمة زادها الله شرفا بما وعدها الله تعالى بقوله : سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك : وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة وأرجاها ..

والحكمة فى إرسال جبريل ﷺ إظهار شرف النبى ﷺ .. وإنه بالمحل الأعلى فيسترضى ويكرم بما يرضيه .. وهذا الحديث موافقة لقوله تعالى : (**ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**) الضحى آية وأما قوله (**ولا نسوءك**) قال صاحب التحرير : هو تأكيد للمعنى أى لا نحزنك .. لأن الإرضاء قد يحصل فى حق البعض بالعفو عنهم ويدخل الباقى النار فقال تعالى : نرضيك . ولا ندخل عليك حزنا بل ننجى الجميع . النووى : صحيح مسلم : جـ . صـ 481 .

وقال رسول الله ﷺ : إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره . فيقول أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول نعم .. أى رب حتى قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه هالك .. قال سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين : عن أبى هريرة : متفق عليه .

وعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول : هذا فكاكك من النار : مسلم : وهو أرجى حديث .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ : إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا ....

وأما المؤمن فإن الله تعالى يدخر له حسناته فى الآخرة ويعقبه رزق فى الدنيا على طاعته : مسلم .

هلموا إلى اللّه

فباب الله مفتوح ورحمته وسعت كل شئ .. ولابد من الذنب لتحدث المغفرة التى هى صفة من صفات الحق عز وجل واسم من أسمائه العلى .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم . مسلم .

قال الطيبى : ليس الحديث تسلية للمنهمكين فى الذنوب كما يتوهمه أهل الغرة بالله فإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .. إنما بعثوا ليردعوا الناس عن غشيان الذنوب .. بل بيان لعفو الله .. وتجاوزه عن المذنبين ليرغبوا فى التوبة .. والمعنى المراد من الحديث هو أن الله كما أحب أن يعطى المحسنين أحب أن يتجاوز عن المسيئين .. وقد دل غير واحد من أسمائه الغفور الحليم التواب العفو .. ولم يكن ليجعل العباد شأنا واحدا كالملائكة مجبولين على التنزه من الذنوب بل يخلق فيهم من يكون بطبعه ميالا إلى الهوى متلبسا بما يقتضيه .. ثم يكلفه التوقى عنه ويحذره من مداناته ويعرفه التوبة بعد الابتلاء فإن وفى فأجره على الله . وإن أخطأ الطريق فالتوبة بين يديه فأراد النبى ﷺ به أنكم لو كنتم مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة لجاء الله بقوم يتأتى منهم الذنب فيتجلى عليهم بتلك الصفات على مقتضى الحكمة . فإن الغفار يستدعى مغفورا .. كما أن الرزاق يستدعى مرزوقا .. ثم قال : وتصدير الحديث بالقسم رد لمن ينكر صدور الذنب عن العباد ويعده نقصانا مطلقا وإن الله لم يرد من العباد صدوره كالمعتزلة ومن سلك مسلكهم : المرقاة : جـ [illegible] صـ 28 .

وفى بعض الآثار : أنا الحليم الذى لا أعجل . وأنا الذى استر على العاص وأقبل التائبين وأعفو عن الخاطئين . وأرحم النادمين .. وأنا أرحم الراحمين . من الذى أتى إلى بابنا فرددناه . من الذى لجأ إلى جنابنا فطردناه .. من الذى تاب إلينا وما قبلناه .. من الذى طلب منا وما أعطيناه .. من الذى استقال من ذنبه فما غفرناه .. أنا الذى أغفر الذنوب

واستر العيوب وأغيث المكروب وأرحم الباكى الندوب وأنا علام الغيوب : إن صوت الحق يهتف فى كل مكان ليهتدى الحائرون ويتجدد البالون ويتوب الخاطئون ويستغفر المذنبون .

قال رسول الله ﷺ : إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه . ينزل تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول : هل من سائل فيعطى ؟ هل من داع فيستجاب له ؟ هل من مستغفر فيغفر له ؟ حتى يتفجر الفجر : مسلم .

وعن أبى أمامة : قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله تعالى ملكا موكلا بمن يقول : يا أرحم الراحمين فمن قالها قال له الملك : إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل . الحاكم

وعن على .. قال : قال رسول الله ﷺ : إن ربك ليعجب من عبده إذا قال : رب اغفر لى ذنوبى . وهو يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيرى . أبو داود والترمذى .

فالعجب من صبره مع ضعفه على محاربة الأعداء حتى لم يشرك بعبادة ربه أحدا : فيض القدير : جـ 2 صـ 449 .

إن الله فتح أبواب رحمته أمام عبده . ودعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طرقه .. ثم فتحه له فما عرج عليه ولا ولجه .. ومع ذلك لم يؤيسه من رحمته بل قال له : متى جئتنى قبلتك . إن أتيتنى ليلا قبلتك وإن أتيتنى نهارا قبلتك .. وإن تقربت منى شبرا تقربت منك ذراعا .. وإن تقربت منى ذراعا تقربت منك باعا .. وإن مشيت إلى هرولت إليك .. ولو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا أتيتك بقرابها مغفرة .. ولو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك .. ومن أعظم منى جودا وكرما ؟ عبادى يبارزوننى بالعظائم وأنا أكلؤهم على فرشهم .. إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم .. أخلق ويعبد غيرى وأرزق ويشكر سواى .. خيرى إلى العباد نازل وشرهم إلى صاعد .. أتحبب إليهم بنعمى وأنا الغنى عنهم .. ويتبغضون إلى بالمعاص وهم أفقر شئ إلى .. من أقبل إلى تلقيته من بعيد .. ومن أعرض عنى ناديته من قريب ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد .. ومن أراد رضاى أردت ما يريد .. ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد .. أهل ذكرى أهل مجالستى . وأهل شكرى أهل زيادتى . وأهل طاعتى أهل كرامتى .. وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى . إن تابوا إلى فأنا حبيبهم .. فإنى أحب

التوابين وأحب المتطهرين .. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب .

مَن آثر على سواى آثرته على سواه .. الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . والسيئة عندى بواحدة فإن ندم عليها واستغفرنى غفرتها له .. أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الذلل . رحمتى سبقت غضبى . وحلمى سبق مؤاخذتى وعفوى سبق عقوبتى .. أنا أرحم بعبادى من الوالدة بولدها .

عن أبى هريرة قال : كان رجل من الأنصار عند رسول الله ﷺ : ومعه صبى له . قال فجعل يضمه إليه ويرحمه . فقال له رسول الله ﷺ : أترحمه ؟ قال : نعم يا رسول الله .. قال : فالله أرحم به منك .. وهو أرحم الراحمين . الشعب للبيهقى : جـ 7 صـ 122 .

عن عامر الرام : قال بينما نحن عند النبى ﷺ : إذ أقبل رجل عليه كساء وفى يده شئ قد التف عليه فقال يا رسول الله . مررت بغيضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ كائر فأخذتهن فوضعتهن فى كسائى فجاءت أمهن فاستدارت على رأسى فكشفت لها عنهن فوقعت عليهن فلففتهن فهن أولاء معى قال ضعهن فوضعتهن وأبت أمهن إلا لزومهن فقال رسول الله : أتعجبون لرحم أم الأفراخ فراخها فوالذى بعثنى بالحق لله أرحم بعباده . من أم الأفراخ بفراخها إرجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن وأمهن معهن فرجع بهن . أبو داود

روى الإمام أحمد فى مسنده : عن النبى ﷺ قال : يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى : ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق ابن آدم والملائكة تستأذنه أن تعا جله وتهلكه .. والرب تعالى يقول : دعوا عبدى . فأنا أعلم به إذ أنشأته من الأرض .. إن كان عبدكم فشأنكم به .. وإن كان عبدى فمنى وإلى .. عبدى وعزتى وجلالى : إن أتانى ليلا قبلته وإن أتانى نهارا قبلته وإن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا . وإن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا .. وإن مشى إلى هرولت إليه . وإن استغفرنى غفرت له . وإن استقالنى أقلته . وإن تاب إلى تبت عليه . من أعظم منى جودا وكرما ؟ وأنا الجواد الكريم .. عبيدى يبيتون يبارزوننى بالعظائم وأنا أكلؤهم فى مضاجعهم . وأحرسهم على فرشهم .. من أقبل إلى تلقيته من بعيد .. ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد .. ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد .. ومن أراد مرادى أردت ما يريد .. أهل ذكرى أهل

مجالستى . وأهل شكرى أهل زيادتى . وأهل طاعتى أهل كرامتى . وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى .. إن تابوا إلى فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب : مدارج السالكين جـ . صـ 132 :

عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ : إلى وحش بن حرب قاتل الحمزة ﷺ . يعرض عليه الإسلام ويدعوه إليه . فأرسل إليه . يا محمد .. كيف تدعونى وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . وأنا صنعت ذلك . فهل تجد لى رخصة ؟ فأنزل الله عز وجل : (**لاَّ مَن تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً**) الفرقان 70

فقال وحشى . يا محمد .. هذا شرط شديد .. إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا : فلعلى لا أقدر على هذا : فأنزل الله : " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ' قال وحشى : هذا أرى بعد مشيئته .. فلا أدرى هل يغفر لى أم لا ؟ فهل غير هذا ؟ فأنزل الله عز وجل : (**قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم** .

قال وحشى : هذا نعم .. فأسلم .. فقال الناس : يا رسول الله : إنا أصبنا ما أصاب وحش : قال : هى للمسلمين عامة . الطبرانى :

وعن على قال : قال رسول الله ﷺ : من أصاب فى الدنيا ذنبا فعوقب به فالله أعدل أن يثنى عقوبته على عبده . ومن أذنب ذنبا فى الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يعود فى شئ عفا عنه : الشعب : وروى موقوفا وهو الأرجح وكان يحيى بن معاذ يقول : كيف أدعوك وأنا عاص . وكيف لا أدعوك وأنت كريم : وقال سفيان بن عيينة : لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلمه من نفسه فإن الله أجاب شر المخلوقين إبليس إذ قال (**قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ** ص 79 . 80 .

صدق التوبة

وهى أن يعيش الإنسان بكليته مع الله ناسيا ما كان منه قبل التوبة من ذنب ومعصية وذلات وغفلات سابحا فى ملكوت ربه متعرضا لفيوضاته ورحمته مستغرقا فى نعمائه شاربا من صافى شرابه مبتعدا عما يعكر صفوه ...

قال الجنيد : دخلت على السرى يوما فرأيته متغيرا فقلت : مالك ؟ فقال : دخل على شاب فسألنى فقال : ما صدق التوبة ؟ فقلت له : أن لا تنسى ذنبك . فعارضنى وقال : بل التوبة أن تنسى ذنبك .. فقلت : إن الأمر عندى ما قال الشاب . فقال . لم ؟ قلت لأنى إذا كنت فى حال الصفاء فنقلنى إلى حال الجفاء .. فذكر الجفاء فى الصفاء جفاء . فسكت .. وأراد بالجفاء الذنب وبحال الصفاء التوبة .

وقريب من قول الجنيد قول رويم : فإنه لما سئل عن التوبة قال : هى التوبة من التوبة . والمعنى التوبة من رؤية كونه تائبا .. فإنه لا يرى ذلك إلا إذا كان مفرق القلب ناظرا لنفسه وتوبته فينحجب بذلك فكمال توبته دوام شغله بربه حتى ينسى توبته كما قال الجنيد حينما سئل عن التوبة فقال أن تنسى ذنبك : الرسالة .

وكل من السرى والجنيد صحيح فيما ذهبا إليه . فمن قال : التوبة أن تنسى ذنبك . يقول إنما الغرض من ذكر الذنب الحمل على الأعمال الجميلة .. ولكن إذا حصل للعبد حال شريف واستغرق فيه فاشتغاله بذنبه حينئذ يفسد عليه ما هو فيه .. فالسرى كلم الشاب بما هو الأولى فى حق التائبين . فإن ذكر ذنوبهم يهيج خوفهم ويحملهم على إصلاح أحوالهم وكان الشاب ممن ارتفعت درجته فى ذلك .. فكلم السرى بما يناسب حاله . المستلزم باستغراق صاحبه فيه نسيان ذنبه فنبهه بذلك على مقام شريف فى درجات التوب .

وتوسط الإمام الغزالى فقال : تصور الذنب والتفجع عليه كمال فى حق المبتدئ لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته واتباعه لسلوك الطريق .. ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف والوازع عن الرجوع إلى مثله فهو بالإضافة إلى الغافل كمال لكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق .

وقال ابن القيم : إذا أحس العبد من نفسه حال الصفاء غيما من الدعوى ورقيقة من العجب ونسيان المنة وخطفته نفسه عن حقيقة فقره ونقصه فذكر الذنب أنفع له . وإن كان فى حال مشاهدته منة الله عليه وكمال افتقاره إليه وفنائه به وعدم استغنائه عنه فى ذرة من ذراته

وقد خالط قلبه حال المحبة والفرح بالله والأنس به والشوق إلى لقائه وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه ، وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب أولى به وأنفع فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عنه ذلك . ونزل من علو إلى أسفل ومن حال إلى حال بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض وهذا من حسد الشيطان له . أراد أن يحطه عن مقامه وسير قلبه فى ميادين المعرفة والمحبة والشوق إلى وحشة الإساءة وحصر الجناية : مدارج السالكين : جـ . صـ 202 .

ومن صدق التوبة أن يكون المقصود منها خوف الله وخشيته فيعمل بطاعة الله على نور من الله يرجو ثوابه ويخاف عقابه غير ناظر لما تحدثه من عزة وراحة فإن للطاعة عزة لا يدركها إلا أرباب البصائر الذين أنار الله قلوبهم بنور الإيمان .

وفى الأثر : أوحى الله إلى نبى من الأنبياء .. قل لفلان الزاهد .. أما زهدك فى الدنيا فقد تعجلت به الراحة . وأما انقطاعك إلى فقد اكتسيت به العزة ولكن ما عملت فيما لى عليك ؟ قال : يا رب ومالك على بعد هذا ؟ قال : هل واليت فى وليا أو عاديت فى عدوا ؟

علامة صدق التوبة :

من علامة صدق التائب فى توبته : أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة وبفرح ركوب الذنب الحزن عليه والسرور بحسن الإنابة ..

وقال بعض العلماء : لا يكون العبد تائبا حتى يدخل مرارة مخالفة النفس مكان حلاوة موافقتها ..

وفى الأثر : إن الله عز وجل : قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين فى العبادة ولم ير قبول توبته . فقال له : وعزتى وجلالى لو شفع فيه أهل السماوات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه ومن بقيت حلاوة المعصية فى قلبه أو نظر إليها إذا ذكرها بفكره خيف عليه العود فيها إلا بشدة مجاهدة وكراهة لها ونفى خاطرها عن سره إذا ذكرها بالخوف والإشفاق منها : قوت القلوب : جـ . صـ 321 .

وقد يخطر الشئ بقلبه فيجد حلاوته . ثم سرعان ما يزول هذا الخاطر .. فهذا معفو عنه ..

سئل أبو محمد سهل : عن الرجل يتوب من الشئ ويتركه ثم يخطر ذلك الشئ بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة فقال : الحلاوة طبع البشرية ولابد من الطبع وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى وينكره بقلبه ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه ويدعو الله تعالى أن ينسيه ذكر ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته .

وقد اختلف العلماء فى عبد ترك ذنبا ونفسه تنازعه وهو يجاهدها .. وآخر لا تنازعه نفسه وليس له مجاهدة .. أيهما أفضل : قال بعض علماء الشام : الذى تنازعه نفسه إلى الذنب وهو يجاهدها أفضل لأن عليه منازعة وله فضل مجاهدة .. وإلى هذا مال ابن أبى الحوارى .. وأصحاب أبى سلمان الدارانى ..

وقال علماء البصرة : الذى سكنت نفسه عن المنازعة بشاهد من شواهد اليقين والطمأنينة فلم يبق فيه فضل لعود ولا طلب لمعتاد أفضل : المرجع السابق .

ومن علامة صدق التوبة : أن يسارع إلى رد الخطيئة ويبادر إلى دفعها ويحاول التطهر منها .. بل يصر على ذلك ولو كان فيه حتف نفسه ولو رجما بالحجارة : وهو ما حدث مع ماعز والغامدية والجهنية .

عن بريدة قال : جاء ماعز بن مالك إلى النبى ﷺ : فقال يا رسول الله طهرنى : فقال : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه . فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يا رسول الله طهرنى فقال النبى ﷺ مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله : مم أطهرك ؟ فقال : من الزنا . فقال رسول الله : أبه جنون ؟ فأخبر أنه ليس بمجنون فقال أشربت خمرا ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر . قال : فقال رسول الله أزنيت ؟ فقال نعم . فأمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين قائل يقول لقد أحاطت به خطيئته وقائل يقول ما توبة أفضل من توبة ماعز إنه جاء إلى رسول الله ﷺ فوضع يده ثم قال : اقتلنى بالحجارة . قال : فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس فقال : استغفروا لماعز بن مالك . فقالوا : غفر الله لماعز بن مالك : فقال رسول الله لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم : مسلم : جـ 4 صـ 275 .

وفى رواية : أنلتها : وفى رواية نكحتها : قال نعم : قال : كما يغيب المرود فى المكحلة : والرشا فى البئر .. قال تعم قال : فهل تدرى ما الزنا ؟ قال نعم . أتيت منها

حراما ما يأتى الرجل من امرأته حلالا قال فما تريد بهذا القول . قال : أريد أن تطهرنى فأمر به فرجم .. : اتحاف السادة المتقين . جـ 0 . صـ 707 .

وفى حديث الغامدية قال جاءت الغامدية فقالت يا رسول الله إنى قد زنيت فطهرنى فردها فلما كان من الغد قالت : يا رسول الله لم تردنى لعلك تريد أن تردنى كما رددت ماعزا فوالله إنى لحبلى . أما لا فاذهبى حتى تلدى فلما ولدت أتت بالصبى فى خرقة فقالت : هذا قد ولدته . قال : اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه . فلما أفطمته أتت بالصبى وفى يده كسرة خبز فقالت : يا نبى الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فأقبل خالد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله سبه إياها فقال : مهلا يا خالد فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت : مسلم .

المرأة الجهنيا : عن عمران بن حصين أن امرأة من جهينة أتت نبى الله ﷺ : وهى حبلى من الزنى .. فقالت : يا نبى الله أصبت حدا فأقمه على فدعا . نبى الله ﷺ وليها فقال : أحسن إليها فإذا وضعت فاتنى بها ففعل بها نبى الله ﷺ فشكت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال له عمر تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟ فقال لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم . وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ؟ . : مسلم .

تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر

قال تعالى : (**ن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** النساء 31 .

وقال تعالى : (**لَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ والْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ المَغْفِرَةِ**) النجم 32 . عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرن ما بينهن إن اجتنبت الكبائر : مسلم وغيره .

وقال أبو إسحاق الاسفرائينى وأبو بكر الباقلانى وإمام الحرمين وابن فورك من الأشاعرة وابن عباس . أنه لا كبيرة ولا صغيرة بل كل مخالفة فهى كبيرة .. فقال معاصى

الله عندنا كلها كبيرة . وإنما يقال لبعض صغيرة وكبيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها .. فالخلاف إذا لفظى .

وجاء فى السنة ما يدل على تقسيمها إلى صغيرة وكبيرة حيث سمتها . محقرات . قال رسول الله ﷺ : إياكم ومحقرات الذنوب .. ثم ضرب بذلك مثلا .. بقوم نزلوا بفلاة من الأرض فأعوزهم الحطب .. فجعل هذا يجئ بعود وهذا بعود .. حتى جمعوا حطبا كبيرا فأوقدوا نارا .. وانضجوا خبزهم .. فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه .

وفى تعريف : اللمـ : ما يدل على تقسيمها إلى صغيرة وكبيرة حيث قال الجمهور : إن اللمم استثناء من الكبائر وهو منقطع : أى .. لكن يقع منهم اللمم : أى الإلمام بالذنب مرة ثم لا يعود إليه وإن كان كبيرا .. فالمهم عدم عوده ..

قال السدى : قال أبو صالح : سئلت عن قول الله عز وجل : " إلا اللمم " ؟ فقلت هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده .. فذكرت ذلك لابن عباس فقال : لقد أعانك عليها ملك كريم .

والصحيح ما عليه الجمهور أن اللمم الصغائر كالنظرة والقبلة وما شابه ذلك .

قال طاووس : ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة : عن النبى ﷺ : إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا : أدرك ذلك لا محالة . فزنا العين النظر .. وزنا اللسان النطق .. والنفس تتمنى وتشتهى . والفرج يصدق ذلك أو يكذبه : البخارى .

وفى رواية لمسلم : والعينان زناهما : النظر .. والأذنان : زناهما الاستماع . واللسان زناه الكلام .. واليد زناه البطش . والرجل زناها الخطى : فهذه الأشياء صغائر معفو عنها إن تيب منها ولم يصر عليها .

قال الغزالى : فى قوله تعالى :

(**لَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ والْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَ ..**) النجم 32

فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه قال تعالى : (**والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ**

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألما

فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ) آل عمران 135 . فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لندمهم ولومهم أنفسهم عليه ، قال رسول الله ﷺ :

اختلاف العلماء فى عدد الكبائر

عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : الكبائر : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس الصحيحين .

وعن أبى بكرة أن النبى ﷺ . قال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثا : قالوا : بلى يا رسول الله : قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين . وجلس وكان متكئا . وقال ألا وقول الزور . فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت .

وعن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك : قال : قلت : ثم أى .. قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال : قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى بحليلة جارك .. فأنزل الله تعالى تصديق قول النبى ﷺ : (**والَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ**) الفرقان 68 : البخارى .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا يا رسول الله وما هن ؟ قال : الإشراك بالله . والسحر . وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق . وأكل الربا . وأكل مال اليتيم . والتولى يوم الزحف . وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

: الصحيحين .

وعن عبادة بن الصامت : أن رسول الله ﷺ قال : بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا : الصحيحين .

وفى الأوسط للطبرانى من حديث ابن عباس : الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر .

وللطبرانى من حديث واثلة : من أكبر الكبائر أن يقول الرجل علىّ ما لم أقل .

وله أيضا : إن من أكبر الكبائر أن ينتفى الرجل من والده .

وفى مسلم من رواية عبد الله بن عمر : ومن الكبائر شتم الرجل والديه : وفى رواية : من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه .. قالوا : كيف يسب الرجل والديه ؟ قال يسب أبا الرجل فيسب أباه .. ويسب أمه فيسب أمه .

وفى رواية لأبى داود .. من حديث سعيد بن زيد : من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق .

وقال ابن مسعود : أكبر الكبائر الشرك بالله والأمن من مكر الله . والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله .

وفى الصحيحين عن ابن عباس .. أنه مر ﷺ على قبرين .. فقال : إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير .. وإنه لكبير .. أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة .. وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله .

وروى البيهقى عن ابن عباس قال : الكبائر الإشراك بالله .. واليأس من روح الله والأمن من مكر الله .. وعقوق الوالدين .. وقتل النفس التى حرم الله .. وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم .. والفرار من الزحف .. وأكل الربا .. والسحر .. والزنا .. واليمين الغموس الفاجرة .. والغلول ومنع الزكاة .. وشهادة الزور .. وكتمان الشهادة .. وشرب الخمر .. وترك الصلاة متعمدا وإيتاء الزكاة مما فرضها الله .. ونقض العهد .. وقطيعة الرحم .

وقال سعيد بن جبير : سأل رجل ابن عباس عن الكبائر : أسبع هن ؟ قال : هن إلى السبعمائة أقرب إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار .

وقال : كل شئ عُصى الله به فهو كبيرة . من عمل شيئا منها فليستغفر الله . فإن الله لا يخلد فى النار من الأمة إلا من كان راجعا عن الإسلام أو جاحدا فريضة أو مكذبا بالقدر .

وقال سفيان الثورى : الكبائر ما كان فيه من المظالم بينك وبين العباد .. والصغائر ما كان بينك وبين الله .. لأن الله كريم يعفو .. واحتج بما رواه أنس أن رسول الله ﷺ قال : ينادى مناد من قبل بطنان العرش يوم القيامة .. يا أمة محمد .. إن الله عز وجل : قد عفا عنكم جميعا المؤمنين والمؤمنات فتوهبوا المظالم بينكم وادخلوا الجنة برحمتى : مدارج السالكين : جـ . صـ 322 .

والذنوب بين الله وعبده تزول بالاستغفار والعفو والشفاعة .. وأما بين العباد فلابد من استيفائها أو إرضاء الله الطرفين ..

قال ﷺ : الظلم عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان لا يغفر الله منه شيئا وهو الشرك بالله .. (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ) النساء 48 .

وديوان لا يترك الله منه شيئا .. وهو مظالم العباد بعضهم بعضا .. وديوان لا يعبأ الله به شيئا . وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين الله : معجم الطبرانى .

والكبيرة مع الحياء قد تلحقها الصغيرة .. والعكس كذلك .. وهذا أمر مرجعه إلى القلب . وقد يعفى للمحب ما لا يعفى لغيره .. قال ابن تيمية : انظر إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه . رمى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه بيده فكسرها وجر بلحية نبى مثله وهو هارون : ولطم عين ملك الموت ففقأها .. وعاتب به ليلة الإسراء فى محمد ﷺ : ورفعه عليه .. وربه تعالى يحتمل له ذلك كله .. ويحبه ويكرمه ويدلله لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة فى مقابلة أعدى عدو له . وصدع بأمره وعالج أمتى القبط وبنى إسرائيل أشد المعالجة . فكانت هذه الأمور كالشعرة فى البحر ..

وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التى لموسى . وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع : كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله وتذكر به إذا وقع فى الشدائد قال تعالى عن ذى النون : (فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * الصافات 143 ، 144 .

وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال : (آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ) قال له جبريل :

(آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) يونس 91 .

وفى المسند عنه ﷺ : أنه قال : إن ما تذكرون من جلال الله من التسبيح والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به ؟ : المرجع السابق .

مما قيل فى حد الكبيرة

قال بن عباس : كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة .. وقال بعضهم : كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر .

وقال سعيد بن جبير : كل ذنب نسبه الله إلى النار فهو من الكبائر : وقال بعضهم : كل ما أوجب الله عليه الحد فى الدنيا .

وقال إمام الحرمين : كل جريمة نؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ...

وقال القشيرى : إن دل على الاستهانة بالدين فكبيرة وإن صدر عن فلتة خاطر فصغيرة .

وقال الماوردى : الكبيرة ما أوجب الحد أو توجه عليه الوعد ..

وقال الغزالى : كل معصية يقوم المرء عليها من غير استشعار خوف ووجدان ندم تهاونا واستجراء عليها فهى كبيرة .. وما يحمل على فلتات النفس ولا ينفك عن ندم يمتزج بها وينقص التلذذ بها فليس بكبيرة .

وقال العز بن عبد السلام : الأولى ضبط الكبيرة بما يشار بتهاون مرتكبها بدينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها ..

قال : فإذا أردت الفرق بين الصغيرة والكبيرة فأعرض مفسدة الذنب على مفاسد الكبيرة المنصوص عليها .. فإن نقصت عن أقل الكبائر فهى صغيرة وإلا فهى كبيرة .

وقال ابن الصلاح :

كل ذنب عظم عظما يصح أن يطلق عليه اسم الكبيرة ويوصف بكونه عظيما على الإطلاق .. وعليها أمارات منها إيجاب الحد . ومنها ألا يعاد عليه بالعذاب والنار ونحوها فى الكتاب والسنة . ومنها وصف فاعلها بالفسق ومنها اللعن .

ولخص البارزى فى تفسير الحاوى فقال : والتحقيق أن الكبيرة كل ذنب قرن به وعيد أو لعن بنص كتاب أو سنة أو علم أن مفسدته كمفسدة ما قرن به وعيد أو حد أوأكثر مفسدته أو أشعر بتهاون مرتكبه فى دينه إشعار أصغر الكبائر المنصوص عليها من ذلك

لو قتل من يعتقد براءته فظهر أن مستحق لدمه أو وطئ امرأة ظانا أنه زنى بها فإذا هى زوجته أو أمته : إتحاف السادة المتقين . جـ 0 . صـ 516 .

وإنما أبهمت الكبيرة ولم يبين عددها .. كما أبهمت ليلة القدر وساعة يوم الجمعة والصلاة الوسطى ليكون الناس على خوف ورجاء فلا يقطعون بشئ ولا يسكنون إلى شئ : قوت القلوب .

واعتمده الواحدى فى البسيط فقال : الصحيح أن الكبيرة ليس لها حد تعرفها العباد به وإلا اقتحم الناس الصغائر واستباحوها .. ولكن الله أخفى ذلك عن العباد ليجتهدوا فى اجتناب المنهى عنه رجاء أن يجتنبوا الكبائر .. ونظائره إخفاء الصلاة الوسطى وليلة القدر وساعة الإجابة ونحو ذلك .

بعض مكفرات الذنوب

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة .. إلا من ثلاث : الشرك بالله .. وترك السنة .. ونكث الصفقة .. قيل : ما ترك السنة ؟ قال : الخروج عن الجماعة . ونكث الصفقة . أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله : الحاكم وأحمد والبيهقى . وقال الحاكم صحيح الإسناد .

ومن مكفرات الذنب إسباغ الوضوء ثم صلاة ركعتين .

عن أبى بكر الصديق قال : سمعت رسول الله ﷺ : يقول : ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ركعتين ثم يستغفر الله .. إلا غفر له .. ثم قرأ هذه الآية : **(والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)** .

آل عمراز 35 .

وعن أبى أمامة قال : بينما أنا قاعد عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال يا رسول الله .. إنى أصبت حدا فأقمه على .. قال : فأعرض عنه .. ثم عاد وقال مثل ذلك وأقيمت الصلاة فدخل رسول الله ﷺ : فصلى ثم خرج .. قال أبو أمامة : إنى لأمشى مع رسول الله ﷺ : والرجل يتبعه ويقول : يا رسول الله .. أصبت حدا فأقمه على .. فقال النبى ﷺ أليس خرجت من بيتك توضأت فأحسنت الوضوء ؟ قال بلى يا رسول الله . قال :

وشهدت معنا هذه الصلاة ؟ قال : بلى يا رسول الله ؟ قال : فإن الله قد غفر لك حدك .. أو قال ذنبك : مسلم والبيهقى وغيرهما .

ويقول بعد صلاته .. سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة : فعن أبى هريرة قال : من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر : الشيخان والترمذى وغيرهم .

وروى البيهقى من حديث ابن عمر : من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة كتب الله له ألف حسنه . ومن زاد .. زاده الله . وروى مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى : من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به . إلا أحدا قال مثل ذلك أو زاد عليه ، وفضائل الاستغفار والذكر كثيرة لا حصر لها .

الهموم والأحزان تكفر الذنوب

عن عائشة رضى الله عنها قالت : إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الهموم فتكون كفارة لذنبه .

وفى رواية لأحمد : ابتلاه الله بالحزن .. وفى الخبر : من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم بطلب المعيشة : والهموم والأحزان بالمباحات من حاجات الدنيا كفارات وهى على ما تقرر من قربات الآخرة للمؤمنين درجات .. وهى على حسب الدنيا والجمع منها والحرص عليها عقوبات : وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : " أتى جبريل ﷺ : يوسف ﷺ .. وهو فى السجن فسلم عليه وجاءه فى صورة رجل حسن الوجه طيب الريح نقى الثياب . فقال له يوسف : أيها الملك الحسن وجهه الكريم على ربه الطيب ريحه حدثنى كيف يعقوب .. قال : حزن عليك حزنا شديدا .. قال : فما بلغ من حزنه ؟ قال : حزن سبعين مثكلة قال : فما بلغ من أجره ؟ قال : أجر سبعين شهيدا .. قال يوسف : من آوى بعدى ؟ قال : إلى أخيك بنيامين .. قال فترانى ألقاه ؟ قال : نعم .. فبكى يوسف لما لقى أبوه .. ثم قال : ما أبالى ما لقيت إن الله أرانيه .. وعن الحسن : وفيه وجد سبعين ثكلة وأجر مائة شهيد . وما ساء ظنه بالله ساعة من ليل ولا نهار .

: إتحاف السادة المتقين ، جـ 0 ، صـ 704 .

وكتب عمر بن عبد العزيز .. إلى عدى بن أرطاه : أما بعد فإن الدنيا عدوة أولياء الله . وعدوة أعداء الله .. أما أولياء الله فغمتهم .. وأما أعداء الله فغمرتهم . أبو نعيم .
وكتب إلى بعض عماله : أما بعد .. فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد .. فإذا هممت بظلم فاذكر قدرة الله عليك . واعلم أنك لا تأتى إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم باقيا عليك . واعلم أن الله عز وجل : آخذ للمظلومين من الظالمين . والسلام .. : حلية الأولياء .

الأمراض والأسقام .. كفارات للذنوب

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله يبتلى عبده المؤمن بالسقم حتى يكفر عنه كل ذنب : الطبرانى والحاكم .

قال المناوى : يجب على العبد أن يشكر الله على البلاء لأنه فى الحقيقة نعمة لا نقمة لأن عقوبة الدنيا منقطعة وعقوبة الآخرة دائمة ومن عجلت عقوبته فى الدنيا لا يعاقب فى العقبى .

وقال القرطبى : والمكفر بالمرض الصغائر بشرط الصبر أما الكافر فقد يزاد له بالبلاء فى المال والولد وقد يخفف عنه به عقوبة غير الشرك .

: فيض القدير : جـ 2 صـ 280 : وفيه كلام طيب فارجع إليه .

عن عائشة أن النبى ﷺ قال : إن المؤمنين يشدد عليهم : لأنه لا يصيب المؤمن نكبة من شوكة فما فوقها ولا وجع إلا رفع الله له به درجة وحط عنه خطيئة : الحاكم والبيهقى .

وقال رسول الله ﷺ : إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوب وموعظة له فيما يستقبل .. وإن المنافق إذا مرض ثم أعفى كان كالبعير

عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم أرسلوه ولم يدر لما عقوله : أبو داود .. والبيهقى فى الشعب .

وعن أنس أن النبى ﷺ قال : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط . ابن ماجه والترمذى .

وقال ﷺ : يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض : الترمذى ..

وسئل النبى ﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء .. ثم الأمثل فالأمثل . يبتلى الرجل على قدر دينه . فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه . ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه . وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى على الأرض ما عليه خطيئة : ابن ماجه ..

وقد قيل : دقائق العقوبات على قدر جلائل الدرجات .

وسائل الحسنات المكفرات للمعاصى .. **ومتعلقاتها** ..

تتعلق وسائل الحسنات المكفرات للمعاصى .. بالقلب أو اللسان أو الجوارح ..

أما القلب : فبالتضرع إلى الله وطلب المغفرة والتذلل والخضوع . وأما اللسان فبإدامة الاستغفار .

وكان أصحابه ﷺ يعدون له فى المجلس الواحد قبل أن يقوم : رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة الترمذى ..

وفى رواية أبى داود وغيره : اللهم اغفر لى وارحمنى وتب على إنك أنت التواب الرحيم : وغير ذلك .

ومن ذلك ما كان يقوله آدم عليه السلام : عن محمد بن كعب القرظى قال : فى قوله تعالى : (**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ**) البقرة 37 . قال : قوله :

(**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ**) الأعراف 23 .

وفى رواية عن أنس : فى قوله عز وجل : (**فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**) قال : سبحانك اللهم وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى . فارحمنى إنك

أنت أرحم الراحمين ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوءا وظلمت نفسى .. فتب على إنك أنت التواب الرحيم .

وعن قتادة فى قوله تعالى (**فَتَلَقَّى آدَمُ ..**) قال : ذكر لنا أنه قال : يا رب أرأيت إن تبت وأصلحت . قال : فإنى إذا أراجعك إلى الجنة .. قال : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين : فاستغفر آدم ربه وتاب إليه فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

وأما عدو الله إبليس فوالله ما تنصل من ذنبه ولا سأل التوبة حتى وقع فيما وقع ولكنه سأل النظرة إلى يوم الدين .. فأعطى الله كل واحد منهما ما سأل .

: شعب الإيمان : جـ 5 صـ 434 .

والاستغفار ماحق للذنوب مزيل للمعاصى . قال الربيع بن خثيم لأصحابه : تدرون ما الداء . والدواء والشفاء ؟ قالوا : لا .. قال الداء الذنوب .. والدواء الاستغفار والشفاء أن تتوب ثم لا تعود : الحلية .

وأما الجوارح فبجميع أنواع الطاعات والصدقات . وهى أربعة من أنواع القلوب . وهى اعتقاد وجوب التوبة . والعزم عليها . وحب الإقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة ر له . وأربعة من أعمال الجوارح : وهى أن يصلى عقب الذنب ركعتين . ثم يستغفر الله بعدهما سبعين مرة .. ويقول : سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ..
ويمكن أن يضم إليها : لا حول ولا قوة إلا بالله : وبكل هذا وردت الأحاديث .
ثم يتصدق بصدقة : (**لَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ والنَّهَارِ سِراً وعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ**) البقرة 274 .

ثم يصوم يوما لوجه الله تعالى : هذه الأعمال وردت بها الآثار أنها مكفرة للزلل والعثار .. خاصة مع الندم والاستغفار والمسارعة إلى التوبة وعدم التسويف ..
قال ﷺ : النادم ينتظر من الله الرحمة . والمعجب ينتظر المقت .. واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله .. وإنما الأعمال بخواتيمها والليل والنهار مطيتان فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة واحذروا التسويف فإن الموت يأتى بغتة . ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل . فإن الجنة والنار

أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ثم قرأ رسول الله ﷺ : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . وإرجاء المعركة مع الهوى الغالب اعتراف بالعجز عن مقاومته .. وكل تسويف لا نتيجة له إلا إطالة عمر الشر وتقصير عمر الخير فى حياة الإنسان .

قال تعالى : (**وْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**) آل عمران 30 .

وقال تعالى : **نَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**) القيامة 13 .

وقال رسول الله ﷺ : نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ . البخارى

وقال ابن عطاء الله : إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس ، فإذا تحقق المؤمن بهذا كان من الناجين .

وقال صاحب دليل الفالحين : إدخال بعض عصاة المؤمنين النار .. ليس من العذاب لأن العذاب فيما قال بعضهم : الألم مع الإهانة والإذلال . والله تعالى إذا أدخل المؤمن النار فهو لتطهيره حتى يتأهل لمنازل الأخيار .

: دليل الفالحين : جـ 2 صـ 335 .

وقال بعض السلف : ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن تسقط عليه كسفا .. فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه . ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إلى فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى : (**نَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**) فاطر 41 .

مجالسة الصالحين

لما كان من شروط التوبة البعد عن مجالس اللهو والأماكن التى ارتكب فيها الإثم .. والأشخاص الذين كان يجالسهم وكانوا عونا له على ارتكاب الخطيئة والانغماس فى الرذيلة .. لما كان الأمر كذلك .. كان لزاما علبنا أن نذكر شيئا عن الجليس الصالح

والعزلة والخلوة .. لتتم له التوبة على أحسن حال وأعظم مقام .. فهى الأساس التى ينبنى عليها ما بعدها . فإذا صحت .. صحت جميع المقامات .. فنقول وبالله التوفيق .

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير .. فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبا ونافخ الكير إما أن يحرق ثوبك وإما أن تجد منه ريحا خبيثةً : متفق عليه .

إياك ومجالسة الأشرار فإن طبعك يسرق منهم وأنت لا تدرى وليس إعداء الجليس جليسه بمقاله وفعاله فقط بل بالنظر إليه . والنظر فى الصور يورث فى النفوس أخلاقا مناسبة لخلق المنظور إليه . فإن من دامت رؤيته للمسرور .. سر .. أو للمحزون .. حزن وليس ذلك فى الإنسان فقط بل فى الحيوان والنبات .. فالجمل الصعب يصير ذلولا بمقاربة الجمل الذلول . والذلول قد ينقلب صعبا بمقاربة الصعاب . والريحانة الغضة تذبل بمجاروة الذابلة ..

ولهذا يلتقط أهل الفلاحة الرمم عن الزرع لئلا تفسدها . ومن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة فما ظنك بالنفوس البشرية .

: فيض القدير : جـ 5 صـ 506 .

ولا تجلس إلى أهل الدنايا فإن خلائق السفهاء تعدى

فالمسلم الحق والتائب الصادق لا يخالط السفهاء ولا يتعامل مع أهل الشر والبطالين لأن مخالطتهم تطفئ نور القلب وتذهب بعين البصيرة وتعيقه عن الأخلاق الحميدة وتقطع به السبيل عن الوصول إلى رب العالمين .. وإذا كان لابد من مخالطتهم فكما قال : ابن قيم الجوزية : وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فالحذر أن يوافقهم عالى الهمة وليصبر على أذاهم . والصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلا .. وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله .. إن أمكنه ويشجع نفسه ويقوى قلبه . ولا يلتفت إلى الوارد الشيطانى القاطع له عن ذلك بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك ونحو ذلك فليحاربه وليستعن بالله ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه . فإن أعجزته المقادير عن ذلك فليسل قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين . وليكن فيهم

حاضرا غائبا قريبا بعيدا نائما يقظا .. ينظر إليهم ولا يبصرهم ويسمع كلامهم ولا يعيه . لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ورقى به إلى الملأ الأعلى .. يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الذكية وما أصعب هذا وأشقه على النفوس .

: مدارج السالكين : جـ . صـ 455 .

وشغلت عن فهم الحديث سوى	ما كان عنك فإنه شغلى
وأديم نحو محدثى وجهى ليرى	أن قد عقلت وعندكم عقلى

وكم جلبت خلطة الناس من نقمة ودفعت من نعمة ؟ وأنزلت من محنة وعطلت من منحة .. وأحلت من رزية وأوقعت فى بلية ؟ وهل آفة الناس إلا الناس .

وفى المثل : الطبع سراق .. فليحذر المسلم الغفلة فى مجالس البطالة مخافة أن يصاب بها وهو لا يدرى .

قال الإمام الغزالى : وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم فهو داء دفين قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين . فلا يجالس الإنسان فاسقا مدة مع كونه منكرا عليه فى باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة فى النفرة عن الفساد واستثقاله . إذا يصير الفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه له .. وإنما الوازع عنه شدة وقعه فى القلب فإذا صار مستصغرا بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الوازعة ويذعن الطبع للميل إليه أو لما دونه ومهما طالت مشاهدة الكبائر من غيره استحقر الصغائر من نفسه .. ولذلك يزدرى الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم فى أن يستصغر ما عنده وتؤثر مجالسة الفقراء فى استعظام ما أتيح له من النعم . وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة .. هذا تأثيره فى الطبع فمن يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين فى العبادة والتنزه عن الدنيا فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار وإلى عبادته بعين الاستحقار . وما دام يرى نفسه مقصرا فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة فى الاستكمال أو استتماما للاقتداء . ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم

المعاصى استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة فى الخير يصادفها فى قلبه . وذلك هو الهلاك .. ويكفى فى تغيير الطبع سماع الخير والشر فضلا عن مشاهدته .

: اتحاف السادة المتقين : جـ 7 صـ 356 .

فالعاقل الحق : هو الذى يبتعد عن الظلمة والظالمين وإن زين له الشيطان حسن النية وسلامة الطوية .

قال ابن شوذب : قسم أمير من أمراء البصرة على قراء أهل البصرة .. فبعث إلى مالك بن دينار .. فقبل .. وأبى محمد بن واسع .. فقال : يا مالك : قبلت جوائز السلطان ؟ قال : فقال : يا أبا بكر : سل جلسائى . فقالوا : يا أبا بكر اشترى بها رقابا فأعتقهم . فقال له : محمد : أنشدك الله أقلبك الساعة له . على ما كان عليه قبل أن يحزيك ؟ قال : اللهم لا .. قال : ترى : أى شئ دخل عليك .. فقال : مالك لجلسائه .. إنما مالك حمار .. إنما يعبد الله مثل . محمد بن واسع : حلية الأولياء .

وقال أبو عبد الله الانطاكى : اجتمع الفضيل والثورى : فتذاكرا فرق سفيان وبكى ثم قال : أرجو أن يكون هذا المجلس علينا رحمة وبركة فقال له الفضيل : لكنى يا أبا عبدالله أخاف أن لا يكون أضر علينا منه .. الست تخلصت إلى أحسن حديثك وتخلصت أنا إلى أحسن حديثى .. فتزينت لى وتزينت لك ؟ فبكى سفيان وقال : أحييتنى أحياك الله . السير جـ 8 صـ 439

حاجتنا إلى هذا الخلق الكريم فى هذا الزمان العجيب :

إذا كان هذا شأن الرجال من السابقين فما ظنك بالزمن الذى نعيش فيه فهو أجدر بالبعد عن المعوقين والنظر إلى المارقين من المثبطين والمنحرفين . فمفارقة أهل الزيغ والضلال ومجانبة البطالين واجبة على كل مسلم ومسلمة . لأن للبيئة أثرا فى الكسل والخمول وإيثار الشىء الدون .. ومن ذلك نفى الزانى غير المحصن عن وطنه . وجلده مائة جلده لكى تجتمع عليه عقوبتان . عقوبة بدنية بالجلد .. وأخرى قلبية بالنفى .. لكى يبعد عن مكان الجريمة ومسرح الأحداث : ويعطى فرصة جديدة لحياه كريمة يجدد فيه التوبة والرجوع إلى الله : وهذا هو ما أشار به العالم الفاقه على الرجل : الذى قتل المائة بأن يتوب ويخرج عن مسرح الجريمة قائلا له إنطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها

اناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها ارض سوء ولما جاءه الموت . واختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب كان قربه إلى القرية الصالحة سببا فى نجاته : ففى بعض الروايات : وكان إلى القرية الصالحة اقرب بشبر فجعل من أهلها : وفى رواية : فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى والى هذه أن تقربى وقال : قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه اقرب بشبر فغفر له ؛ وفى رواية : فنأى بصدره عنها .

فوجود الإنسان فى أرض المعاصى يفسد عليه عبادته . كما أن قرب الماء من الجيف يفسد الهواء .. فما بالك بأنفاس العصاة . إنها تفسد الأجواء والأكوان .. ولا أدل على ذلك من فعل النبى ﷺ : حين مر بديار ثمود .. وهو ذاهب إلى تبوك : سار الجيش حتى بلغ الحجر .. ديار ثمود .. وهناك أمر الرسول ﷺ : بالنزول فاستقى الناس من بئرها فلما راحوا قال لهم لا تشربوا من مائها شيئا : ولا تتوضئوا منه للصلاة : وما كان من عجين عجنتموه . فاعلفوا الإبل ولا تأكلوا منه شيئا .. ولما وصلوا إلى مكان الناقة أمرهم بالتزود منه لأنه طيب مبارك .

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ : قال لاصحابه لما وصلوا إلى الحجر .. ديار ثمود .. لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين .. فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا لا يصيبكم ما أصابهم : البخارى ومسلم .

قال النووى : وفيه الحث على المراقبة عند المرور بديار الظالمين ومواضع العذاب : ومثله الإسراع فى وادى محسر لان أصحاب الفيل هلكوا هناك .

: مختار الإمام مسلم .

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن وجود الأشقياء أو تنفسهم يفسد المكان ويشقيه كما أن وجود الصالحين فى مكان يصحه ويسعده ويجعله أهلا للرحمات والتجليات النورانية .

عن أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ : يسير فى طريق مكة .. فمر على جبل يقال له جمدان . فقال : سيروا هذا جمدان سبق المفردون .. قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيرا والذاكرات : مسلم . وجمدان هذا يشعر بذكر الرحمن ويستبشر بمن مر عليه من أرباب العرفان .

كما ورد أن الجبل .. ينادى الجبل باسمه .. أى فلان هل مر بك أحد ذكر الله .. فإن قال نعم استبشر : الطبرانى . عن ابن مسعود .

وفى عوارف المعارف : عن أنس أنه قال : ما من صباح ولارواح الا وبقاع الأرض ينادى بعضها بعضا هل مر بك اليوم أحد صلى عليك أو ذ كر الله عليك؟ فمن قائله نعم ومن قائل لا . فإذا قالت نعم . علمت أن لها بذلك فضلا عليها .

و على فضيلة الحديث السابق : قال الراغب : نبه بهذا الحديث على أن حق الإنسان أن يتحرى جهده مصاحبه الأخيار ومجالستهم فهى قد تجعل الشرير خير . كما أن صحبة الأشرار قد تجعل الخير شرير ..

وقال الحكماء : من صحب خيرا أصاب بركة . فمن جالس أولياء الله لا يشقى و إن كان كلبا . ككلب أصحاب الكهف .

وقال على : لا تصحب الفاجر فإنه يزين لك فعله ويود .. لو انك مثله .

رؤية الصالحين عبادة

قال رسول الله ﷺ : أولياء الله الذين إذا رؤ .. ذكر الله تعالى : الطبرانى وحسنه الألبانى . وفى رواية لأبى يعلى : قال رسول الله ﷺ : جالسوا من تذكركم الله رؤيته ويزيد فى عملكم منطقة ويذكركم بالآخرة عمله .

فرؤية الصالحين تشحذ الهمم للطاعة والعبادة .. فعلى المسلم أن يصحب من يعظه بلحظه قبل وعظه . بلفظه .. ومن يدلك على الله بحاله قبل مقاله .

قال بن الجوزى : فيا أطروشى الهوى صاحب من يسمع .. يا أعمى البصيرة إمش مع من يبصر تشبه بالصالحين تعد فى الجملة .. هذا الطاووس يحب البساتين ويوافق الأشجار . إذا ألقت ورقها ألقي ريشه .. فإذا اكتست اكتسى .. لو سرت فى حزب المتقين لعرفوا لك حق الصحبة .. يا من كان لهم رفيقا فأصبح لا يعرف لهم طريقا . اطلب اليوم أخبارهم واتبع فى السلوك آثارهم . فإن وقعت ببعضهم حملك إلى أرضهم . المدهش صـــ 451

وقال الفضيل : نظر المؤمن إلى المؤمن يجلو القلب .. ونظر الرجل إلى صاحب بدعة يورث العمى .. ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة : السير .

وقال عبد الله بن المبارك : إذا نظرت إلى الفضيل جدد لى الحزن ومقت نفسى ثم بكى .

السير : جـ 8 صـــ 438 .

وكان أحمد بن حرب يقول : ليس شئ أنفع لقلب العبد من مخالطة الصالحين والنظر إلى أفعالهم وليس شئ أضر على القلب من مخالطة الفاسقين والنظر إلى أفعالهم .

وقال ابن عباس : النظر إلى وجه الرجل يدعو إلى السنة عبادة .

وقال جعفر بن سليمان : كنت إذا وجدت من قلبى قسوة غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع : كان كأنه ثكلى : السير .

وكان الناس إذا رأوا وجه وكيع بن الجراح : قالوا : هذا ملك .. وإذا رأوا وجه محمد بن سيرين سبحوا الله لمخايل النور التى على وجهه .

وقال وهب بن منبه : مكتوب فى حكمة آل داود .. ﷺ : حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه . وساعة يحاسب فيها نفسه .. وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدق على نفسه .. وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل فإن فى هذه الساعة عونا على تلك الساعات وإجماما للقلوب .

وسئل ابن المبارك : ما خير ما أعطى الرجل ؟ قال : غريزة عقل .. قيل فإن لم يكن ؟ قال أدب حسن .. قيل : فإن لم يكن ؟ قال : صمت طويل . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل : ذم الهوى .. لابن الجوزى .

قال الامام الغزالى : ويروى عن بعض الصالحين أنه قال بينما أنا أسير فى بعض بلاد الشام .. إذا أنا بعابد خارج من بعض الجبال فلما نظر إلى تنحى إلى أصل شجرة

وتستر بها فقلت : سبحان الله تبخل على بالنظر إليك ؟ فقال يا هذا : إنى أقمت فى هذا الجبل دهرا طويلا أعالج قلبى فى الصبر عن الدنيا وأهلها فطال فى ذلك تعبى وفنى فيه عمرى .. فسألت الله تعالى : أن لا يجعل حظى من أيامى فى مجاهدة قلبى فسكنه الله عن الاضطراب وألفه الوحدة والانفراد .. فلما نظرت إليك خفت أن أقع فى الأمر الأول .. فإليك عنى فإنى أعوذ من شرك برب العارفين وحبيب القانتين .. ثم صاح .. وأغماه من طول المكث فى الدنيا ثم حول وجهه عنى . ثم نفض يديه وقال : إليك عنى يا دنيا لغيرى فتزينى وأهلك فغرى .. ثم قال سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان وجمع هممهم فى ذكره فلا شئ ألذ عندهم من مناجاته ثم مضى وهو يقول : قدوس قدوس .

إتحاف السادة المتقين : جـ 7 صـ 343 .

وعن ابن المبارك قال : صعدت جبل لبنان فإذا برجل عليه جبة صوف مفتقة الأكمام .. مكتوب عليها : لا تباع ولا تشترى .. قد اتزر بمئزر الخشوع واتشح برداء القنوع .. وتعمم بعمامة التوكل فلما رآنى اختفى وراء شجرة فناشدته بالله . فظهر فقلت : إنكم معاشر العباد تصبرون على الوحدة وتقاسون فى هذه القفار الوحشة فضحك ووضع كمه على رأسه .. وأنشأ يقول :

يا حبيب القلوب من لى سواك ... ارحم اليوم مذنبا قد أتاك

أنت سؤلى وبغيتى وسرورى ... قد أبى القلب أن يحب سواك

يا مناى وسيدى واعتمادى ... طال شوقى متى يكون لقاك

ليس سؤلى من الجنان نعيم ... غير أنى أريدها لأراكا

قال : ثم غاب عنى .. فتعاهدته ذلك الموضع سنة لأقع عليه . فلم أره . فلقينى غلام أبى سليمان الدارانى : فسألته عنه وأعطيته صفته . فبكى وقال : وا شوقاه إلى نظرة أخرى منه فقلت من هو ؟ قال ذاك : عباس المجنون : يأكل فى كل شهر أكلتين . من ثمار الشجر أو نبات الأرض . يتعبد منذ ستين سنة .

حلية الأولياء : جـ 0. صـ 45. .

وكتب سفيان إلى عباد بن عباد : أما بعد فإنك فى زمان كان أصحاب النبى ﷺ يتعوذون بأن يدركوه .. ولهم من العلم ما ليس لنا .. ولهم من القدم ما ليس لنا .. فكيف بنا حين أدركناه على قلة علم وقلة صبر وقلة أعوان على الخير .. وفساد من الناس وكدر من الدنيا ؟ فعليك بالأمر الأول والتمسك به .. وعليك بالخمول .. فإن هذا زمن خمول .. وعليك بالعزلة وقلة مخالطة الناس . فقد كان الناس إذا التقوا ينتفع بعضهم ببعض .. فأما اليوم فقد ذهب ذلك .. والنجاة فى تركهم فيما نرى . وإياك والأمراء . أن تدنوا منهم وتخالطهم فى شئ من الأشياء . وإياك أن تخدع .. فيقال لك : تشفع وتدرأ عن مظلوم أو ترد مظلمة .. فإن ذلك خديعة إبليس .. وإنما اتخذها فجار القراء سلما .. وكان يقال : اتقوا فتنة العابد الجاهل . والعالم الفاجر .. فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون . حلية الأولياء .

فالذى يتعامل مع الله لا يحتاج إلى النظر إلى الناس ولا إلى مجالستهم لأن همته متعلقة بمرضاة الله . وتنفيذ أمره والسعى الحثيث فيما يحبه ويرضاه . فهو جندى من جنود الله لا تراه إلا فى مواقف الخطر وفى أعماق الثغور .

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رجل : أى الناس أفضل يا رسول الله ؟ قال : مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله .. قال : ثم من ؟ قال : رجل معتزل فى شعب من الشعاب يعبد ربه : وفى رواية : يتقى الله ويدع الناس من شره . البخارى ومسلم .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : من خير معايش الناس لهم : رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله .. يطير على متنه كلما سمع هيعة .. أو فزعة طار على متنه يبتغى الموت أو القتل مظانه .. ورجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف .. أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة .. ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين .. ليس من الناس إلا فى خير مسلم .

البعد عن الناس طريق النجاة

عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله : ما النجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك . وابك على خطيئتك الترمذى والبيهقى .

عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : إن بين أيديكم فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسى كافرا . ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا .. القاعد فيها خير من القائم .. والقائم فيها خير من الماشى .. والماشى فيها خير من الساعى . قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : كونوا أحلاس بيوتكم : أبو داود .

وعن حذيفة قال : سمعت رسول الله ﷺ : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء .. وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء . حتى تصير على قلبين . أبيض مثل الصفا . فلا تضره فتنة مادامت السماوات والأرض . والآخر أسود . مربادا : رمادى : كالكوز مجخياً لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه مسلم .

وعنه قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ : عن الخير .. وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى .. قال : قلت يا رسول الله : إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير .. فهل بعد هذا الخير من شر .. قال : نعم .. قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير .. قال : نعم .. وفيه دخن . قلت : وما دخنه . قال : قوم يستنون بغير سنتى ويهدون بغير هديى . تعرف منهم وتنكر . قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر .. قال : نعم . دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها .. قلت يا رسول الله : صفهم لنا . قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . قلت : فما تؤمرنى إن أدركنى ذلك .. قال تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت : فإن لم يكن لهم إمام ولا جماعة . قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك .

متفق عليه : مرقاة المفاتيح : جـ 0. صـ 13. .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصير الرجل مؤمنا ويمسى كافرا . ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا .. يبيع دينه بعرض من الدنيا مسلم .

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال رواسى الجبال : ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن : البخارى .

وروى عن أبى هريره قال : قال رسول الله ﷺ يأتى على الناس زمان لا يسل م لدى دين دينه إلا من هرب بدينه من شاهق إلى شاهق ومن جحر الى جحر . فإن كان ذلك كذلك لم تنل المعيشة إلا بسخط الله . فإذا كان ذلك كذلك .. كان هلاك الرجل على يدى زوجته وولده فإن لم يكن له زوجه ولا ولد كان هلاكه على يدى أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدى قرابته أو الجيران . قالو : كيف ذلك يا رسول الله قال يعبرونه بضيق المعيشة فعند ذلك يورد نفسه الموارد التى يهلك فيها نفسه : البيهقى فى كتاب الزهد .. وهذا الباب قد كثرت فيه الأحاديث وليس القصد سردها وإنما المقصود البعد عن مواطن الفتن والنجاة من رؤية الظلمة والظالمين .

الخلطة والعزلة

وأما الخلطة والعزلة فقد كثر فيها الكلام فمن مؤيد لهذه ومن مفضل لتلك .. وهى تختلف باختلاف الأزمنة و الأمكنه وأهلهما مع الشروط المعتبرة فى آداب الصحبة .

الخلطة :

قال اكثر التابعين باستحباب المخالطة وإستكثار الاخوان للاستعانة بهم فى أمور الدين والتعاون بهم على البر والتقوى .

قال على ﷺ :

عليكم بالإخوان فانهم عدة لكم فى الدنيا والآخرة ألا تسمعون إلى قول أهل النار .

(**فمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ** الشعراء 100 ، 101

قوله : (**فمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ** : كما للمؤمنين من الملائكة و الأنبياء وغيرهم ممن أهل للشفاعة (**وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**) كما لهم أصدقاء إذا لا يتصادق فى الآخرة إلا المؤمنون . أما الكفار فبينهم التعادى ..

وجمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء .. وأما الصديق وهو الصادق فى ودادك الذى يهمه ما أهمك ويسره ما آسرك فهو قليل : وسئل حكيم عن الصديق فقال : اسم لامعنى له : اى لاوجود له .. والبركة لا تنقطع .

قال القشيرى : فى الخبر : يجيء يوم القيامه عبد فيحاسب فتستوى حسناته وسيئاته ويحتاج الى حسنه واحده يرضى عنه خصومه . فيقول الله سبحانه وتعالى له : عبدى بقيت

لك حسنه إن كانت ادخلتك الجنه أنظر وتطلب من الناس لعل احد يهبها لك .. فيأتى الصفين فيطلب من أبيه ثم من أمه ثم من اصحابه فلا يجبه أحد إلا بقوله أنا اليوم فقير إلى حسنه واحدة فيرجع الى مكانه فيسأله الحق سبحانه : ما جئت به ؟ فيقول : يا رب لم يعطنى أحد حسنه . فيقول الله تعالي عبدى .. الم يكن لك صديق ؟ فيتذكر العبد ويقول : فلان كان صديقا لي فيك . فيأتيه ويدله الحق عليه فيكلمه فيقول : بل لى عبادات كثيرة . فإن قبلها الله مني فقد وهبتها لك . فيسر ويجئ إلي موضعه فيخبر بذلك ربه تعالي : فيقول قد قبلتها منه ولم أنقص من حقه شيئا وقد غفرت لك وله .. فهذا معناه .

ونقل القرطبي عن الحسن : قال : ما اجتمع ملأ علي ذكر الله فيه عبد من أهل الجنة إلا شفعة الله فيهم وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفعون : بحر المديد جـ 1 : صـ 47 .

وقال تعالي : (**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي**) الفرقان 27 – 29

تجنب صحبة الفجار

تـ . ، قرين السوء وأصرم حباله	فإن لم تجد عنه محيصا فداره
وأحبب حبيب الصدق واحذر مراءه	تنل منه صغو الود مالم تماره
وفي الشيب ما ينهي الحليم عن الصبا .	إذا أشتعلت نيرانه في عذاره

وقال في الحكم : لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك علي الله مقاله .

فإنهاض الحال هو ذكر الله عند رؤيته والأنحياش إليه بالقلب عند صحبته ودلالة المقال علي الله هو زجه في الحضرة بلا تعب بأن يرفع بينه وبين ربه الحجب ويقول له : هاأنت وربك .. وهذه حال الصوفية العارفين بالله . وقد وصفهم بعض العلماء : فقال : الصوفي من لا يعرف في الدارين أحداً غير الله .. ولا يشهد مع الله سوى الله .. قد سخر لهم كل شئ . ولم يسخر هو لشئ يسلط علي كل شئ . ولم يسلط عليه شئ . يأخذ

النصيب من كل شئ . ولم يأخذ النصيب منه شئ يصفو به كدر كل شئ ولا يكدر صفوه شئ قد أشغله واحد عن كل شئ .. وكفاه واحد من كل شئ .

فبصحبة هؤلاء يصل المريد إلي مالا يسعه عقل عاقل ولا يحيط به علم ناقل . قال صاحب العينية :

ـر ولذ بالأولياء فإنهم	لهم من كتاب الحق تلك الوقائع
هم الذخر للملهوف والكنز للرجا	ومنهم ينال الصب ما هو طامع
بهم يهتدي للعين من ضل في العمى	بهم يجذب العشاق والربع شاسع
هم القصد والمطلوب والسؤل والمنى	وأسمهم للصب في الحب شافع
هم الناس فالزم إن عرفت جنابهم	ففيهم لضر العالمين منافع

وقال حمدون القصار : اصحب الصوفية فإن للقبح عندهم وجوها من المعاذير وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك به . إشارة إلي أن العجب بالعمل منفي في صحبتهم ..

وقال علي ﷺ : شر الأصدقاء من أحوجك إلي المداراة وألجأك إلي الاعتذار، وقال شر الأصدقاء من تكلف له : وقال يوسف بن الحسن الداراني :

ـب من الأخوان كل مواتي	فيا غضيض الطرف عن عثراتي
توافقني في كل أمر أحبه	ويحفظني حيا وبعد مماتي
فمن لي بهذا ليتني قد وجدته	فقاسمته ما لى من الحسنات

وقال تعالي : (**لأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**) الزخرفـ 67

وقال ابن مشيش ــ في وصيته لأبى الحسن : لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فإنه لئيم . ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قلما يدوم .. واصحب من إذا ذكر .. ذكر الله

فالله يغنى به إذا شهد وينوب عنه إذا فقد . ذكره نور القلوب ومشاهدته مفاتيح الغيوب : ومعنى كلام الشيخ : لا تصحب من يبخل عنك بما عنده من العلوم ولا من يتكلف لك فإنه لا يدوم وهذه صحبة الشيخوخة : وقيل : عن على :

إن أخاك الحق من كان معك	ومن يضر نفسه لينفعك
إذا رأى زمانا صدعك	شتت فيك شمله ليجمعك

: البحر المديد : جـ 5 صـ 268 .

فعلى المسلم أن يجد فى طلب الصالحين والبحث عنهم وأن يجتهد فى التنقيب عن الأخ الصالح الذى يدل على الله فيتمسك به ويعض عليه بالنواجز وإن كان قد عز وجوده فى زماننا هذا .

قال محمد بن واسع : وأين مثل الأخ الصالح ؟ أهلك يقسمون ميراثك وهو قد تفرد بجدثك يدعو لك . وأنت بين أطباق الترى .

وقال الحسن البصرى : إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا .. لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة .

وكتب الأحنف بن قيس .. إلى صديق له :

أما بعد فإذا قدم عليك أخ لك موافق فليكن منك مكان سمعك وبصرك .. فانظر إلى هذا وأشباهه فاجعلهم كنوزك وذخائرك وأصحابك فى سفرك وحضرك فإنك إن تقربهم .. تقربوا منك .. وإن تباعدهم يستغنوا بالله عز وجل . والسلام .

وقال عمر بن الخطاب : عليك بإخوان الصدق فعش فى أكنافهم . فإنهم زين فى الرخاء وعدة فى البلاء وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يغلبك منه واعتزل عدوك واحذر صديقك وقال عمر .. أيضا : لا تعترض فيما لا يعنيك واعتزل عدوك

واحتفظ من خليلك إلا الأمين .. فإن الأمين من القوم لا يعادل . ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره ولا تفشى إليه سرك واستشر فى أمرك الذين يخشون الله عز وجل .

ولما حضر علقمة العطاردى .. دعا ابنه فقال له : يا بنى إن عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك وإن صحبته زانك . وإن قعدت بك مؤنة مانك : أصحب من إذا مددت يدك بخير مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى منك سيئة سدها ، اصحب من إذا سألته أعطاك وإذا سكت إبتداك وإن نزلت بك نازلة واساك ، اصحب من إذا قلت قولا صدق قولك وإن حاولتما أمرا أمرك .. وإن تنازعتما آثرك : الحلية .

وفى رواية : لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت قرب منك . وإن استغنيت لم يطمع فيك وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك وإن ابتذلت له صانك وإن احتجت إليه عانك وإن اجتمعت معه زانك .. فإن لم تجد هذا فلا تصحب أحدا .

وقال بعض الأدباء : لا تصحب من الناس إلا من يكتم سرك ويستر عيبك ويكون معك فى النوائب ويؤثرك بالرغائب وينشر حسنتك ويطوى سيئتك فإن لم تجد فلا تصحب إلا نفسك .

وقال سفيان الثورى : إذا أردت أن تؤاخى رجلا فأغضبه ثم دس عليه من يسأله عنك وعن أسرارك فإن قال : خيرا وكتم سرك فاصحبه .

وقيل لأبى يزيد : من تصحب من الناس ؟ قال : من يعلم منك ما يعلم الله . ثم يستر عليك كما يستر الله .

وقال ذو النون : لا خير فى صحبة من لا يحب أن يراك إلا معصوما ومن أفشى السر عند الغضب فهو اللئيم لأن إخفاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها ..

وقال بعض الحكماء : لا تصحب من يتغير عليك عند أربع : عند غضبه ورضاه وعند طمعه وهواه .. بل ينبغى أن يكون صدق الأخوة ثابتا على اختلاف هذه الأحوال .. ولذلك قيل :

وترى الكريم إذا تصرم وصله ... يخفى القبيح ويظهر الإحسان

وترى اللئيم إذا تقضى وصله ... يخفى الجميل ويظهر البهتانا

وقال العباس لابنه عبد الله .. إنى أرى هذا الرجل : يعنى عمر : يقدمك على الأشياخ فاحفظ عنى خمسا : لا تفشين له سرا .. ولا تغتابن عنده أحدا .. ولا يجربن عليك كذبا .. ولا تعصين له أمرا .. ولا يطلعن منك على خيانة : فقال الشعبى : كل كلمة من هذه الخمس خير من ألفـ .

وقال فى القوت : وإياك أن تصحب من الناس خمسة : المبتدع والفاسق والجاهل والحريص على الدنيا والمغتاب : فإن هؤلاء مفسدة للقلوب مذهبة للأحوال مضرة فى الحال والمال .

وقال أبو جعفر .. محمد بن على : أوصانى أبى فقال : لا تصحبن خمسا ولا تحادثهم ولا ترافقهم فى الطريق قال : قلت : جعلت فداك يا أبت من هؤلاء الخمسة ؟ قال لا تصحبن فاسقا فإنه يبيعك بأكلة فما دونها . قال : قلت فما دونها ؟ قال يطمع فيها ثم لا ينالها .. قال : قلت : يا أبت ومن الثانى ؟ قال : لا تصحبن البخيل فإنه يقطع بك فى ماله أحوج ما كنت إليه .. قال : قلت : يا أبت ومن الثالث ؟ قال : لا تصحبن كذابا .. فإنه بمنزلة السراب يبعد منك القريب ويقرب منك البعيد . قلت يا أبت ومن الرابع ؟ قال لا تصحبن أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك . قال يا أبت ومن الخامس ؟ قال : لا تصحبن قاطع رحم فإنى وجدته ملعونا فى كتاب الله فى ثلاثة مواضع .

وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة فى أمره ونهيه . ولا مع الخلق إلا بالنصيحة لهم وعدم غشهم ولا مع النفس إلا بالمخالفة لها لأنها مائلة بطبعها إلى كل لذيذ ونافرة بطبعها من كل كريه .. ولا مع الشيطان إلا بالعداوة له :

(**نَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواًّ**) فاطر ٦ . إتحاف السادة المتقين جـ 7 : صـ 17 .

وكان بشر يقول : إذا قصر العبد فى طاعة سلب الله من يؤنسه وذلك أن الإخوان مسلاة للهموم وعون على الدين .. ولذلك قال ابن المبارك : ألذ الأشياء مجالسة الإخوان

والانقلاب إلى كفاية والمودة الدائمة هى التى تكون فى الله وما يكون فى غرض يزول بزوال ذلك الغرض :

من أجل ذلك ولغيره قال بعض السلف : أكثر من الإخوان فإن لكل مؤمن شفاعة فلعلك تدخل فى شفاعة أخيك ؛ وفى تفسير قوله تعالى : (**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ويَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ**) النساء 73 .

أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن مسعود رفعه قال : أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله : الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف فى الدنيا .

وعن يزيد بن جابر قال : يلغنا أن النبى ﷺ قال : يكون فى أمتى رجل يقال له صلة بن أشيم يدخل الجنة بشفاعته كذا وكذا : الحلية .

والقرين الصالح لابد منه للمريد ليعاونه على البر والتقوى ؛ لذا قال صاحب الحوت :

اعلم أن المريد لابد له من خصال سبعة .. الصدق فى الإرادة وعلامته إعداد العدة .. ولابد له من السبب إلى الطاعة وعلامة ذلك هجر قرناء السوء .. ولابد له من المعرفة بحال نفسه وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس .. ولابد له من مجالسة عالم بالله وعلامة ذلك إيثاره على ماسواه ولابد له من توبة نصوح .. لذلك يجد حلاوة الطاعة ويثبت على المداومة .. وعلامة التوبة قطع أسباب الهوى والزهد فيما كانت النفس راغبة ولابد له من طعمة حلال لا يذمها العلم .. وعلامة ذلك الحلال المطالبة عنه وحلول العلم فيه يكون لسبب مباح وافق فيه حكم الشرع .. ولابد له من قرين صالح يؤازره على ذلك . وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقى ونهيه إياه عن الإثم والعدوان .

فإذا لم يوجد الأخ الصالح فعليه أن يهرب من الخلق ويبتعد عن شرهم .

فقال أبو الحسن الشاذلى : أهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم . فإن خيرهم يصيبك فى قلبك وشرهم يصيبك فى بدنك .

ولأن تصاب فى بدنك خير من أن تصاب فى قلبك . ولعدو تصل به إلى الله خير لك من حبيب يقطعك عن الله . وعن إقبالهم عليك ليلا وإعراضهم عنك نهارا . ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا ؟ .

وقال نمت ليلة فى سياحتى على رابية من الأرض فجاءت السباع فطافت بى إلى الصباح فما وجدت أنساً كأنس وجدته فى تلك الليلة . فلما أصبحت خطر لى أنه قد حصل لى من مقام الأنس بالله شئ فهبطت واديا وكانت هناك طيور حجل .. لم أرها فلما أحست طارت بمرة فخفق قلبى رعبا فإذا قائل يقول لى : أيامًا كنت البارحة يأنس بالسباع ما لك توجل من خفقان الحجل .. ولكنك البارحة كنت بنا والآن أنت بنفسك : لطائف المنن .

قال سعيد بن مسيب : لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لكى لا تحبط أعمالكم الصالحة .

وقال : محمد بن واسع : أربع يمتن القلب : الذنب على الذنب .. وكثرة مثافنة النساء وحديثهن .. وملاحاة الأحمق تقول له ويقول لك : ومجالسة الموتى . قيل وما مجالسة الموتى ؟ قال : مجالسة كل غنى مترف وسلطان جائر : الحلية .

فكثير من العباد يحب أن لا يكشف أمره ولا يعرف سره ليكون بعيدا عن الناس خفيا عن لحظهم لا أنس له إلا بالله . من هؤلاء ما رواه : ابن وهب : قال : قال ابن المنكدر : إنى لليلة حذاء هذا المنبر جوف الليل أدعو .. إذا إنسان عند اسطوانة مقنع رأسه فأسمعه يقول : أى رب إن القحط قد اشتد على عبادك وإنى مقسم عليك يا رب إلا سقيتهم . قال : فما كان إلا ساعة إذا بسحابة قد أقبلت ثم أرسلها الله سبحانه وتعالى ...

وكان عزيزا على ابن المنكدر أن يخفى عليه أحد من أهل الخير .. قال : هذا بالمدينة ولا أعرفه فلما سلم الإمام تقنع وانصرف فأتبعه ولم يجلس للقاص . حتى أتى دار أنس فدخل موضعا وأخرج مفتاحا ففتح ثم دخل .. قال : ورجعت فلما سبحت أتيته إذا أنا أسمع نجرا فى بيته فسلمت ثم قلت : أدخل ؟ قال : ادخل فإذا هو ينجر أقداحاً يعملها .. فقلت : كيف أصبحت أصلحك الله ؟ قال : فاستشهدها وأعظمها منى فلما رأيت ذلك قلت : إنى سمعت إقسامك البارحة على الله عز وجل : يا أخى هل لك فى نفقة تغنيك عن هذا وتفرغك لما تريد من الآخرة ؟ فقال لا ولكن غير ذلك . لا تذكرنى لأحد . ولا تذكر هذا عند أحد .. حتى أموت . ولا تأتينى يا ابن المنكدر .. فإنك إن أتيتنى شهرتنى للناس . فقلت إنى أحب أن ألقاك . قال : القنى فى المسجد . وكان فارسيا . قال فما ذكر ذلك ابن المنكدر لأحد حتى مات الرجل .

قال ابن وهب : بلغنى أنه انتقل من ذلك الدار فلم يره ولم يدر أين ذهب .. فقال : أهل تلك الدار الله بيننا وبين ابن المنكدر .. أخرج عنا الرجل الصالح : حلية الأولياء . ورب نظرة من قلب منور بالإيمان يكون فيها الخير والرضوان .. للمنظور إليه ممن أراد الله لهم الفلاح .

قال ابن القيم : إن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله وتقويه وتثبته حتى يصير كالمرآة المجلوة فى جلائلها وصفائها فيمتلئ نوراً .. فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب . فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعا فيجتمع عليه الشياطين . فيقول بعضهم لبعض : ما شأنه ؟ فيقال : أصابه إنسى وبه نظرة من الإنس .

ظرة من قلب حر منور   يكاد لها الشيطان بالنور يحرق

أفيستوى هذا القلب وقلب مظلمة أرجاؤه مختلفة أهواؤه . قد اتخذه الشيطان وطنه وأعده مسكنه .. إذا تصبح بطلعته حياه .. وقال : فديت من قرين لا يفلح فى دنياه ولا فى أخراه .

ك فى الدنيا وفى الحشر بعدها   فأنت قرين لى بكل مكان

كنت فى دار الشقاء فإننى   وأنت جميعا فى شقا وهوان

قال تعالى :

(ومَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ويَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ الزخرف الآيتان 36 ، 37 .

الداء . . والدواء صـ 12 .

العزلة

قال الغزالى : ومال أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة .. وعليه : الفضيل وأحمد بن حنبل . وغيرهم .

قال عمر : خذوا بحظكم من العزلة . وقال فضيل : كفى بالله محبا وبالقرآن مؤنسا وبالموت واعظا واتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا .

وأوصى أبو داود الطائى : أبا الربيع .. فقال : صم من الدنيا واجعل فطرك الآخرة . وفر من الناس فرارك من الأسد .

وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت والعاشرة فى عزلة الناس : ودخل على حاتم الأصم : بعض الأمراء .. فقال : ألك حاجة . قال : نعم . قال : ما هى . قال : أن لا ترانى .

وقال ابن عباس : أفضل المجالس مجلس فى قعر بيتك أن لا ترى ولا ترى .. وقيل أن آداب العزلة .. أربعة : أن ينوى بها كف شره أولا .. ثم السلامة من الشر ثانيا ثم الخلاص من الإخلال بالحقوق .. ثالثا : ثم التجرد بكنه الهمة للعبادة رابعا .

: مرقاة المفاتيح : جـ (صـ 298 .

ويعلل إبراهيم بن أدهم سبب العزلة .. فقد قيل له : لم لا تصحب الناس ؟ فقال : إن صحبت من هو دونى أذانى بجهله .. وإن صحبت من هو فوقى تكبر على .. وإن صحبت من هو مثلى حسدنى . فاشتغلت بمن ليس فى صحبته ملال ولا فى وصله انقطاع ولا فى الأنس به وحشة : حلية الأولياء .

ويعلل بشر الحافى سببا آخر فيقول : ليتقى الله تعالى عند : خلوته : وليلزم بيته وليكن أنيسه الله عز وجل . وكلامه .

وذكر إبراهيم الخواص سببا آخر : حيث انه رأى رجلا فى البادية . حسن الأدب حاضر القلب فسأله . فقال : كنت أعمل بين الناس والمعارف فى التوكل والرضا والتفويض . فلما فارقت المعارف لم يبق معى من ذلك ذرة . فجئت حتى أطالب نفسى هاهنا بدعاويها إذا انفردت عن المعلومات والمعارف .

وقال أبو يعقوب السوسى : الانفراد لا يقوى عليه إلا الأقوياء من الرجال .. ولأمثالنا الاجتماع أنفع يعملون بعضهم برؤية بعض .

والمختار هو التوسط بين العزلة عن أكثر الناس وعوامهم .. والخلطة بالصالحين منهم وخواصهم .. والاجتماع مع عامتهم فى نحو جمعتهم وجماعتهم .. بعد حصول العلم المحتاج إلى العمل .. ووصول الزهد الموجب لقطع الطمع عن الخلق .. ولذا قال بعض العارفين : العزلة بغير علم زلة . وبغير الزهد علة .. وهذا طريق الكمل من الصوفية .

قال الغزالى : لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله .. الذاكرون الله بالله .. عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله . ولقوا الله بذكر الله .. ولا شك فى أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر . فإن العزلة أولى بهم . ولذلك كان ﷺ : فى ابتداء أمره يتبتل فى جبل حراء وينعزل إليه حتى قوى فيه نور النبوة فكان الخلق لا يحجبونه عن الله تعالى .. فكان ببدنه مع الخلق وبقلبه مقبلا على الله تعالى .. حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليله .. فأخبر النبى ﷺ : عن استغراق همه بالله : فقال : لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله : مسلم .

وهذا ما حدث مع الجنيد : حيث قال : أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أنى أكلمهم .

وإلى هذا أشار الصوفية بقولهم : الصوفى بائن كائن بالله . وبائن عن الخلق ويسمى هذا مقام جمع الجمع .

وقيل : بينما أويس القرنى جالس إذ أتاه .. هرم بن حيان . فقال له أويس : ما جاء بك ؟ قال : جئت لآنس بك . فقال أويس : ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره : وهذه الدرجة لا يصل أليها إلا من قوى علمه وحاله وإتباعه للشريعة ...

قال الطوسى : لأن الأئمة من المشايخ الذين قل طعامهم ودامت خلواتهم وانفرادهم واختاروا العزلة .. إنما حداهم على ذلك ودعاهم إليه .. داعى العلم وقوة الحال . فورد على قلوبهم ما أذهلهم وشغلهم عن المعارف والأوطان وأخذهم عن الطعام والشراب وجذبهم الحق إليه جذبة أغناهم بها عمن سواه : اللمح صـ 528 .

فلا يجوز للإنسان أن يعتزل فى الجبال والبرارى بدون علم ومجاهدة للنفس وتأدب بآداب التصوف وإلا تعرض لهلاك ..

قال الطوسى : وقوم هاموا على وجوههم ودخلوا البرارى والبوادى . بلا زاد ولا ماء ولا آفة الطريق . وتوهموا أنهم إذا فعلوا ذلك نالوا ما نال الصادقون من حقيقة التوكل وقد غلطوا فى ذلك لأن القوم الذين كان هذا دأبهم .. لهم بدايات .. وتأدبوا بآداب وراضوا أنفسهم قبل ذلك بالمجاهدات وكانوا مستقلين بأحوالهم .. لم يبالوا بالقلة ولم يستوحشوا من الوحدة فكم من موتة ماتوا وكم من مرارة ذاقوا ؟ حتى استوت أحوالهم فى الخراب والعمران .. والسهل والجبل والجماعة والوحدة .. والعز والذل والجوع والشبع والحياة والموت .. فمن فعل شيئا من ذلك وتوهم أنه فد نطق بشئ من أحوال المتوكلين فهو فى غلط : المرجع السابق .

وعن سهل بن عبد الله .. أن بعض تلامذته قال له يوما : يا أستاذ أنا فى كل ليلة أرى الله بعين رأسى .. فعلم سهل أن ذلك من كيد العدو .. فقال له : يا حبيبى إذا رأيته فابزق عليه : فلما رآه من ليلته بزق عليه .. قال : فطار عرشه .. وأظلمت أنواره . وتخلص من ذلك الرجل ولم ير شيئا بعد ذلك . اللمح صـ 544 .

وقال عبد الواحد بن زيد .. لأحد تلامذته وقد غاب عنه فترة : ما خبرك وخبر أصحابك : فقال له : يا أستاذ .. نحن كل ليلة ندخل الجنة ونأكل من ثمارها .. قال : فقال له : خذونى الليلة معكم : قال : فأخرجوه معهم إلى الصحراء فلما جنهم الليل فإذا بقوم عليهم ثياب خضر وإذا بساتين وفواكه .. قال : فنظر عبد الواحد : إلى أرجل هؤلاء الذين عليهم الثياب الخضر فإذا هو مثل حوافر الدواب : فعلم أنهم شياطين .. فلما أرادوا أن يتفرقوا قال لهم : إلى أين تذهبون ؟ أليس إدريس النبى ﵇ لما دخل الجنة لم يخرج منها ؟ قال : فلما أصبحوا .. فإذا على مزابل بين روث الدواب وبعر الحمار فتابوا ورجعوا إلى صحبة .. عبد الواحد بن زيد .. رحمه الله .

وينبغى أن يعلم العبد أن كل شئ رأته العيون فى دار الدنيا من الأنوار أن ذلك مخلوق وليس بينه وبين الله شبه . وليس ذلك صفة من صفاته . بل جميع ذلك خلق مخلوق .. ورؤية القلوب بمشاهدة الإيمان وحقيقة اليقين .. والتصديق حق لقول النبى ﷺ : أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

والذى قال من التابعين : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا : أشار إلى حقيقة يقينه وصفاء وقته .

وتكلم بذلك من غلبات وجده وليس الخبر كالمعاينة فى جميع الدنيا والآخرة .

وقد قيل فى قوله تعالى : (**ما كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى** النجم 11) .

يعنى لم تكذب عينه ما رآه قلبه : ولم يكذب فؤاده ما رآه بعينه .. وهذا خصوص للنبى ﷺ وليس لأحد غيره .

الالتزام بالكتاب والسنة شرط فى العزلة :

وإذا التزم العبد بالكتاب والسنه فاضت عليه أنوار التجليات وأنس بالله وفر عمن سواه وتاه مع مولا ..

جال أطاعوا الله فى السر والجهر — فما باشروا اللذات حينا من الدهر

ى عليهم رحمه الله انزلت — فظلوا سكونا فى الكهوف وفى القفر

يراعون نجم الليل ما يرقدونه — فباتوا بادمان التهجد و الصبر

خل هموم القوم للخلق وحشة — فصاح بهم أنسى الجليل إلى الذكر

جسادهم فى الأرض هونا مقيمة — وأروحهم تسرى إلى معدن الفخر

فهذا نعيم القوم إن كنت تبتغى — وتعقل عن مولاك آداب ذوى القدر

وقال ذو النون المصرى : صحبت زنجيا فى التيه وكان مغلغل الشعر . فإذا ذكر الله ابيض مورد على أمر عظيم فقلت : لم يا هذا إنك إذا ذكرت الله تحول لونك وانقلبت عيناك ؟ فجعل يخطر فى التيه و يقول :

وما كنا لننسى فنذكر — ولكن نسيم القرب يبدو فيظهر

فاحيا به عنى وأحيا به له — إذا الحق عنه مخبر ومعبر

قال ذو النون : فما طرق سمعى مثل حكمه ذلك الزنجى فعلمت ان لله عبادا تعلى قلوبهم بالأذكار كما تعلى الأطيار فى الأوكار لو فتشت منهم القلوب لما وجدت فيها غير حب المحبوب ثم بكى وأنشأ يقول :

كر أصنافا من الذكر حشوها ... وداد وشوق يبعثان على الذكر

فذكر الف الحب ممتزج بها ... يحل محل الروح فى طرفها يسرى

وذكر يعز النفس منها لأنه ... لها متلف من حيث يدرى ولا تدرى

وذكر علا منى المفاوز والذرى ... يحل عن الأوصاف بالوهم والفكر

وقال يوسف بن الحسين : قال بعض الصوفيه : سمعت ذا النون يقول : رأيت سعدون فى مقبره البصره فى يوم حار وهو يناجى ربه ويقول بصوت عال أحد أحد فسلمت عليه فرد على السلام فقلت بحق من ناجيته إلا وقفت فوقف ثم قال لى : قل وأوجز ، قلت : توصينى بوصية أحفظها منك . وتدعو لى بدعوه . فأنشأ يقول :

ياطالب العلم ههنا وهنا ... ومعدن العلم من جنبيكا

إن كنت تبغى الجنان تسكنها ... فأذرف الدمع فوق خديكا

وقم إذا قام كل مجتهد ... وادع لكيما يقول لبيكا

ثم مضى وقال : يا غياث المستغيثين أغثنى فقلت له ارفق بنفسك فلعله يلحظك لحظه فيغفر لك .. فصرف يده من يدى وعدا .. وهو يقول :

أنست به فلا ابغى سواه ... مخافة أن أضل فلا أراه

فحسبك حسره وضنا وسقما ... بطردك عن مجالس أولياه

وقال ذو النون : خرجت حاجا إلى بيت الله الحرام فبينا أنا أطوف إذا بشخص

متعلق بأستار الكعبة . وإذا هو يبكى ويقول فى بكائه : كتمت بلائي من غيرك . وبحت بسرى إليك واشتغلت بك عمن سواك .. عجبت لمن عرفك كيف يسلو عنك ؟ ولمن ذاق حبك كيف يصبر عنك ؟ ! ثم أنشأ يقول :

ذوقتنى طيب الوصال فزدتنى شوقا إليك مخامر الحسرات

ثم أقبل على نفسه فقال : أمهلك فما أرعويت وستر عليك فما استحيت وسلبك حلاوة المناجاة فما باليت ثم قال : عزيزى مالى إذا أقمت بين يديك ألقيت على النعاس ومنعتنى حلاوة قرة عينى له .. ثم أنشأ يقول :

روعت قلبى بالفراق فلم أجد شيئا أمر من الفراق وأوجعا

ب الفراق بأن يفرق بيننا وأطال ما قد كنت منه مودعا

قال : فلم أتمالك .. أن أتيت الكعبة مستخفيا فلما أمسى تحلل بخمار كان عليه ثم قال : يا ذا النون : غض بصرك من مواقع النظر فإنى حرام . فعلمت أنها امرأة . فقلت : يا أمة الله .. مم يحوى الهموم قلب المحب ؟ فقالت : إذا كانت للتذكار محاورة . وللشوق محاضرة . يا ذا النون أما علمت أن الشوق يورث السقام وتجديد التذكار يورث الأحزان ثم أنشأت تقول :

لم أذق طعم وصلك حتى زال عنى محبتى للأنام

ثم أنشأت تقول :

محب إذا تزايد وصله وعلت محبته بعقب وصال

فقالت أوجعتنى أما علمت أنه لا يبلغ إليك إلا بترك من دونه .

: حلية الأولياء : جـ (صـ 375 .

صحبة الأخيار

عن أبى سعيد الذرى قال : قال رسول الله ﷺ : لا تصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقيا : أبو داود . والترمذى .

وقيل : صحبة الأخيار تورث الخير وصحبة الأشرار تورث الشر كالريح .. إذ مرت على النتن حملت نتنا وإذا مرت على الطيب حملت طيبا ..

وقال الشافعى : ليس أحد إلا له محب ومبغض فاذن لابد من ذلك فليكن المرجع إلى أهل الطاعة : ومن ثم قيل :

يصحب الإنسان إلا نظيره وإن لم يكونوا من قبل ولا بلد

وصحبة من لا يخاف الله لا تؤمن غائلتها لتغيره بتغير الأعراض : (**ولاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**) الكهف 28 .

والإخوان ثلاثاً : أخ لآخرتك فلا نزاع فيه إلا الدين .. وأخ لدنياك فلا نزاع فيه إلا الخلق .. وأخ لتستأنس به فلا نزاع فيه إلا السلامة من شره وخبثه وفتنته .

وقال التسترى : أحذر صحبة ثلاثة : الجبابرة الغافلين .. والقراء المداهنين .. والصوفية الجاهلين .

وزاد الشيخ زروق : علماء الظاهر .. قال : لأن نفوسهم غالبة عليهم .

وقال على كرم الله وجهه : قطع ظهرى رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك .. فالعالم يغر الناس بتهتكه .. والجاهل يفتنهم بتنسكه . فعليك بامتحان من أردت صحبتهم لا لكشف عورته بل لمعرفة الحق .. . والمعنى لا تصحب إلا مطيعا ولا تخالل إلا تقيا .

وقال فى الحكم : لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله .

والذى ينهض حاله هو الذى إذا رأيته ذكرت الله فقد كنت فى حالة الغفلة فلما رأيته نهض حالك إلى اليقظة .. أو إذا كنت فى حالة الرغبة فلما رأيته نهض حالك إلى الزهد .

أو كنت فى حالة الاشتغال بالمعصية فلما رأيته نهض حالك إلى التوبة . أو كنت فى حالة الجهل بمولاك فنهضت إلى معرفة من تولاك .. وهكذا .. والذى يدلك على الله مقاله هو الذى يتكلم بالله . ويدل على الله .. ويغيب عما سواه .. إذا تكلم أخذ بمجامع القلوب . وإذا سكت أنهضك حاله إلى علام الغيوب .. فحاله يصدق مقاله . ومقاله موافق لعلمه فصحبة مثل هذا إكسير يقلب الأعيان . إيقاظ الهمم صـ 95 .

وقال أبو الحسن الشاذلى : أوصانى حبيبى فقال : لا تنقل قدميك إلا حيث ترجوا ثواب الله . ولا تجلس إلا حيث تأمن .. من معصية الله .. ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينا وقليل ما هم .

وأوصى علقمة العطاردى : لابنه عند وفاته فقال : إذا أردت صحبة إنسان فاصحب من إذا مددت يدك بالخير مدها .. وإن رأى منك حسنة عدها . وإن رأى سيئة سدها . ومن إذا قلت صدق قولك .. وإن حاولت أمرا أمدك . وإن تنازعتما فى شئ آثرك .

وقال بعضهم :

لمودة والإخاء   حالة الشدة دون الرخاء

وقال آخر :

ى الإخاء على الرخاء كثيرة   وفى الشدة تعرف الإخوان

وقال أبو الحسن : لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فإنه لئيم .. ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قل ما يدوم ..

واصحب من إذا ذكر .. ذكر الله .. فالله يغنى به إذا شهد وينوب عنه إذا فقد . ذكره نور القلوب ومشاهدته : مفاتيح الغيوب .

من تصحب ومن تجالس وصحبة الشيوخ :

أما صحبة الشيوخ .. فقد قال : سيدى على : اعلم أنه لا يقرب طالب الله إلى الله شئ مثل جلوسه مع عارف بالله . إن وجده .. وإن لم يجده فعليه بذكر الله ليلا ونهارا وقائما وقاعدا مع العزلة عن أبناء الدنيا بعدم الجلوس معهم . وعدم الكلام بذلك وعدم النظر فيهم لأنهم سم خارق .. ولا يبعد من الله شئ مثل جلوسه مع فقير جاهل ..

والفقير الجاهل أقبح من العاصى الغافل .. أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل . لاشئ فى الوجود يسود قلب المريد مثل جلوسه مع الفقير الجاهل . كما أن العارف بالله يجمع بين العبد ومولاه بنظرة أو بكلمة كذلك الفقير الجاهل بالله ربما أتلف المريد عن مولاه بنظر أو بكلمة فما فوقها : المرجع السابق .

شروط الشيخ وهى أربع : علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية .

فالعلم الصحيح يتيقن به فرضه ولا بد أن يكون عالما بالمقامات والمنازل التى يقطعها المريد وبغرور النفس ومكايدها . قد سلك ذلك على يد شيخ كامل .. وذاق ذلك ذوقا لا تقليدا وهو المراد بالذوق الصريح .. والهمة العالية هى المتعلقة بالله .. دون ما سواه .. والحالة المرضية وهى الاستقامة بقدر الاستطاعة . ولابد أن يكون جامعا بين حقيقة وشريعة وبين جذب وسلوك فبجذبه يجذب القلوب وبسلوكه يخرجها من حالة الجذب إلى البقاء . فالسالك فقط ظاهرى لا يجذب ولا يحقق . والمجذوب فقط لا يسير ولا يوصل ، وفساد صحبته اكثر من نفعها ..

قال فى أصول الطريقة : ومن فيه خمس خصال لا تصح مشيخته : الجهل بالدين وإسقاط حرمة المسلم ودخول ما لا يعنى واتباع الهوى فى كل شئ وسوء الخلق من غير مبالاة : إيقاظ الهمم لابن عجيبة .

وروى الإمام الرازى : أن رسول الله ﷺ : قال : لا تجالس العلماء إلا إذا دعوكم من خمس إلى خمس . من الشك إلى اليقين . ومن الكبر إلى التواضع . ومن العداوة إلى النصيحة . ومن الرياء إلى الإخلاص . ومن الرغبة إلى الزهد ..

وكان يحيى بن معاذ يقول لعلماء وقته : يا معشر العلماء دياركم هامانية . ومراكبكم قارونية . وأطعمتكم فرعونية . وولائمكم جالوتية . ومواسمكم جاهلية وقد صيرتم مذاهبكم شيطانية . فأين .. الملة المحمدية ؟ .

وقال فى لطائف المنن : وليس شيخك من سمعت منه .. إنما شيخك من أخذت عنه . وليس شيخك من واجهتك عبارته .. إنما شيخك من سرت فيك إشارته .. وليس شيخك من دعاك إلى الباب .. إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب .. وليس شيخك من واجهك مقاله .. إنما شيخك من نهض بك حاله .. شيخك الذى أخرجك من سجن الهوى . ودخل بك على المولى .. شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك حتى تجلت فيه أنوار ربك .. نهض بك إلى الله فنهضت إليه . وسار بك حتى وصلت إليه ولا زال مجاورا لك ألقاك بين يديه فزج بك فى الحضرة .. وقال : ها أنت وربك : والسير هنا مجازى .. عبارة عن قطع العلائق والعوائق .. وإلا فالأمر كما قال الشيخ : لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها ولا قطيعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك صـــ 114 . وقال صاحب العينية فى التحذير من صحبة الغافلين والمعوقين :

ع لمن واصلت أيام غفلة	فما واصل العذال إلا مقاطع
ب جناب الأجنبى لو أنه	لقرب انتساب فى المنام مضاجع
ں من جلاسها كل نسبة	ومن خلة للقلب تلك الطبائع

والحاصل أن صحبة من يوصل إلى الله فما هى إلا صحبة لله إذ ما ثم سواه . والنظر إلى العارف بالله فإنما هو نظر إلى الله .. إذ لم تبق فيه بقية عليه لغير الله فصار نورا محضا من نور الله : المرجع السابق .

ما يعقب العزلة الصادقة

وهذا المعتزل للخلق أبعده الله عنهم ليحليه ويجليه وينقيه من الأكدار ويصفيه من الأدران .. ثم يعيده إلى الخلق وقد خلع عليه من صفات الكمال ويجعله أهلا ليكون منارة للعلم والعرفان . وأستاذا للإرشاد والأخلاق .. فلا تؤثر فيه الخلطة ولا تضره فى شئ .

وهى سنة الله فى خلقه إذا أراد أن يؤنس عبده بذكره ويتحفه بمعرفته أوحشه من خلقه وشغله بخدمته وألهمه ذكره حتى إذا امتلأ قلبه نورا وتمكن من حلاوة الشهود والاستبصار . رده إليهم رحمة لهم .. لأنه حينئذ لقوته لا يأخذ منهم بل يأخذون منه .

ومثاله فى الحس : كفتيلة أشعلتها فمادامت ضعيفة لابد أن تحفظها من الريح وتقصد بها المواضع الخفية .. فإذا اشتد نورها وأشعلتها في الحطب صعدت بها إلى ظهور الجبال فبقدر ما يصيبها الريح يعظم اشتعالها .. كذلك الفقير مادام فى البداية لا يليق به إلا الوحشة من الخلق والفرار منهم فإذا تمكن فى الشهود فلا يليق به حينئذ إلا الخلطة معهم لأنهم لا يضرونه .

ولقد حببت الخلوة إلى النبى ﷺ : فكان يخلو بغار حراء الليالى الطويلة قبل بعثته وذلك ليصفيه الله .. من الشواغل والشواغب وليكون قلبه أهلا لتتنزل الرحمات . وليتهيأ لقبول الأسرار فإن القلب إذا تطهر من الأكدار ملئ بالأنوار وأشرقت عليه شموس العرفان وتمكن من حضرة الشهود والعيان : وهذه سنة الله فى أوليائة وأصفيائه يفرون أولا من الناس حتى يحصل لهم منهم الإياس ثم يردهم الحق إليهم رغما على أنوفهم لمقام الدلالة والإرشاد فينتفع بهم العباد وتحيى بوجودهم البلاد :

بكم كل أرض تنزلون بها	كأنكم فى بقاع الأرض أمطار
ـتهى العين فيكم منظرا حسنا	كأنكم فى عيون الناس أزهار
ِركم يهتدى السارى برؤيته	كأنكم فى ظلام الليل أقمار
ء أوحش الله ربعا من زيارتكم	يا من لهم فى الحشا والقلب تذكار

وقال عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر .. أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى . فقال لى عيسى بن يونس المصرى .. المعروف بالزهد .. إن فى : صور : شابا وكهلا .. قد اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما فدخلت : صور : وأنا جائع عطشان . فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة . فسلمت عليهما فما أجابانى فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتما على السلام فرفع الشاب رأسه فنظر إلى وقال : يا ابن خفيف : الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل . وخذ من القليل للكثير .. يا ابن خفيف : ما أقل

ما شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا . قال : فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى فلما كان وقت العصر قلت : عظنى فرفع رأسه إلى وقال يا ابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة .. يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك بالله رؤيته وتقع هيبته على قلبك .. يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله .. والسلام . قم عنا : الإحياء .

خلاصة العزلة والخلوة والفرق بينهما

العزلـ : هى الانقطاع عن الخلق والاشتغال بالحق : والبعد عن أبناء الجنس ممن يكونوا أخلاقهم كالرجس .. وهى من أمارات الوصلة .. أى الوصول إلى الحق ..

والخلو : صفة أهل الصفا : أى صفاء القلوب والسرائر من كدورات العادات . لذا حكى عن بعضهم أنه قال : كنت أخلو لأسلم فصرت أخلو لأغنم فصرت أخلو لأفهم فصرت أخلو لأعلم فصرت أخلو لأتنعم ..

والخلوة لابد فيها من الفكرة التى هى سير القلب إلى حضرة الرب بعد تحصيل العلم وتمكنه من القلب . وتمكن العلم بالله من القلب هو دواؤه وغايته صحته وقد سماه الله القلب السليم : (**وْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ ولاَ نُونَ * لاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** .

الشعراء 38 ، 39 .

وقال ابن عطا : ما نفع القلب شئ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكره .

وهى على ثلاثة : منفرد بقلبه لا بشخصه وهو كائن بائن راحل قاطن . فحاله حال الأقوياء وأهل الكمال : ومنفرد بهما معا وهو المتخلى : وأنواعه ثلاثة : معتزل ليسلم ومعتزل ليغنم ومعتزل لينعم ..

شرط الأول : القيام بواجبات وقته وسلامة الناس من سوء ظنه .. وشرط الثانى : التحفظ فى السنة مع الجد فى العمل .. وشرط الثالث : تحرير الأحوال والتبرى من المقال : وهى مطلوبة من العبد .. إذا استغنى عن الناس . واستغنوا عنه .. أما إذا دعاه الشرع إلى المخالطة بهم لعلم أو تعليم فلا خير فى البعد عنهم .. وهذا جمع بين الأدلة المانعة والمجوزة :

فؤادى له من كل شائبة   إن عشت أو مت أعضائى توحده

وإذا اعتزل الإنسان الناس فإنه ينوى بعزلته سلامتهم منه لا سلامة منهم .

قال القشيرى : ومن حق العبد إذا آثر العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره . ولا يقصد سلامته من شر الخلق فإن الأول من القسمين : نتيجة استصغار نفسه والثانى : شهود مزيته على الخلق . ومن استصغر نفسه فهو متواضع ومن رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر .

قال ﷺ : " الكبر بطر الحق وغمط الناس ' وقد رؤى بعض الرهبان : فقيل له إنك راهب فقال : لا .. بل أنا حارس كلب . إن نفسى كلب يعقر الخلق أخرجتها من بينهم ليسلموا منها .. ومر إنسان ببعض الصالحين فجمع ثيابه منه فقال له الرجل : لما تجمع عنى ثيابك ليست ثيابى نجسة فقال له الشيخ : وهمت فى ظنك بل ثيابى هى النجسة جمعتها عنك لئلا تنجس ثيابك بها لا لكى لا تنجس ثيابى .

: نتائج الأفكار : جـ 2 صـ 218 .

ولابد أن يسبقها تصحيح العقيدة ليسلم من الوسوسة . وتعلم فرائض الشريعة ليتم اعتزالهم على أساس مكين . وهى فى الحقيقة اعتزال الخصال المذمومة .. والاتصاف بالصفات المحمودة . وأن يختلط بالناس وإذا اتصف الإنسان بذلك وتحقق بهذه الخصال الكريمة كان فى عزلة مهما خالط الناس وعاملهم :

علمت بأن قلبى فارغ ... مما سواك ملأته بهواكا
والقلب فيك هيامه وغرامه ... والروح لا تنفك عن ذكراكا

قال أبو العباس المرسى : آفات العباد أربعة لا خامس لها : النعمة والبلية والطاعة والمعصية . ولله فى كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منه . بحكم الربوبية فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله تعالى عليه أهداه لها ووفقه للقيام بها .. ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر .. وهو فرح القلب بالله .. ومن كان وقته المعصية فسبيله : التوبة والاستغفار : ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا والصبر إلى آخر

ما قال : هذا . وقال رسول الله ﷺ : من أعطى فشكر وابتلى فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر . قالوا ما ذاك يا رسول الله قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

ماذا على ما آثر الخلوة :

ومن أثر الخلوة على الخلطة والصحبة ينبغى عليه أن يكون دائما وأبدا على ذكر بالله .. ليتفرع لما اختاره لنفسه وإلا كان عابئا .

قال أبو عثمان المغربى : من اختار الخلوة على الصحبة ينبغى أن يكون خاليا من جميع الأذكار .. إلا ذكر ربه . وخاليا من مطالبة النفس من جميع الأسباب .. فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية .

وقال يحيى بن معاذ : أنظر أنسك بالخلوة . أو أنسك معه فى الخلوة . فإن كان أنسك بالخلوة . ذهب أنسك إذا خرجت منها .. وإن كان أنسك به فى الخلوة . استوت بك الأماكن فى الصحارى والبرارى .

وقال الجنيد : من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس فإن هذا زمان وحشة والعاقل من اختار فيه الوحدة .

وقال رجل لذى النون : متى تصح لى العزلة .. قال : إذا قويت على عزلة النفس .. وذلك بمفارقة الأخلاق الذميمة والاتصاف بالحميدة ..

وقيل لابن المبارك : ما دواء القلب : قال : قلة الملاقاة للناس .

وقيل : إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة .. آنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة وبصره بعيوب نفسه . فمن أعطى ذلك فقد أعطى خير الدنيا والآخرة .

لأن الوحدة تسلمه من آفات الخلطة . والقناعة تريحه من أسباب الكثرة .. ورؤيته لعيوب نفسه تعينه على الانتقال عن الأخلاق الذميمة إلى الأخلاق الحميدة .

فى الخلوة عشر فوائد : ذكرها ابن عجيبة نوجزها فيما يأتى :

الأولى : السلامة من آفات اللسان فإن من كان وحده لا يجد معه من يتكلم : رحم الله عبدا سكت فسلم أو تكلم فغنم .

لثاني : حفظ البصر والسلامة من آفات النظر إلى ما هم منكبون عليه من زهرة الدنيا وزخرفها : (**ولاَ تمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**) طه 31 .

وقالوا العين سبب الحين .. الهلاك . ومن أرسل طرفه اقتضى حتفه وإن النظر بالبصر إلى الأشياء يوجب تفرقة القلب .

الثالث : حفظ القلب عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض . لأنه قيل : من خالط الناس داراهم ومن داراهم راءاهم . ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا : وقال بعضهم قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله . كيف الطريق إلى التحقيق ؟ قال : لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة : والمخرج عدم السكون إليهم .

الرابع : حصول الزهد فى الدنيا والقناعة منها وفى ذلك شرف العبد وكماله وسبب محبته عند مولاه لقوله ﷺ : " ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس "

الخامسة : السلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأراذل .. ومصاحبة الصوفية كما **قال الجنيد** إذا أراد الله بعبد خيرا أوقعه إلى الصوفية . وقال آخر : والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح .

السادسة : التفرغ للعبادة والذكر والعزم على التقوى والبر .

السابعة : وجدان حلاوة الطاعة وتمكن لذيذ المناجاة لفراغ سره . قال أبو طالب المكى : ولا يكون المريد صادقا حتى يجد فى الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجد فى العلانية . وحتى يكون أنسه فى الوحدة وروحه فى الخلوة . وأحسن أعماله فى السر .

الثامن : راحة القلب والبدن لأن المخالطة : تتعب القلب بالاهتمام بالأمر .. والبدن بالسعى فى إحرازه .. وإن فاته الثواب فى ذلك .. فقد فاته ما هو أعظم منه وهو جمع القلب فى حضرة الرب .

التاسع : صيانة نفسه ودينه من التعرض لشرورها والخصومات التى توجبها الخلطة . قال الشافعى :

ومن يذق الدنيا فإنى طعمتها	وسيق إلى عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غرورا وباطلا	كما لاح فى ظهر الفلاة سرابها
وما هى إلا جيفة مستحيلة	عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها عشت سلما لأهلها	وإن تجتذبها ناهشتك كلابها
فطوبى لنفس أوطأت قعر بيتها	مغلقة الأبواب مرخى حجابها

العاشرة : التمكن من عبادة التفكر والاعتبار وهى المقصود الأعظم من الخلوة .
وكان عيس يقول : طوبى لمن كان كلامه ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

وقال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسنك من سيئك : وتطلع بها على عظمة الله فى آياته وبديع صنعه .

وهذه ثمرات عزلة أهل البداية .. أما أهل النهاية فعزلتهم مصحوبة معهم ولو كانوا وسط الخلق .. لأنهم أقوياء محجوبون بالجمع عن الفرق وبالمعنى عن الحس . استوى عندهم الخلوة والخلطة : لأنهم يأخذون النصيب من كل شئ . ولا يأخذ النصيب منهم شيئا :

الخلق نور وأنا رعيت فيهم هم الحجب الأكبر والمدخل فيهم

إيقاظ الهمم : لابن عجيبه ... انتهى ملخصا صـــ 39 .

بسم الله الرحمن الرحيم

الصبر

عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ ' الصبر ضياء " مسلم .

وهو فى اللغة : حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع . أو عما يقتضيان حبسهما عنه .

فالصبر لفظ عام ، ربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه ، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمى صبرا لا غير .. ويضاده الجزع ، وإن كان فى محار بة سمى شجاعة . ويضاده الجبن ، وإن كان فى نائبة مضجرة سمى رحب الصدر . ويضاده الضجر ، وإن كان فى إمساك الكلام سمى كتمانا . ويضاده المذل ، وقد سمى الله كل ذلك صبرا ونبه عليه بقوله : (**والصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ** .) البقرة 177 (**والصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ**) الحج 35 . المفردات : للراغب الأصبهانى ص 273 . وقال صاحب اللسان : فى أسماء الله " **الصبور** " وهو الذى لا يعاجل الناس بالانتقام .

وقال الجوهرى : الصبر حبس النفس عند الجزع ، وفى الحديث " لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله " . أى أشد حلما على فاعل ذلك وترك المعاقبة عليه وقوله تعالى (**وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**) البلد 17 . معناه وتواصوا بالصبر على طاعة الله ، والصبر على الدخول فى معاصيه .. والصبر : الجراءة ، ومنه قوله تعالى : (**فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**) البقرة 175 الصبر على طاعة الله الجبار والصبر على ترك معاصى الجبار ، والصبر على الصبر على طاعته وترك معصيته لسان العرب ج ، ص 2391 . فهو فى حقيقته : حبس النفس على كريه يتحمله أو لذيذ يفارقه لعلمه بما أعده الله للصابرين وما توعد به المتسخطين ، وهو قوة خلقية تمكن الإنسان من ضبط نفسه وتحمله للمتاعب والآلام وتمنعه من الضجر والعجلة والرعونة وتجعله يواجه الأزمات بعقل لا تعلق به ريبة . ولا تطيشه كربة ، وإلا قاد الجزع إلى الغضب والطمع وساقته نفسه إلى الشهوات والملذات ، فلا غناء للإنسان عنه وهو محتاج إليه فى دينه ودنياه وهو الذى يقوده إلى أخراه ويعصمه من دنياه ولأهميته طلبه الها من عباده وندبهم إليه فى كثير من آياته .. وهو على أنواع :

أنواع الصبر

الأول : الثبات على الكتاب والسنة قولا وفعلا ، حركة وسكونا .

والثانى : استواء النعمة والنقمة مع وجود الإحساس بشهود مقام الرضا .

الثالث : وجود لذة فى النقمة وكراهة فى النعمة بواسطة يقين وعد الأجر وخوف الامتحان

والنوع الأول ثابت مع باقى الأنواع التى بعده ، وأسباب الصبر : شهود مصدر الأفعال واليقين بما أعده الله للصابرين ، وخوف التسخط بالمقدور فيحرم الأجر ويكسب الوزر ، والعلم بعدم فائدة الجزع نتائج الأفكار القدسية ، ص 47 .

الرابع : الأمر به (**واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ** النحل 27 ، أمر بذلك رسوله ومصطفاه ، أى اصبر على ما أصابك من الإيذاء والإعراض عن الحق ، وما صبرك إلا بالله أى بذكره والاستغراق فى مراقبة شئونه والتبتل إليه بمجامع الهمة أو بمعونته وتوفيقه ، وقال تعالى : (**واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ** الطور 48 .

الخامس : النهى عن ضده ، (**فاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ولاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ**) الأحقاف 35 .

السادس : الثناء على أهله (**والصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** البقرة 177 .

السابع : أنه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهى الصلاة منه عليهم ، ورحمته لهم ، وهدايته إياهم قال تعالى : (**وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ورَحْمَةٌ وأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**) البقرة 155 157 .

الثامن : مضاعفة الأجر لهم على غيرهم (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**) الزمر 10 .

التاسع : أنه جعل الصابرين أئمة المتقين وقرن الصبر باليقين وأن بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين قال تعالى :

(**وجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**) السجدة 23 .

العاشر : أنهم فى معية الله وهى معية خاصة معية الحفظ والنصر والتأييد

(**واصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** الأنفال 46 .

وأنه ضمن لهم النصر والمدد (بلى إن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ آل عمران 125 . ومنه قول النبى ﷺ : واعلم أن النصر مع الصبر : أحمد

وتكفل بإيجاب الجزاء لهم بأحسن ما كانوا يعملون (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ النحل آية 96 . كما أطلق لهم البشرى (وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ البقرة 155

صابروا ورابطوا

قال تعالى : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا آل عمران 200 .

قيل معناها أن الصبر دون المصابرة وهى دون المرابطة لأن المعنى اصبروا بحبس نفوسكم على طاعة الله وصابروا بقلوبكم على الرضا بالبلوى فى الله ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله وقيل اصبروا فى الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وقال ابن عجيبة يا أيها الذين آمنوا اصبروا على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد والأزمات وعلى مجانبة المعاصى والمخالفات وعلى شكر ما أوليتكم من مواهب العطيات وصابروا أى غالبوا الأعداء فى مواطن الصبر والثبوت فى مضاحض الحرب ورابطوا أبدانكم وخيولكم فى الثغور لتحفظوا المسلمين من العدو الكفور كى تفوز و بعظائم الأجور قال ﷺ : من رابط يوما وليلة فى سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته إلا لحاجة ومن توفى فى سبيل الله أى مرابطا فى سبيل الله - أجرى الله عليه أجره حتى يقضى بين أهل الجنة وأهل النار ومما يلحق بالرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة – البحر المديد ، ص 57 . ومما قاله من باب الإشارة (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إيمان أهل الخصوص اصبروا على حفظ مراسم الشريعة وصابروا على تحصيل أنوار الطريقة ورابطوا قلوبكم على شهود أسرار الحقيقة أو اصبروا على أداء العبادة وصابروا على تحقيق العبودية ورابطوا فى تحصيل العبودة أى الحرية . أو اصبروا على تحقيق مقام الإسلام وصابروا على دوام الإيمان ورابطوا على العكوف فى مقام الإحسان أو اصبروا على تخليص الطاعات وصابروا على رفض الحظوظ والشهوات ورابطوا أسراركم على

أنوار المشاهدات واتقوا الله فلا تشر دوا معه سواه لعلكم تفلحون لتحقيق معرفة الله :
المرجع السابق .

وقيل الصبر هو حبس القلب على حكم الرب أو هو تجرع المرارة من غير تعبيس أو تلقى البلاء بالرحب والفرح وهو فى القلب عنوان الظفر وفى المحن عنوان الفرج وهو من الإيمان كالرأس من الجسد وقال سهل : الصبر انتظار الفرج من الله ، قال وهو أفضل الخدمة وأعلاه وقال غيره : الصبر أن تصبر فى الصبر معناه أن لا تطالع فيه الفرج .

صابر الـ بر فاستغاث به الصبر فنادى الصبور يا صبر صبرا

وقيل اصبروا على النعماء وصابروا على البأساء والضراء ورابطوا فى دار الأعداء واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون فى دار البقاء ، وقال الشيخ عبد الله الأنصارى : ومن أضعف الصبر الصبر لله وهو صبر العامة وفوق الصبر بالله وهو صبر المريدين وفوق الصبر على أحكـ م الله وهو صبر السالكين ومعنى كلامه أن صبر العامة لله أى رجاء ثوابه وخوف عقابه وصبر المريدين بالله أى بقوة الله ومعونته لهم لا يريدون لأنفسهم صبرا ولا قوة عليه بل حالهم التحقق بلا حول ولا قوة إلا بالله علما ومعرفة وحالا وفوقها الصبر على الله أى على أحكامه . وقال ابن القيم : و الصبر على ثلاثة أنواع : صبر بالله ، وصبر لله ، وصبر مع الله ..

فالأول : الاستعانة به ورؤية أنه هو المصبر وأن صبر العبد بربه لا بنفسه كما قال الله : (**واصبر وما صبرك إلا بالله** يعنى إن لم يصبرك هو لم تصبر .

والثاني الصبر لله وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله وإرادة وجهه والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلى الخلق .

والثالث : الصبر مع الله وهو دوران العبد مع مراد الله الدينى منه ومع أحكامه الدينية صابرا نفسه معها سائرا بسيرها مقيما بإقامتها يتوجه معها أين توجهت ركائبها وينزل معها أين استقلت مضاربها وهو أشد أنواع الصبر وهو صبر الصديقين .

: مدارج السالكين ، ص 57 .

أقسام الصبر

وهو على ثلاثة أقسام : صبر العوام : وهو حبس النفس على ما تكره ، وصبر الخواص : وهو حبس القلب على الحضور مع الرب فى كل نفس ، وصبر خواص الخواص : وهو حبس السر على شهود المعانى وحبس الروح على التأديب مع الحبيب فى كل مظهر .. وهو يكون فى أربعة مواطن : عند البلية . وفى ورود النعم . وفى ترك المعصية . وفعل الطاعة وكل عبر عنه حسب حاله وذوقه ، فقال ذو النون المصرى : الصبر التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البليات وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة ومفاده حبس النفس على فعل المأمورات واجتناب المنهيات وعدم القلق والشكوى عند الامتحان مع إظهار شرف النفس عند الحاجات سكونا مع القناعة والتعفف .

وقال أبو عثمان :

الصبار هو الذى عود نفسه الهجوم على المكاره بخلاف المتصبر والصابر .. فالمتصبر يتكلف حمل ما أصابه ويقاسى مشقته والصابر يحمل ذلك بدون مشقة وإن وجد ألما والصبار كذلك .. مع زيادة فى الصبر لأنه للمبالغة فى درجات الصبر ، فهو يهجم على المكروه ويجد فيه اللذة لأنه يشاهد المبلى فى البلاء والمعذب فى العذاب وهذا مقام عظيم لا يصل إليه إلا القليل من العباد ، وفى هذا المعنى أنشدوا :

ألفت الد ى حتى تطاول مكثـــــــــه فلو زال عن جسمى بكته الجوارح

وأنشد ابن عطاء :

سأصبر كى ترضى وأتلف حسرة وحسبى أن ترضى ويتلفنى صبرى

ومعناه كما قال العروس : أى أد وم على سكون قلبى وطمأنينته عندما جريه عنى من تصر يف أحكامك ولو كان فى ذلك تلف نفسى حسرة وحزنا على ما فاتنى من

شهود جمالك وجلالك وتحقق رضاك حيث تعلقت بذلك قدرتك وإرادتك ويكفنى رضاك بدلا عن كامل مألوفاتى من الحال والمقام والقرب ولله در القائل :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متأخر عنه ولا متقدم

أجد الملامة فى هواك لذيذة طربا لذكرك فليلمنى اللوم

: نتائج الأفكار القدسية صـ 3 صـ 153

وقال عبد الله البصرى : وقف رجل على الشبلى فقال أى صبر أشد على الصابرين فى الله تعالى ، أهو الصبر على تغيير الأخلاق المذمومة والاتصاف بالمحمودة والاشتغال بأنواع الطاعات ؟ فقال : لا .. قال الصبر لله وهو الصبر على ذلك مع التبرى من الحول والقوة ؟ قال : لا .. قال الصبر مع الله وهو الصبر على ما يرد على القلب من الله وهو متأدب معه فى حمل ما يرد منه راض بذلك ؟ قال : لا .. قال فإيش الصبر ؟ قال : الصبر عن الله وهو أن يبعد الله العبد عنه بعد تقريبه إليه فيلازم الباب ويتمرغ فى التراب فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه أن تتلف .

وقال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين ، واعجبا كيف يصبرون أى المحبون ، وأنشد :

الصبر يحمد فى المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمد

وقيل للصبر ثلاث مقامات أولها : ترك الشكوى وهى للتائبين ، والثانية الرضا بالمقدور وهى للزاهدين ، والثالثة المحبة لما يصنع المولى وهى للصديقين وقال أبو القاسم الحكيم فى قوله تعالى : **(واصبروا** أمر بالعبادة وقوله **(وما صبرك إلا بالله** عبودية لل وافتقار من العبد لمولاه بالعجز والتبرى من الحول والقوة وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ : بك أحيا وبك أموت . وقيل تجرع الصبر فإن قتلك قتلك شهيدا وإن أحياك أحياك عزيزا . وقيل الصبر لله عناء ومشقة ، و الصبر بالله بقاء عون من الله و الصبر فى الله بلاء ابتلاء لعبده هل يدوم على الرضا أو لا ، و الصبر مع الله وفاء لما امتحن به وهو ثمرة لما قبله و الصبر عن الله جفاء وسببه قسوة القلب وغفلته عن حقوق الرب وأنشدوا :

و الصبر عنك فمذموم عواقبه و الصبر فى سائر الأشياء محمود

وفى بعض الأخبار : الفقراء الصبُبَّر هم جلساء الله يوم القيامة يقربهم منه بفضله ورحمته وجزائه ، قال تعالى : (**وجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وحَرِيراً** الإنسان 2 . وأوحى الله إلى بعض أنبيائه أنزلت بعبدى بلائى فماطلته بالإجابة فشكانى فقلت يا عبدى كيف أرحمك من شئ به أرحمك . وقال أبو على الدقاق ن الصبر حد أى غايته وثمرته ألا تعترض على التقدير فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى كإخبار صديق أو طبيب فلا ينافى الصبر ، قال تعالى فى قصة أيوب : (**إنَّا وجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أَوَّابٌ**) ص 44 . مع أنه قال : (**مَسَّنِيَ الضُّرُّ** الأنبياء 83 .

ثم قال استخرج الله منه هذه المقالة أى (**مَسَّنِيَ الضُّرُّ** لتكون متنفسا لضعفاء هذه الأمة وقال بعضهم قال تعالى (**إنَّا وجَدْنَاهُ صَابِراً**) ولم يقل صبورا أو صبارا لأنه لم تكن جميع أحواله الصبر بل كان فى بعض أحواله يستلذ البلاء ويستعذبه فلم يكن فى حال الاستلذاذ صابرا لكونه يعده نعمة فهو شاكر لذا لم يقل صبورا .

وإذا نظرنا إلى قوله : (**وأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ، ولم يصرح بقوله ارحمنى فهو فى الحقيقة لم يقل (**مَسَّنِيَ الضُّرُّ** على سبيل الشكوى لما وقع به من البلاء بل قال ذلك توطئة للصبر ولم يقل : (**وأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** طلبا لزوال البلاء بل للصبر عليه . وقال بعض العلماء ما كنا نعد إيمان من لم يؤذ فيتحمل الأذى ويصبر عليه إيمانا وقد فعل الله ذلك بالمؤمنين اختبارا وأخبر أن ذلك ليس من عذابا وإنما هو فتنة لمن أراد فتنته وبلاؤه من الناس فصار ذلك فتنة عليهم وابتلاء لهم وصار رحمة للمؤذى وخير ، قال تعالى : (**ومِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ**) العنكبوت 10 .

يعنى فتنة الله به كعذاب الله تعالى يعنى إياه أى ليس ذلك عذابا منه إنما هو رحمة باطنة فهو كقوله تعالى :(**وأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كلاَّ**) الفجر آية 16 ، 17 . أى لم أهنك بالفقر كما لم أكرم الآخر بالإكرام والتنعيم وعلى معنى هذا خاطب نبيه ﷺ بالصبر الذى أمره به فقال تعالى : (**واذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ** ص آية 17 . فسلاه به وفضله عليه : قوت القلوب ، ص 344 .

وروى شهرين حوشب عن أبى أمامة الباهلى عن النبى ﷺ قال : من فضل ل ما أوتيتم ا يقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار ولأن أصبر على مثل ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافينى كل امء منكم بمثل عمل جميعكم ولكنى أخاف أن تفتح ع ا م الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ (**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) النحل 96 .

الصبر من أفضل المقامات

قال تعالى : (**أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا** القصص 54 . وقال : (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** الزمر 10 . ضاعف أجر الصابرين على كل عمل ثم رفع جزاء الصبر فوق كل جزاء فجعله بلا نهاية ولا حد فدل ذلك على أنه أفضل المقامات وجمع للصابرين ثلاثا فرقها على جمل أهل العبادات : الصلاة والرحمة والهدى بعد البشارة فى الآخرة والعقبى فقال تعالى : (**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**) البقرة 157 .

وكان عمر يقول نعم العدلان ونعمة العلاوة للصابرين يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الهدى ، والعلاوة ما يعلى به فوق الحملين على البعير فيكون كعدل الثالث وأخبر الله تعالى أنه مع الصابرين ومن كان الله معه فلن يغلب كما أن من كان معه علا ، (**وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** الأنفال آية 46 . وقال تعالى : (**أَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ** محمد 35 .

وفى الخبر يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر ؟ فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله كما أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لأضعفن لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين .

وقيل لسفيان الثورى ما أفضل الأعمال : قال الصبر عند الابتلاء ولذا شرفه الله بأن أضافه لنفسه بعد أن أمر به قال تعالى : (**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ** النحل 127 .

وقال تعالى : (**ولِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** المدثر 7 . وقال بعض العلما : ليس شئ أفضل من الصبر د ذكره الله فى كتابه فى نيف وتسعين موضعا .

وقال على : الصبر على أربع دعائم .. على الشوق ، والشفقة ، والزهد والترقب فمن أشفق من النار رجع عن المحرمات ومن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات ، فجعل هذه المقامات أركان الصبر لأنه توجد عنه وتحتاج إليه فى جميعها وجعل الزهد أحد أركانه وقد جعل الله الصبر حال التقوى ورفع المتقين فى الإكرام درجات فقال :

(**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ ويَصْبِرْ** يوسف 90 . وقال تعالى :(**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) الحجرات 3 . وهو مقام أولو العزم من الرسل (**ا اصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُل** الأحقاف 35 . وقال تعالى : (**واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ**) الطور 48 .

إن الشكر داخل فى الصبر والصبر جامع للشكر لأن من صبر ألا يعصى الله بنعمه فقد شكرها ومن أطاع الله فصبر نفسه على طاعته فقد شكر نعمته ، وقد سئل الجنيد عن غنى شاكر وفقير صابر أيهما أفضل ؟ فقال : ليس مدح الغنى للوجود ولا مدح الفقير للعدم ، إنما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذها ، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تؤلم صفته وتقبضها وتزعجها فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشروط ما عليهما كان الذى آ ل مَ صفته وأزعجها أتم حالا ممن متع صفته ونعمها : قوت القلوب ، ـ الصبر صـ 355 .

ويقال من علامة اليقين تسليم القضاء بحسن الصبر والرضا وهو مقام العارفين ، عن أبى سعيد الخدرى : جلست فى عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستتر ببعض من العرى وقارئ يقرأ علينا إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا فلما قام رسول الله سكت القارئ فسلم ثم قال : ما كنتم تصنعون قال و كنا نستمع إلى كتاب الله فقال الحمد لله الذى جعل من أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم ، قال فجلس وسطنا ليعدل بنفسه ﻓ ﺭ ﺍ ثم قال بيده هكذا فتد وا وبرزت وجوههم له فقال أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين النور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة :

و داود .

المراد بالفقراء هم الصالحون الصابرون وبالأغنياء الصالحون الشاكرون المؤدون حقوق أموالهم بعد تحصيلها مما أحل الله لهم فإنهم يتؤ ون فى العرصات للحساب من أين حصلوا المال وفى أين صرفوه فى الم ل وذلك دل على أن حظ الفقراء فى القيامة أكثر من حظ الأغنياء لأنهم وجدوا لذة وراحة فى الدنيا ولذلك حالهم فى الجنة أعلى وأغلى لقوله عليه الصلاة والسلام : أجوعكم فى الدنيا أشبعكم فى الآخرة . وهذا الحديث نص على أن الفقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر المرقاة ، جـ صر ٦ .

والأحاديث فى فضل الفقراء كثيرة لا نهاية لها ونذكر بعضا منها للتبرك بذكره م وهى : عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره مسلم .

والمعنى لا يدخله أحد فى بيت ولا يوقفه على بابه احتقارا له وذلك لأن الله أراد ستر حاله عن الخلق ولئلا يحدث له استئناس بهم فيحفظه من الوقوف على أبوابهم وأكل طعامهم فلا يقف إلا على باب مولاه ولا يسأل سواه وهذا من كمال غناه وليس معناه أنه يأتى أبواب أهل الدنيا فيطردونه ويدفعونه فإن الأولياء محفظون عر هذا ، عن مصعب بن سعد قال : رأى سعد أن له فضلا على من دونه فقال رسول الله ﷺ هل تتصرون وترزقون إلا بضعفائكم البخارى .

ببركة وجود ضعفائكم ووجود فقرائكم فهم بمنزلة الأقطاب والأوتاد لثبات العباد والبلاد وحاصله أنما جعل النصر على الأعداء وقدر توسيع الرزق على الأغنياء ببركة الفقراء فأكرموهم ولا تتكبروا عليهم فإنهم أهل سلوك المحبة على أضيق المحجة و لوك الجنة فى أعلى مراتب المعزة مرقاة المفاتيح ، ـ (ص) .

وعن عبد الله بن عمرو قال ، قال رسول الله ﷺ : إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفا . مسلم . وذلك لما فاتهم من التنعم فى الدنيا (**لُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ**) الحاقة 24 .

عن سهل بن سعد قال مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل جالس عنده ما رأيك فى هذا ؟ فقال الرجل : من أشراف الناس هذا والله حرى إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع قال فسكت رسول الله ﷺ ، ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ ما رأيك فى

هذا ؟ فقال يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرى إن خطب أن لا ينكح وإن شفع ألا يشفع وإن قال أن لا يسمع لقوله ، فقال رسول الله ﷺ هذا خير من ملء الأرض مثل هذا متفق عليه .

وذلك أن الفقير لصفاء قلبه أقرب إلى قبول أمر ربه والوصول إلى مرتبة حبه بخلاف الأغنياء الأغبياء فإن لهم الطغيان والاستغناء والتكبر والخيلاء ، قال تعالى :

(**سأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ**) الأعراف 146 .

وقوله هذا خير المفاضلة تدل على أنه مسلم إذ لا مفاضلة بين الكفار وأهل الإسلام لأنه لا خير فى كفار الأنام لذا قال بعض العلماء أن من قال النصرانى خير من اليهودى يخشى عليه الكفر إذا أثبت الخير فيمن لا خير فيهم ، وإنما لم يجزم بكفره لأنه قد يقصد بالخير أنه أقرب إلى الحق ولذا قال تعالى :

(**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى**) المائدة 82 .

وعن عمر قال ، دخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش أثر الرمال بجنبه متكئا على وسادة من أدم حشوها ليف ، قلت يا رسول الله ادع الله فليوسع على أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله فقال أو فى هذا أنت يا ابن الخطاب استفهام إنكارى) أولئك عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا وفى رواية أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة متفق عليه .

وقال تعالى : (**ويَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا واسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ**) الأحقاف 20 .

وعن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم . الترمذى . والجمع بين هذا الحديث وحديث الأربعين أن المراد فى الحديث الأول أغنياء المهاجرين أى يسبق فقراء المهاجرين إلى الجنة بأربعين خريفا والحديث الثانى الأغنياء الذين ليسوا من المهاجرين ، وعن أنس أن النبى ﷺ قال : اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين ، فقالت عائشة لم يا

رسول الله ؟ قال إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا ، يا عائشة لا تردى المسكين ولو بشق تمرة ، يا عائشسة أحبى المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة : الترمذى وابن ماجة والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان .

وفى هذا الحديث تفضيل للفقير الصابر على الغنى الشاكر وتعليم للأمة ليعرفوا فضل الفقراء فيحبوهم ويجالسوهم لينالوا بركاتهم ، وفيه تسلية للمساكين وتنبيه على علو درجاتهم ، والأحاديث فى هذا كثيرة ، وعن عائشة قالت : خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز البُر ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه لأهله . وعنها قالت : دخلت علىَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش النبى ﷺ عباءة مثنية فرجعت إلى منزلها فبعثت إلىَّ بفراش حشوه الصوف ، فدخل علىَّ رسول الله ﷺ فقال : ما هذا ؟ فقلت : فلانة الأنصارية دخلت علىَّ فرأت فراشك فبعثت إلىَّ بهذا . فقال : رديه ، فلم أرده وأعجبنى أن يكون فى بيتى حتى قال لى ذلك ثلاث مرات ، فقال يا عائشة رديه فوالله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة فرددته أحمد .

ولم يكن الله ليختار لرسوله إلا الأفضل ، هذا مع أنه لو أخذ الدنيا لأنفقها كلها فى مرضاة الله ولكن شكره بها فوق شكر جميع العاملين . وسئل ابن تيمية عن هذه المسألة فقال : قد تنازع كثير من المتأخرين فى الغنى الشاكر والفقير الصابر أيهما الأفضل ؟ فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ، ورجح هذا طائفة أخرى من العلماء والعباد . وحكى عن الإمام أحمد روايتان وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عن أحد منهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر ، وقد قالت طائفة ثالثة ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى فأيهما أعظم إيمانا وتقوى كان أفضل فإن استويا فى ذلك استويا فى الفضل .

الصبر ضرورة لازمة

و الصبر ضرورة ملحة من ضرورات الحياة لا يستغنى عنه المؤمن ، ويجب أن يوطن نفسه عليه ويتحلى به فى معاشه ومعاده بل فى حياته كلها وفى جميع مجالاته فى عبادته مع ربه (**ربُّ السَّمَوَاتِ و الأَرْضِ ومَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ واصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ ت[illegible]لَمُ لَهُ سَمِياً** مريم 65 .. فى مخالطة الناس (**وجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً** الفرقان 20 .. فى ميدان الجهاد والقتال مع الأعداء (**ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا**

لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وأَطِيعُوا اللَّهَ ورَسُولَهُ ولاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ واصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) الأنفال 45 ، 46

ففى الثبات والصبر مع صدق الإخلاص وطاعة الله ورسوله والوقوف صفا واحدا يتحقق النصر .. فى مجالات البحث العلمى نرى أن الصبر هو عدة العلماء والباحثين به يستنبطون الأحكام من النصوص ويستخرجون القوانين من النظريات ، فيهتدون إلى عظيم صنع الله فى كونه وخلقه (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**) لقمان 31 .

فى مجال الدعوة يحتاجه الداعون فى دعواتهم لكى يكتب لهم النجاح وإلا عمها الفشل والبوار (**ولاَ تَسْتَوِي الحَسَنَةُ ولاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ ولِيٌّ حَمِيمٌ * ومَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ومَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**) فصلت 34 ، 35 . فالدعاة يتحلون بصفة الصبر التى أمر الله بها حبيبه ومصطفاه (**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ولاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ**) الأحقاف 35 والإسلام يذم الاستعجال وينهى عنه ويمدح الأناة ويأمر بها ويدعو إلى التؤدة والسكينة قال تعالى : (**لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**) القيامة 16 : 18 ، وقال تعالى : (**ولاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وحْيُهُ وقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**) طه 114 ، وعن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا البخارى ومسلم . وعن سهل الساعدى أن النبى ﷺ قال : الأناة من الله والعجلة من الشيطان الترمذى . وعن عبد الله بن سرجس أن النبى ﷺ قال : السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربع وعشرين جزء من النبوة . الترمذى . وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : لأشج عبد القيس إن فيك لخصلتين يحبهما الله . مسلم والحليم هو الذى لا يستفزه الغضب ولا يتسرع بالعقوبة وهو فرع من فروع الصبر ، قال رسول الله ﷺ : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب . البخارى ومسلم . ومن أسماء الله الحليم ومعناه الذى لا يستخفه عصيان العصاة وقيل الذى لا يعجل بالإنتقام من

المجرمين ويفتح لهم باب التوبة والمغفرة ، قال تعالى : (**وكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً**) الأحزاب 51 .

عن ابن مسعود قال : لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناسا فى القسمة فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عيينة بن ح صر مثل ذلك وأعطى ناسا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ فى القسمة فقال رجل والله إن هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد فيها وجه الله فقلت والله لأخبرن رسول الله فأتيته فأخبرته بما قال فتغير وجهه حتى كان كالصرف ثم قال فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله ثم قال يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر فقلت لاجرم لا أرفع إليه بعدها حديثا . البخارى ومسلم .. فى مجال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قال تعالى : (**نَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ وإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى ويَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ والْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** النحل 90

قال صاحب القوت : ومن الصبر كف الأذى عن الخلق وهو مقام العادلين ، يدخل فى قوله تعالى : (**نَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ** . ثم احتمال الأذى من الخلق وهو مقام المحسنين يدخل فى قوله تعالى **الإِحْسَانِ** ، ومن الصبر الصبر على الإنفاق وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم الأقرب فالأقرب ، وهذا مقام المقربين يدخل فى قوله تعالى (**وإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى** و الصبر على المنكر وهو ما أنكره العلماء ، و الصبر عن البغى وهو التطاول والغلو ومجاوزة الحد .. : انتهى بتصرف .

وهذه الآية جامعة لمعنى الصبر وهو قطب الإيمان .. ثلاث منها الصبر على العدل والإحسان والإعطاء ، وثلاث منها .. الصبر عن الفحشاء والمنكر والبغى . وكان ابن مسعود يقول : هذه الآية أجمع آية فى كتاب الله لأمر ونهى : إتحاف السادة المتقين ، ـ 1 ص 45 . وهو يحتاج إليه قبل الع مل ومعه وبعده ، يحتاج فى أول العمل أن يصبر على تصحيح النية والعزم عليها ، قال رسول الله ﷺ : إنما الأعمال بالنيات و كل امرئ ما نوى . (**ومَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**) البينة آية 5 . ولأن الله قدم الصبر على العمل (**إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ** هود 11 . وفى أثناء العمل (**ونِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ**) آل عمران 136 . والصبر

بعد العمل هو كتمه وعدم التظاهر به ليخلص من السمعة والعجب فيكمل ثوابه قال تعالى : (**أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ ولا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ** محمد 33 .

في مجال الصبر على العوافى وهو أن لا يجريها فى مخالفة ومنه الصبر على الغنى أن لا يبذل ماله فى الهوى و الصبر على النعمة أن لا يستعين بها على معصية . وكان سهل يقول الصبر على العوافى أشد من الصبر على البلاء . وقال ابن عوف : بلينا بالضراء فصبرنا ، وبلينا بالسراء فلم نصبر : الطبرانى .

لذا حذرنا الله من فتنة المال والزوج والولد (**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ ولاَ أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** المنافقون 9 . و قال تعالى : (**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وأَوْلادِكُمْ عَدُواً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ** التغابن 14 . وقال : الولد مبخلة مجبنة مجهلة : العسكرى والحاكم فى صحيحه . فى مجال تحمل الأذى وعدم طلب المكافأة ، قال تعالى : (**ولَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ** إبراهيم 12 .

و قال تعالى : (**واصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولونَ واهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً** المزمل 10 .

و قال تعالى : (**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وأَنفُسِكُمْ ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ومِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وإِن تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**) آل عمران 186 .

ففى أول الآية إشارة إلى المقام الثانى من مقامات الرضا ، وهو صبر النفس على أحكام البلاء ، وفى السياق الذى يليه إشارة إلى مقام أول الرضا وهو الصبر على الأذى وفى أخره قرن التقوى بالصبر ، والتقوى جماع كل خير ، كما أن الصبر داخل فى كل بر ، فمن جمعهما أوتى عزائم الأمور وكان من المحسنين الصابرين عن الأذى ، والمكافأة (**إِنَّهُ مَن يَتَّقِ ويَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ** يوسف 90 .

من أجل هذا مدح الله العافين عن حقوقهم فقال :

(**وإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ولَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**) النحل 126 . و قال تعالى : (**ولَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ**) الشورى 41 . و قال تعالى : (**ولَمَن صَبَرَ وغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**) الشورى 43 .. فالأول عنى به المكافأة والانتصار بالحق من العدل ، والعدل حسن ،

والثانى هو الصبر والعفو من الإحسان ، والفضل وهو أحسن ومن ذلك قوله تعالى :
(**لَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** الزمر 8 . واستماع القول هو العدل واتباع الأحسن هو العفو ، وفيه المدح بالهداية والعقل وهذا مقام المحسنين . و قال تعالى :
(**فبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**)
آل عمران 59 . و قال تعالى :
(**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * لَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**)
آل عمران 33 ، 34 .

وعن أبى كبشة الأنمارى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه ، قال ما نقص مال عبد من صدقة قط ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزا ، فاعفوا يعزكم الله ، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها . أحمد والترمذى . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ : إذا جمع الله الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل ؟ قال : فيقوم أناس وهم يسير فينطلقون سراعا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون إنا نراكم سراعا إلى الجنة فمن أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الفضل ، فيقولون : وما فضلكم فيقولون : كنا إذا ظلمنا صبرنا وإذا أسئ إلينا حلمنا فيقال لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .
الأصبهانى .
من كل هذا يتضح لنا أن الصبر ضرورة لازمة لنيل الدرجات العلا فى الدنيا والآخرة .

حقيقة الصبر لله

قال أبو محمد الجريرى : الصبر أن لا تفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما ، والتصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة ، وأنشد بعضهم :

صبرت ولم أطلع هواك على صبرى   وأخفيت ما بى منك عن موضع الصبر
مخافة أن يشكو ضميرى صبابتى   إلى دمعتى سرا فتجرى ولا أدرى

وقيل : الصبر .. المقام على البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية ، ومعنى هذا أن لله على العبد عبوديته فى عافيته وبلائه فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر وصحبة البلاء بالصبر ، ومعنى الأبيات السابقة كما قالها العروسى : أى صبرت على حبك لله أى حبست نفسى على كتم حبى إياك وعدم إظهاره غيرة منى عليك فلم أطلع عليه كائنا من الكائنات حتى نفسى الحب الحاصل عندى مبالغة فى الإخفاء ، وأخفيت ما بى .. سترت ما أصابنى من حبك وميلى بكليتى إليك عن موضع الهوى أو عن قلبى وسرى مبالغة بعد مبالغة ، مخافة أن يشكو .. أى لأجل الخوف من طوارق غرامى وشوقى أن يغلب على فتجرى مدامعى فتتم بأشواقى قهرا ولا أدرى لعدم اختيارى ذلك ، ويسهل فهم هذه المبالغة الفائقة .. أنه بواسطة قوته على عدم إظهار آثار المحبة على شاهده حتى كأنه غير حاصل له شئ من أنواع المحبة بالغ حتى جعل هذه الحالة من قبيل الإخفاء على نفسه وضميره : نتائج الأفكار القدسية ، ـ ص 55 .

وقال الجنيد : المسير من الدنيا سهل وإن كان فيه صعوبة ما ، من حيث فراق محبوبه وذلك لكمال الجزاء وهجران الخلق فى طاعة الله شديد لمخالفته هوى النفس من حظوظها ، والمسير من النفس بعدم الإلتفات لهواها إلى الله تعالى بالعمل المحض أمره شديد للمخالفة المذكورة والصبر مع الله تعالى حتى لا يرجع الصابر إلى الإلتفات لهواها أشد ، ما ذكر .

وقال صاحب البصائر : والصواب أن الصبر لله فوق الصبر بالله وأعل ; درجة وأجل شأنا فإن الصبر لله متعلق بالإلهية ، والصبر به متعلق بربوبيته ، وما تعلق بالألوهية أكمل وأعلى مما تعلق بالربوبية ولأن الصبر له عبادة والصبر به استعانة ، والاستعانة وسيلة ، والعبادة غاية ، والغاية مرادة لنفسها ، والوسيلة مرادة لغيرها ، ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر ، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به ، وأما الصبر به فمنزلة الأنبياء والمرسلين والصديقين ولأن الصبر له فيما هو حق له محبوب مرضى لديه ، والصبر قد يكون فى ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له ، وقد يكون فى مكروه أو مباح ، فأين هذا من هذا ، وأما تسمية الصبر على أحكامه صبرا عليه فلا مشاحة فى العبارة بعد معرفة المعنى : إتحاف السادة المتقين ، ـ 1 ص 84 .

وقال عبد الله بن خفيف : الصبر على ثلاثة أقسام .. متصبر وصابر وصبار . و سه بعضهم إلى صابر ومصطبر ومتصبر وصبور وصبار .

فالصابر .. أعمها ، والمصطبر .. المكتسب الصبر المليء به ، والمتصبر .. المتكلف ، والصبور .. العظيم الصبر ، والصبار .. الكثير الصبر .

وقال الغزالي : الصبور .. الذى لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه بل ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدود ، ولا يؤخرها عن آجالها المقدرة لها تأخير متكاسل ولا يقدمها على أوقاتها تقديم مستعجل بل يودع كل شئ فى أوانه على الوجه الذى يجب أن يكون وكما ينبغى وكل ذلك من غير مقاساة داع على مضادة الإرادة وهو ملهم الصبر جميع خلقه ، فمن عرف أنه الصبور أحبه لرفقه بعباده ولم يأمن مكره فى حال من أحواله لأنه يمهل ولا يهمل والتعلق به ط لبك منه أن يستعملك استعمال الصابرين فى مواطن الصبر وهو أربعة : البلية والنعمة والطاعة والمعصية قائلا بلسان التضرع والابتهال يا صبور صبرنى على طاعتك وعن معصيتك واجعلنى صبورا فى بلواك وعافيتك والتخلق به مجاهدة تحمله فى المواطن الأربعة فإذا تكررت منه أصبحت عادة صار متخلقا بأنوار الصبور والتحقق به حتى يصير الصبر فيك سجية وطبيعة لا يتخلف حتى ينقلب إلى الرضا والتسليم فتنقلب النقمة نعمة والبلية رحمة وما ذلك على الله بعزيز تفسير الفاتحة لابن عجيبة ، ص 337 .

وقال بعض السلف : يا بن أدم لا تدرى أى النعمتين عليك أفضل نعمته فيما أعطاك أو نعمته فيما زوى عنك ؟ .

وقال عمر : لا أبالى على أى حال أصبحت أو أمسيت إن كان الغنى إن فيه الشكر وإن كان الفقر إن فيه الصبر .

وقال بعضهم : نعمته فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لى منها ، إنى رأيته أعطاها قوما فاغتروا مدارج السالكين ، ــ ص 199 .

إذا عم بالسراء أعقب شكرها	وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه نعمة	تضيق لها الأوهام والبر والبحر

أنواع الصبر بحسب متعلقه

ثلاثة أنواع صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على امتحان الله . **وقال عبد القادر الجيلانى** : لا بد للعبد من أمر يفعله ونهى يجتنبه وقدر يصبر عليه ، وهذه الثلاثة هى التى أوصى بها لقمان لابنه فى قوله : (**ا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ واصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**) لقمان 17 . كأنه يقول له يا بنى افعل المأمور واجتنب المحظور واصبر على المقدور ، **وقال علي** : الصبر ثلاثة فصـ ر على المصيبة وصبر على الطاعة وصبر على المعصية فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائمها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرض إلى منتهى الأرضين ومن صبر على المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش مرتين ، فأشدها .. الصبر عن المعصية لأن فيه أكراها لها وكما قيل أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ، لأن النفس تكره خلاف الهوى والهوى ضد الحق والله تعالى يحب الحق فصار إجبار النفس على خلاف الهوى على وفاق الحق ، لأن محبة الحق من أفضل الأعمال وهذا هو صبر الصادقين والأنبياء والمرسلين ومنه ما حصل مع يوسف عليه السلام ، قال صاحب البصائر كان صبر يوسف عليه السلام عن طاعة امرأة العزيز أكمل من صبره على إلقاء أخوته إياه فى الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختيار لا كسب له فيها ليس للعبد حيلة فيها على المصابرة وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا ومحاربة للنفس ولا سيما مع أسباب تقوى معها داعية الموافقة فإنه كان شابا وداعية الشاب إليها قوية ، وكان عـ زباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته وغريبا والغريب لا يستحى فى بلد غربته مما يستحى منه بين أصحابه وأهله ويحسبونه مملوكا والمملوك ليس وازعه كوازع الـ ر ، والمرأة جميلة وذات منصب وقد غاب الرقيب وهى الداعية له إلى نفسها والحرص على ذلك أشد الحرص ومع ذلك توعدته بالسجن إن لم يفعل ، فمع هذه الدواعى كلها صبر اختيارا وإيثارا لما عند الله وأين هذا من صبره فى الجب على ما ليس من كسبه و الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب

المحرمات فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية وذلك أنه صبره اختيارى لا اضطرارى ، والاختيارى أكمل من الاضطرارى فإن الاضطرارى يشترك فيه الناس بخلاف الاختيارى فإنه لخاصة الخاصة من الصديقين والنبيين والمرسلين .

أيهما أفضل الصبر على المأمور أم الصبر على المحظور ؟

قالوا الصبر على المحظور : لأنها محببة إلى النفس ومخالفة النفس تحتاج إلى مشقة شديدة ولأن المناهى لها أربعة دواعى تدعوا إليها .. نفس الإنسان وشيطانه وهواه ودنياه ولذلك كان باب قربان النهى مسدود وباب الأمر إنما يفعل منه المستطاع ، قال النبى ﷺ : إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، دعونى ما تركتكم إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلاف هـ على أنبيائهم ، فإذا نهيتكم عن شئ اجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه م استطعتم البخارى ومسلم .

الصبر أساس الإيمان

عن جابر أن النبى ﷺ سئل عن الإيمان فقال : الصبر والسماحة . البيهقى فى الشعب ـ صر 22. . وهذا من أكبر الأدلة على فضيلة الصبر ومنزلته وأعظمه برهانا وأوعبه لمقامات الإيمان من أولها إلى آخرها ، وأنه أقرب الطرق وأوضحها إلى مقامات المتقين والسر فى ذلك أن النفس يراد منها شيئان بذل ما أمرت به وإعطاؤه فالد ل عليه السماحة وترك ما نهيت عنه والبعد منها فالحامل عليه الصبر

قال الحسن البصرى : يعنى الصبر عن المعصية والسماحة على أداء الفرائض

وقال عمر بن الخطاب فى رسالة إلى أبى موسى الأشعرى : عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر : الصبر فى المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر على ما حرم الله تعالى واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك أن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقد جعل على رضي الله عنه : الصبر ركن من أركان الإيمان وقرنه بالجهاد والعدل والإيمان فقال بنى الإيمان على أربع دعائم : على اليقين والصبر والجهاد والعدل كما جعله بمنزلة الرأس من الجسد حيث قال : احفظوا عنى خمسا فلو ركبتم الإبل فى طلبهن لانضيتموهن قبل أن تدركوهن لا يرجوا عبد إلا ربه ولا يخاف إلا ذنبه ولا

يستحى جاهل أن يسأل عما لا يعلم ولا يستحى عالم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم و الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا إيمان لمن لا صبر له . حلية الأولياء .

وكان من دعاء النبى ﷺ ما رواه ابن عمر أن النبى ﷺ كان يقول : اللهم إنى أسألك من اليقين ما تهون به على مصائب الدنيا . الترمذى والنسائى وصححه الحاكم .

فهذا صبر مستنده حسن اليقين وأحسن الناس صبرا عند المصائب أكثرهم يقينا وأكثر الناس جزعا وسخطا فى المصائب أقلهم يقينا وأكثرهم حبا للدنيا فثبت من هذا أن الإيمان مبنى على ركنين يقين وصبر .. فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهى وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهى عنه ، وكذلك بنى الدين على أصلين الحق والصبر " وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر " والمطلوب من الإنسان أن يعمل بالحق ويحققه وينشر بين الناس ولا يمكن ذلك إلا بالصبر فكان جديرا أن يكون نصف الإيمان ، قال ابن القيم : إن الإيمان قول وعمل والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمنا كما قال عن قوم فرعون : (**وجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ** النمل 14 . وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح (**وعَاداً وثَمُودَ وقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ**) العنكبوت 38 . وقال موسى لفرعون : (**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ بَصَائِرَ**) الإسراء 102 .

فهؤلاء حصل لهم قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين وكذلك من قال بلسانه ما ليس فى قلبه لم يكن بذلك مؤمنا بل كان من المنافقين وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنا حتى يأتى بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة فيحب الله ورسوله ويوالى أولياء الله ويعادى أعداءه ويستسلم بقلبه لله وحده وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهرا وباطنا ، وإذا فعل ذلك لم يكف فى كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به فهذه الأركان الأربعة هى أركان الإيمان التى قام عليها بناؤه وهى ترجع إلى علم وعمل ويدخل فى العمل كف النفس الذى هو متعلق النهى وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر ، فصار الإيمان قسمين أحدهما الصبر والثانى متولد عنه من العلم والعمل : عدة الصابرين صر 141 .

وروى أن حاتم الأصم قدم على الإمام أحمد بن حنبل فسأله الإمام كيف التخلص إلى السلامة من الناس ؟ فأجاب حاتم بثلاثة أشياء :

أولا : تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم .

ثانيا : تقضى حقوقهم ولا تطالب بقضاء حقوقك عليهم .

ثالثا : تصبر على أذاهم ولا تؤذيهم كما أذوك ، قال الإمام أحمد إنها لصعبة ، فقال له حاتم وليتك تسلم .

باعث الدين والحاجة إليه

إن الإنسان لم يخلق ملكا كريما ولا شيطانا رجيما وإنما هو إنسان بين هذا وذاك تتازعه قوى الخير والشر فتارة تتغلب قوى الخير الروحية فيسمو ويرتفع وتارة أخرى تتغلب عليه طبيعة الشر فيخلد إلى الأرض ويتردى فى حمئة الرزيلة ومستنقع الآثام ويستحوذ عليه الشيطان من كل مكان والذى يمنعه من ذلك ويحميه هو الصبر ، الصبر على الفضائل باتباع منهج الله ومحاربة باعث الهوى والشهوة فإذا تمكن من ذلك صار من حزب الله والتحق بالملائكة المقربين وإن غلب باعث الهوى والشهوة ـ صبره ـ صار من حزب الشيطان والتحق بالبهائم السائمة ، قال قتادة بن دعامة : خلق الله الملائكة عقولا بلا شهوات وخلق البهائم شهوات بلا عقول ، وخلق الإنسان وجعل له عقلا وشهوة فمن غلب عقله شهوته فهو مع الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو كالبهائم ولم يخلق الإنسان فى ابتداء أمره ناقصا لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه فصبره فى هذه الحال بمنزلة صبر البهائم وليس له قبل تمييزه قوة الاختيار فإذا ظهرت فيه شهوة اللعب استعد لقوة الصبر الاختيارى على ضعفها فيه فإذا تعلقت به شهوة النكاح ظهرت فيه قوة الصبر وإذا تحرك سلطان العقل وقوى استعان بجيش الصبر ولكن هذا السلطان وجنده لا يستقلان بمقاومة سلطان الهوى وجنده فإن إشراق نور الهداية ي وح عليه عند أول سن التمييز وينمو على التدريج إلى سن البلوغ ، كما يبدو خيط الفجر ثم يتزايد ظهوره وكلها هداية قاصرة غير مستقلة بإدراك مصالح الآخرة ومضارها ، بل غايتها

تعـ قهـ ببعض مصالح الدنيا ومفاسدها فإذا طلعت عليها شمس النبوة والرسالة وأشرقت عليها نورها رأى فى ضوئها تفاصيل مصالح الدارين ومفاسدها فتلمح العواقب ، س لأمة الحرب وأخذ أنواع الأسلحة ووقع فى حومة الحرب بين داع الطبع والهوى وواع العقل والهدى والمنصور من نصره الله والمخذول من خذله ولا تضع الحرب أوزارها حتى ينزل فى إحدى المنزلتين ويصير إلى ما خلق له من الدارين : عدة الصابرين د . 39

ما يتقوى به باعث الدين

ويتقوى باعث الدين بإجلال الله وتعظيمه أن يعصى وهو يرى ويسمع وبمحبته فإن المحب لمن يحب مطيع ، ولا أحد يحب إلا الله لإحسانه وإنعامه فإن النفوس م جـ ولة على حب من أحسن إليها والكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه وإنما هذا فعل اللئام من الناس ، ومما يقوى باعث الدين التفكر فى الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه مخاطر الشيطان ووساوسه وقطع عنه العلائق والأسباب التى تدعوه إلى موافقة الهوى ، وسار بكليته مع الله فى الصحة والمرض والغنى والفقر والبلاء والعافية ، فإن البلاء فى الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها ، والعافية المطلقة هى الطاعات وعواقبها ، فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عُوفيت أبدانهم ، وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم ، وقال بعض أهل العلم فى الأثر المروى : إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية فإن أهل البلاء المبتلون بمعاصى الله والإعراض والغفلة عنه .. وهذا وإن كان أعظم البلاء فاللفظ يتناول أنواع المبتلين فى أبدانهم وأديانهم .

ومما يقوى باعث الدين : أن يعلم أن عليه ملائكة يحفظونه ويسجلون عليه فى صحائف مطوية تنشر يوم القيامة ، وفى هذا اليوم يكون العبد وحده **(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** الأنعام 94 . يعنى به حالة الموت .

(**وكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * قْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً**) الاسراء 3 . 14 .

و قال تعالى : (**ووُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ويَقُولُونَ يَا ويْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولاَ ا بِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ووَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً ولاَ ظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**) الكهف 49 . و قال تعالى : (**وْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ ونَسُوهُ واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) المجادلة ٦ .

قوة باعث الدين وضعفه

تنقسم قوة باعث الدين وضعفه إلى ثلاثة أحوال :

الحالة الأولى : أن يقهر باعث الدين داعى الهوى والنفس ، فلا يبقى له أثر ويكون ذلك بدوام الصبر ، وهذه درجة الصديقين المقربين الذين عناهم الله تعالى بقوله : (**الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**) فصلت 30 . واطمأنت نفوسهم لنداء الله عز وجل :

(**ا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ * رْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * ادْخُلِي ..**) الفجر 27،29 . وهؤلاء هم السابقون (**نَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**) الأنبياء 101 ، وهؤلاء اتخذوا الصبر مطية لهم فهابهم العدو . قال ابن مسعود : لقى ر ل من الإنس رجلا من الجن فصارعه فصرعه الإنس فقال مالى أراك ضئيلا ؟ فقال : إنى من بينهم لضليع ، فقال أهو عمر بن الخطاب ؟ فقال من ترونه غير (عمر) . **وقال بعض الصحابة** : إن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر **وذكر ابن أبى الدنيا** عن بعض السلف : إن شيطانا لقى شيطانا فقال : مالى أراك شحيبا ؟ فقال إن معى رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه ، وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار ، فقال الآخر لكننى مع رجل إن أكل لم يسم الله فآكل أنا وهو جميعا ، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه ، وإن دخل داره لم يسم الله فأدخل معه ، وإن جامع امرأته لم يسم الله فأجامعها . فمن اعتاد الصبر هابه عدوه ، ومن عز عليه الصبر طمع فيه عدوه ونال منه بغيته .

الحالة الثانية : إذا تغلب داعى الهوى على باعث الدين انقاد و إلى شياطين وهم الغافلون الذين غلبتهم شهوتهم وحلت بهم شقوتهم واشتروا الدنيا بالآخرة فبار ت تجارتهم

وخسروا صفقتهم وإليهم الإشارة بقوله تعالى : (**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** السجدة 13 .

وقوله تعالى :

(**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) هود 118 ، 119 ،

وأمر الله بالبعد عنهم وعدم تقديم النصح لهم :

(**فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** .) النجم 29 ، 30

الحالة الثالثة : وهم الذين تارة تتغلب عليهم طبيعة الخير وتارة تتغلب عليهم طبيعة الشر وهم الذين عناهم الله بقوله : (**خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** التوبة 102 .

وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاث مقامات : أولها .. ترك الشهوة وهذه درجة التائبين ، وثانيا .. الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين ، وثالثها .. المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم   وتأتى على قدر الكريم الكرائم

ويكبر فى عين الصغير صغيرها   وتصغر فى عين العظيم العظائم

وقال صاحب العوارف : لكل شئ جوهر وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر ، فالصبر يحرك النفس وبالحركة تلين ، والصبر جار فى الصابر مجرى الأنفاس لأنه يحتاج إلى الصبر عن كل منهى ومكروه ومذموم ظاهرا وباطنا ، والعلم يدل والصبر يقبل فلا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر ومن كان العلم سياسته فى الظاهر والباطن لا يتم له ذلك إلا إذا كان الصبر مستقره ومستودعه ، وقال ميمون بن مهران : الإيمان والتصديق والمعرفة والصبر شئ واحد ثم قال .. فمن صبر على الطمع فى الخلق أخرجه الصبر إلى الورع ومن صبر على الورع فى الدين أدخله الصبر فى الزهد ومن طمع فى التصديق الكاذب أدخله الطمع فى حب الدنيا ومن استشعر حب الدنيا أخرجه حبها من حقيقة الدين .

الصبر على المصائب

عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمر الله به إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها إلا خلف الله له خيرا منها ، قالت فلما مات أبو سلمة قلت أى المسلمين خير من أبى سلمة ، أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ، ثم إنى قلتها فأخلف الله لى رسوله فأرسل إلى رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة يخطبنى له فقلت : إن لى بنتا وأنا غيور ، فقال أما بنتها فأدعو الله أن يغنيها عنها وأدعو الله أن يذهب بالغيرة ، فتزوجت رسول الله ﷺ مسلم .

وفى رواية لأبى داود قالت ، قال رسول الله ﷺ : إذا أصابت أحدكم مصيبة فليقل إنا لله وإنا إليه راجعون .. الله م عندك أحتسب مصيبتى فأجرنى فيها وأبدلنى خيراً منها ، فلما احتضر أبو سلمة قال : اللهم اخلفنى فى أهلى خيرا منى ، فلما قبض قالت أم سلمة إنا لله وإنا إليه راجعون عند الله أحتسب مصيبتى ، فانظر عاقبة الصبر والاسترجاع ومتابع الرسول والرضاء عن الله إلى ما آلت إليه وأنالت أم سلمة نكاح أكرم الخلق على الله .

وقال الفضيل بن عياض لرجل : كم أتت عليك ؟ قال ستون سنة ، قال فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ ، فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فقال الفضيل : أتعرف تفسيره تقول إنا لله وإنا إليه راجعون ، فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع ، فليعلم أنه موقوف ، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول ، ومن علم أنه مسر ا ل فـ يعد للسؤال جوابا ، فقال الرجل : فم الحيلة ؟ قال يسيرة . قال ما هى ؟ قال : تحسن فيما بقى يـ فر لك ما مضى ، فإنك إن أسر ت فيما بقى أخذت بما مضى وما بقى .

وعن أنس : أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكى على صبى لها فقال لها : اتقى الله واصبرى ، فقالت وما تبالى بمصيبتى ، فلما ذهب قيل لها أنه رسول الله ﷺ ، فأخذها مثل الموت فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين ، فقالت يا رسول الله لم أعرف ، فقال : إنما الصبر عند أول صدمة . وفى لفظ عند الصدمة الأولى فى الصحيحين . وقوله عند الصدمة الأولى مثل قوله : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه

وقت الغضب ، فإن مفاجآت المصيبة لها روعة تزعزع القلب وتزعجه بصدمها فإن صبر للصدمة الأولى انكسر حدها وضعفت قوتها فهان عليه استدامة الصبر ، وأيضا فإن المصيبة ترد على القلب وهو غير موطن لها فتزعجه وهى الصدمة الأولى ، وأما إذا وردت عليه بعد ذلك توطن لها وعلم أنه لا بد له منها فيصر ر صبره شبيه الاضطرار ، وهذه المرأة لما علمت أن جزعها لا يجدى عليها شيئا جاءت تعتذر إلى النبى ﷺ كأنها تقول : قد صبرت ، فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى ، ويدل على هذا المعنى ما روى عن أبى هريرة قال : مر النبى ﷺ على امرأة جاثمة على قبر تبكى ، فقال لها : يا أمة الله اتقى الله واصبرى ، قالت : يا عبد الله ثكلى ، قال : يا أمة الله اتقى الله واصبرى ، قالت : يا عبد الله لو كنت مصابا عذرتنى ، قال : يا أمة الله اتقى الله واصبرى ، قالت : يا عبد الله قد أسمعت فانصرف عنى ، فمضى رسول الله ﷺ واتبعه رجل من أصحابه فوقف على المرأة فقال لها ، ما قال لك الرجل الذاهب ؟ قالت : قال لى كذا وكذا ، وأجبته بكذا ، قال : هل تعرفينه ؟ قالت : لا ، قال : ذلك رسول الله ، قال : فوثبت مسرعة نحوه حتى انتهت إليه وهى تقول : أنا أصبر يا رسول الله ، فقال : الصبر عند الصدمة الأولى .. الصبر عند الصدمة الأولى . قال أبو عبيدة معناه : أن كل ذى رزية فإن قصاراه الصبر ، ولكنه إنما يحمد على صبره عند حدة المصيبة وحرارتها : عدة الصابرين ، الصبـ 04 .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل : ما لعبدى المؤمن جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسب إلا الجنة البخارى .

عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم ، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم فيقول : ماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد الترمذى وابن حيان فى صحيحه .

عن أنس قال : اشتكى ابن لأبى طلحة فمات وأبو طلحة خارج فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئا وسجته فى جانب البيت ، فلما جاء أبو طلحة قال : كيف الغلام ؟ قالت قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح ، فظن أبو طلحة أنها صادقة ، قال :

فبات معها فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات ، فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أخبره بما كان منهما ، فقال رسول الله ﷺ : لعل الله أن يبارك لكما فى ليلتكما ، قال ابن عيينة ، فقال رجل من الأنصار : فرأيت له تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن :
البخارى .

وعن جابر أن النبى ﷺ قال : رأيتنى دخلت الجنة فإذا بالرميصاء امرأة أبى طلحة النسائى وغيره .

وعن أنس قال : مات ابن أبى طلحة من أم سليم ، فقالت لأهله : لا تحدثوا أبـ طلحة حتى أكون أنا أحدثه ، فجاء أبو طلحة فقربت إليه العشاء فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت صنع قبل ذلك فوقع بها ، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوم أعاروا عا تهم أهل بيت فطلبوا عا تهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، قالت أم سليم : فاحتسب ابنك ، قال : فغضب أبو طلحة فقال : تركتينى حتى إذا تلطخت أخبرتينى بابنى والله لا تغلبينى على الصبر فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، قال رسول الله بارك الله فى ليلتكما ، قال أنس : فقد حملت ببركة دعاء الرسول ﷺ وولدت غلاما قال أنس : قالت لى أمى يا أنس لا يرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ، قال : فانطلقت به إلى رسول الله ، فلما رآنى قال لعل أم سليم ولدت ، قلت : نعم ، قال : فمسح وجهه وسماه عبد الله بعد أن وضعه فى حجره ودعا بعجوة من عجوة المدينة فلاكها فى فيه حتى ذابت ثم قذفها فى فىّ الصبى فجعل الصبى يتلمضها فكان من أحسن شباب الأنصار وأنجبها . وأنس هو ابن أم سليم وأبو طلحة زوج أمه وعمه البخارى ومسلم .

وعن القاسم بن محمد قال : هلكت امرأة لى فآتانى محمد بن كعب القرظى يعزينى فيها ، وقال : أنه كان فى بنى إسرائيل رجل فقيه عابد عالم مجتهد وكان له امرأة وكان بها معجبا فماتت ، فوجد عليها وجدا شديدا حتى خلا فى بيت وأغلق على نفسه واحتجب عن الناس فلم يكن يدخل عليه أحد ثم إن امرأة من بنى إسرائيل سمعت به فجاءته فقالت : إن لى إليه حاجة أستفتيه فيها ليس يجزينى إلا أن أشافهه به ، فذهب الناس ولزمت الباب فأخبر فأذن لها ، فقا ت : أستفتيك فى أمر قال : وما هو ؟ قالت :

ى استعرت من جارة حليا فكنت ألبسها وأعيره زمانا ثم إنها أرسلت إلى فيه أفأرده إليها ؟ قال : نعم ، قالت : والله إنه مكث عندى زمانا ، فقال ذلك أحق بردك إياه ، فقالت له : يرحمك الله تأسف على ما أعار ك الله ثم أخذه منك وهو أحق به منك ؟ فأبصر ما كان فيه ونفعه الله بقولها الموطأ .

وقال قتاد : قال لقمان وسأله رجل : أى شئ خير ؟ قال : صبر لا يتبعه أذى ، قال : فأى الناس خير ؟ قال : الذى يرضى بما أوتى ، قال : فأى الناس أعلم ؟ قال : الذى يأخذ من علم الناس إلى علمه ، قيل فما خير الكنز من المال أو من العلم ؟ قال : سبحان الله ، بل المؤمن العالم الذى إن ابتغى عنده خير وجد وإن لم يكن عنده كف نفسه وبحسب المؤمن أن يكف نفسه أحمد .

صبر العظماء

عروة ابن الزبير : وقعت فى رجله الأكلة فقطعها من الساق ولم يمسه أحد وهو شيخ كبير ولم يدع ورده تلك الليلة ، إلا أنه قال : لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، وكان يتمثل بهذه الآبيات :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة	ولا نقلتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها	ولا دلنى رأ ي ى عليها ولا عقلى
وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة	من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى

وقال : اللهم إن كنت ابتليت فقد عافيت ، وإن كنت أخذت فقد أبقيت ، أخذت عضوا وأبقيت أعضاء ، وأخذت ابنا وأبقيت أبناء .

وفى رواية قدم عروة على الوليد بن عبد الملك ، ومعه ابنه محمد وكان من أحسن الناس وجها ، فدخل يوما على الوليد فى ثياب وشى وله غديرتان وهو يضرب بيده ، فقال الوليد هكذا تكون فتيان قريش ، فه ه فخرج من عنده متوسنا نعسانا ، فوقع فى اصطبل الدواب فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات ، ثم إن الأكلة وقعت فى رجل عروة ، فبعث إليه الوليد الأطباء فقالوا إن لم نقطعها سرت إلى باقى الجسد فتهلك ، فعزم على قطعها فنشروها بالمنشار ، فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة

فغشى عليه ، ثم أفاق والعرق ينحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر ، فأخذها وجعل يقبلها فى يده ثم قال : أما والذى حملنى عليك إنه ليعلم أنى ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضى الله ، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت فى قطعة ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين ، ما قدم من عند الوليد ، المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه فجعل يقول ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبنا ولم زد عليه ، ثم قال : لا أدخل المدينة إنما أنا بها بين شامت بنكبة أو حاسد بنعمة فمضى إلى قصر بالعقيق فأقام هناك ، فلما دخل قصره قال عيسى بن طلحة ، لا أبا لشانئك أرينى هذه المصيبة التى نعزيك فيها ، فكشف له عن ركبته فقال له عيسى : أما والله ما كنا نعُ ك للصراع قد أبقى الله أكثرك ، عقلك ولسانك وبصرك و ك وإحدى رجليك ، فقال له يا عيسى : ما عزانى أحد بمثل ما عزيتنى به ، ولما أرادوا قطع رجله قالوا له : لو سقيناك شيئا كى لا تشعر بالوجع قال : إنما ابتلانى ليرى صبرى أذ عارض أمره ، وقال ابن حجر فى الزواجر : وقدم على الوليد فى تلك الليلة رجل أعمى من بنى عبس فسأله عن عينه فقال : بت ليلة فى بطن واد ولم أعلم فى الأرض عبسيا يزيد ماله على مالى فطرقنا سر يل فذهب ما كان لى من مال وأهل وولد وكان البعير صعبا فذ اتبعته ، فما جاوزت الصبى إلا يسيرا حتى سمعت صوته فرجعت فإذا رأس الصبى فى بطنه فقتله ثم أتبعت البعير لآخذه فنفحنى برجله فأصاب وجهى فحطمه وأذهب عينى فأصبحت لا أهل لى ولا مال ولا ولد ولا بعير ، فقال الوليد : انطلقوا به إلى عروة ليعلم أن فى الأرض من هو أشد منه بلا ـ الزواجر

ورأى المدينى امرأة بالبادية فى غاية الجمال فظن أن هذه نضر السرور فبينت له أنها قرينة أحزان وهموم وقالت : كان لى زوج وكان لى منه ابنان فذبح أ بو هما شد فى يوم الأضحى والصبيان يلعبان ، فقال الأكبر للأصغر أتريد أن أريك كيف ذبح أبى الشاه ؟ قال : نعم فذبحه فلما نظر إلى الدم جزع ففزع نحو الجبل فأكله الذئب ، فخرج أبوه فى طلبه ، فتاه أبوه فمات عطشا ، فأفردنى الدهر ، فقلت لها وكيف أنت و الصبر ؟ فقالت : لو دام لى لدمت له ولكنه كان جرحا فاندمل الزواجر .

وعن الشعبى أن شريحا قال : إنى لأصاب المصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات : أحمده إذا لم يكن أعظم منها ، وأحمده إذ رزقنى الصبر عليها ، وأحمده إذ وفقنى للاسترجاع لما أرجو من الثواب ، وأحمده إذ لم يجعلها فى دينى وقوله تعالى : (**وْلَئكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**) البقرة 57 . الصلوات من الله الرحمة والمغفرة وأولئك هم المهتدون ، يريد الذين اهتدوا للترجيع وقيل إلى الجنة والثواب .

الصبر على مصيبة الموت وخاصة الولد

عن أسامة بن زيد قال : أرسلت ابنة النبى ﷺ إليه أن ابنا لى احتضر فأتنا ، فأرسل يقريها السلام ، ويقول إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شئ عنده بأجل مسمى تصبر ولتحتسب ، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام معه سعد بن عبادة ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ورجال ، فرفع الصبى إلى رسول الله ﷺ فأقعده فى حجره ونفسه تقعقع كأنها شن ، قربة بالية ، ففاضت عيناه ، فقال سعد ، يا رسول الله ما هذا ؟ قال هذه رحمة جعلها الله فى قلوب من يشاء من عباده إنما يرحم الله من عباده الرحماء ـ البخارى .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم البخارى .

وعن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من مات له ثلاثة من الولد فاحتسبهم دخل الجنة ، قال : قلت يا رسول الله واثنان ؟ قال واثنان ، فقال محمود بن لبيد لجابر : والله إنى لأراكم لو قلتم واحدا قال واحد ، قال أنا والله أظن ذلك .

وقال معاوية بن قرة إن رجلا كان يأتى النبى ﷺ ومعه بنى له فقال رسول الله أتحبه ؟ أحبك الله كما أحبه ، قال ففقده رسول الله ﷺ ، فقال ما فعل فلان ؟ قالوا توفى يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ أما يسرك أنه كلما أتيت بابا من أبواب الجنة تستفتحه يسعى حتى يفتح لك ، فقال رجل : أله خاصة أم لنا كلنا؟ فقال لكم كلكم الشعب للبيهقى ـ ص 35 .

وعن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : ما تعدون الرقوب فيكم ، قالوا الرقوب الذى لا يولد له ، قال : لا ، ولكن الرقوب الذى لا يقدم من ولده شيئا : مسلم .

وعن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كان له فرطان من أمتى دخل الجنة (يعنى ولدين) قالت عائشة : بأبى أنت وأمى فمن كان له فرط ؟ قال ومن كان له فرط يا موفقة ، قالت فمن لم يكن له فرط من أمتك ؟ قال : أنا فرط أمتى لم يصابوا بمثلى : الترمذى والبيهقى .

وروى مسلم عن أبى حسان قال : قلت لأبى هريرة : حدثنا بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا قال نعم : صغارهم دعـ ميص الجنة يتلقى أحدهم أباه ، أو قال أبويه فيأخذ بثوبه أو قال بيده فلا ينتهى حتى يدخله الجنة .

وقال على للأشعث بن قيس : إنك إن صبرت إيمانا واحتسابا وألا سلوت كما تسلوا البهائم ، وكتب إلى رجل قد أصيب بمصيبة أنك قد ذهب منك ما رز ئت به فلا يذهبن عنك ما عوضت عنه وهو الأجر .

وبلغ الشافعى : أن عبد الرحمن بن مهدى مات له ابن فجزع عليه جزعا شديدا فبعث إليه الشافعى : يا أخى عز نفسك بما تعزى به غيرك ، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك ، واعلم أن أمضى المصائب فقد سرور ، وحرمان أجر ، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر ؟ فتناول حظك يا أخى إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد نأى عنك ، ألهمك الله عند المصائب صبرا ، وأحرز لنا ولك بالصبر أجرا ، وكتب إليه يقول

إنى معزيك لا أنى على ثقة   من الحياة ولكن سنة الدين
فما المعزى بباق بعد ميته   ولا المعزى ولو عاشا إلى حين

ومات ابن للإمام الشافعى ، فأنشد يقول :

وما الدهر إلا هكذا فاصطبر له   رزية مال أو فراق حبيب

وقال ابن السماك : المصيبة واحدة فإن جزع صاحبها منها صارت اثنين ، يعنى فقد المصاب وفقد الثواب .

قال العتابى :

اصبر إذا بدهتك نائبة   ما عال منقطع إلى الصبر
الصبر أولى ما اعتصمت به   ولنعم حشو جوانح الصدر

وقال على : الحلم زينة ، والتقوى كرم ، وخير المراكب مركب الصبر ، وقال : القناعة سيف لا ينبو و الصبر مطية لا تكبو وأفضل العدة الصبر على الشدة . وقال الحسن بن على : جربنا وجرب المجربون فلم نر شيئا أنقع وجدانا ولا أضر فقدانا من الصبر تداوى به الأمور ، ولا يداوى هو بغيره ، وقال بعضهم : الصبر مر لا يتجرعه إلا حر ، وقال سعيد بن حميد الكاتب :

لا تعتبن على النوائب	فالدهر يرغم كل عاتب
واصبر على حدثانه	إن الأمور لها عواقب
كم نعمة مطوية	لك بين أثناء النوائب
ومسرة قد أقبلت	من حيث تنتظر المصائب

وقال على : اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين ، وقال إن كنت جازعا على ما تفلت من يديك فاجزع على كل ما لم يصل إليك ، ووصفه الحسن البصرى فقال : كان لا يجهل ، وإن جهل عليه حلم ولا يظلم ، وإن ظلم غفر ولا يبخل ، وإن بخلت الدنيا صبر !

وقيل لأبى مسلم صاحب الدولة : بم أصبت ما أصبت ؟ قال ارتديت الصبر واتزرت بالكتمان وحالفت الحزم وخالفت الهوى ولم أجعل العدو صديقا والصديق عدوا ، وقال نهشل بن حرى :

ويوم كأن المصطلين بحره	وإن لم يكن جمرا قيام على جمر
صبرنا له حتى تجلى وإنما	تفرج أيام الكريهة بالصبر

وقال أخو بنى سليم :

فإن تسألنى كيف أنت فإننى	صبور على ريب الزمان صليب
يعز على أن ترى بى كآبة	فيشمت عاد أو يساء حبيب

الصبر على البلاء

عن سعد بن أبى وقاص قال : قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ قال الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه

صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة البخارى .

وعن ابن عباس قال : دخلنا على النبى ﷺ وهو موعوك (محموم) فقلنا : ما أشد وعكك ؟ قال : إنا معشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء تضعيفا . أحمد وابن ماجة و الحاكم . وعن عبد الله قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فوضعت يدى عليه ، فقلت : يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا ، فقال : إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم قال : قلت ذلك بأن لك أجرين ، قال : أجل ، وما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه من سيئاته كما تحط الشجرة ورقها : متفق عليه .

عن أنس أن النبى ﷺ قال : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، و الصبر عند الصدمة الأولى ، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط الترمذى .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه من ذلك الصبر إلا كان ما عاضه خيرا مما انتزع منه ، وقرأ : (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**) الزمر 10 . وسئل الفضيل بن عياض عن قوله تعالى :

(**سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ**) الرعد 24 قال : بما احتملتم من المكاره وصبرتم عن اللذات فى الدنيا . شكا رجل إلى الأحنف بن قيس وجع ضرسه : فقال الأحنف لقد ذهبت عينى منذ ثلاثين سنة فما ذكرتها لأحد .

ودخل **الفضيل بن عياض** : على ابنه وهو مريض يئن ، فقال : يا بنى إن الله أمرض فلا تئن ، قال : فصاح صيحة وغشى عليه ، قال الفضيل : فقلت : ابنى . ابنى ، فما أن حتى فارق الدنيا الشعب للبيهقى ، ـ ص 216 .

قال أبو عبد الرحمن السلمى : سمعت النصر أبادى يقول : من طلب منا مالنا أعطينا سواه وشغلناه بخدمتنا ، ومن طلبنا صببنا عليه البلاء صبا امتحانا واختبارا ، وقال : ما ادعى فيه أحد إلا أشتد عليه البلاء ، قال الله عز وجل : (**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ**) العنكبوت . 2 نتركه أن يدعى فينا ولا نطالبه بحقائقه وأى جرأة أعظم من ادعاء فان فى باق .

وقال الجنيا : فى الأمراض والأوجاع خصال أربع .. تطهير ، وتكفير ، وتذكير ، وتقييد : تطهير عن الكبائر ، وتكفير للصغائر ، وتذكير للرب ، وتقييد عن المعاصى .
قال الشاعر :

رب أمر قي ه جر أمرا نرتجيه
خفى المكروه منه ويد المحبوب فيه

عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين ، فقال انظروا ماذا يقول لعواده ، فإن هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم ، فيقول إن لعبدى على إن توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدله لحما خير من لحمه ودما خيرا من دمه ، وأن أكفر ع ، سيئاته الموطأ .

وقال وهب بن منب : لا يكون الرجل فقيها كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة ، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء ، وصاحب الرخاء ينتظر البلاء .

عن ابن مسعود قال : كنت مع رسول الله ﷺ جالسا فتبسم ، فقلنا يا رسول الله : مم تبسمت ؟ قال : تعجبا للمؤمن من جزعه من السقم ، ولو كان يعلم ما له فى السقم أحب أن يكون سقيما حتى يلقى الله ، ثم تبسم ثانيا ورفع رأسه إلى السماء ، قلنا يا رسول الله : مم تبسمت ، ورفعت رأسك إلى السماء ؟ قال : عجبت من ملكين نزلا من السماء يلتمسان عبدا مؤمنا فى مصلاه يصلى فلا يجداه ، فعرجا إلى السماء فقالا : يا رب عبدك فلان المؤمن كنا نكتب له من العمل فى يوم وليلة كذا وكذا ، فوجدناه قد حبسته فى حبالك فلم نكتب له شيئا من عمله ، فقال اكتبوا لعبدى عمله الذى كان يعمله فى يومه وليلته ، ولا تنقصوا منه شيئا فعلى أجر ما حبسته ، وله أجر ما كان يعمل - ابن أبى الدنيا .

عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا البخارى وأبو داود .

وذكر ابن أبى الدنيا ، أن رجلا قال : يا رسول الله : ما الأسقام ؟ قال أوما سقمت قط ؟ قال : لا ، فقال قم عنا فلست مؤمنا .

عن ابن سيرين ، عن أبى الزيات القشيرى قال : دخلنا على أبى الدرداء نعوده فدخل علينا إعرابى ، فقال : ما لأميركم وأبو الدرداء يومئذ أمير ، قلنا : هو شاك ، قال :

والله ما اشتكيت قط ، أو قال : ما صدعت قط ، فقال أبو الدرداء : أخرجوه عنى ليمت بخطاياه ، ما أحب أن لى بكل وصب وصبته حمر النعم وأن وصب المؤمن يكفر خطايا

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لإعرابى : هل أخذ ك أم ملدم ، قال : وما أم ملدم ؟ قال : حر بين الجلد واللحم ، قال : فما وجدت هذا قط ، فلما ولى قال رسول الله : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا البيهقى .

وعن أنس : أن امرأة أتت النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله : بنت كذا وكذا فذكرت حسنها وجمالها فآثرتك بها ، قال : قد قبلها ، فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشتك شيئا قط ، قال لا حاجة لى فى بنتك .

عن أبى عثمان أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ : ما رزئت فى مال ولا ولد ؟ قال : لا ، قال : إن أبغض عباد الله إلى الله العفريت النفريت الذى لم يرزأ فى مال ولا ولد ، قال فبايعه بأطراف أصابعه : الشعب للبيهقى ، ـ ص 77 .

البلايا مكفرات الذنوب

عن أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى ﷺ قال : ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه البخارى و مسلم .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة الترمذى .

وفى رواية عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها الصحيحين .

عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله يقول : إن الله ليبتلى عبده بالسقم حتى يكفر ذلك عنه كل ذنب الحاكم وقال صحيح على شرطهما .

عن عطاء بن أبى رباح قال : قال لى العباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ فقلت : بلى ، قال هذه المرأة السوداء ، أتت النبى ﷺ ، فقالت : إنى أصرع وإنى أتكشف فادع لى ، قال : إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك ، فقالت أصبر ، فقالت : إنى أتكشف فادع الله لى أن لا أتكشف فدعا لها . البخارى و مسلم .

عن أبى بكر الصديق ، أنه قال : يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية : **(ليْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِياًّ وَلاَ نَصِيراً)** النساء 123 . وكل شئ عملناه جزينا به ؟ فقال : غفر الله لك يا أبا بكر ، ألست تمرض ؟ ألست تحزن ؟ ألست يصيبك اللأواء (الضيق) ؟ قال : فقلت بلى قال : هو ما تجزون به . ابن حيان فى صحيحه .

عن رجل من بنى سليم قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى يبتلى العبد فيما أعطاه فإن رضى بما قسم الله له بورك له فيه ووسعه ، وإن لم يرض لم يبارك له ولم يزد على ما كتب له . صحيح . قال المناوى : وهذا الداء قد كثر فى أبناء الدنيا فترى أحدهم يحتقر ما قسم له ويقلله ويقبحه ويعظم ما بيد غيره ويكثره ويحسنه ويجهد فى المزيد دائما ، فيذهب عمره وتنحل قواه ويهرم من كثرة الهم والتعب فيتعب بدنه ويفرق جبينه وتسود صفحته من كثرة الآثام بسبب الانهماك فى التحصيل مع أنه لا ينال إلا المقسوم فخرج من الدنيا مفلسا لا هو شاكر ولا نال ما طلب . فيض القدير ج ـ 2 ص ـ 281 .

الطاعات ترفع الدرجات والمصائب تحط السيئات

قال معمر الأزدى : كنا إذا سمعنا من ابن مسعود شيئا نكرهه سكتنا حتى يفسره لنا فقال لنا ذات يوم : ألا إن السقم لا يكتب له أجر فساءنا ذلك وكبر علينا فقال ولكن يكفر به الخطيئة فسرنا ذلك وأعجبنا وهذا من كمال فقهه ﷺ ، فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية ومما تولد منها كما ذكر الله النوعية فى آخر سورة التوبة فى قوله فى المباشر من الإنفاق وقطع الوادى إلا كتب لهم وفى المتولد من إصابة الظمأ والنصب والمخمصة فى سبيله وعظ الكفار إلا كتب لهم به عمل صالح فالثواب مرتبط بهذين النوعين ، وأما الأسقام والمصائب فإن ثوابها تكفير الخطايا ، ولهذا قال تعالى :
(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ) الشورى 30 .

والنبى ﷺ إنما قال فى المصائب : كفر الله بها خطاياه فالطاعات ترفع الدرجات والمصائب تحط السيئات ولهذا قال ﷺ : من يرد الله به خيرا يصب منه البخارى . وقال : من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين البخارى . فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياه : عدة الصابرين صر 14 .

قال العارف الجيلانى : قد يقرب الله عبده المؤمن ويجتبيه ويفتح له قبالة عين قلبه باب الرحمة والمنة والإنعام فيرى بقلبه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من مطالعة الغيوب فى ملك السماء والأرض ومن تقريب وكلام لطيف ووعد جميل ودلال وإدلال ، وإجابة دعاء وتصديق وعد ، وكلمات حكمة تومى إلى قلبه من بعد ، فتظهر على لسانه ويسبغ على قلبه نعمه الدنيوية والدينية ويديم ذلك عليه برهة حتى إذا اطمأن لذلك واغتربه وظن دوامه فتح عليه بابا من البلاء والمحن فى نفسه وأهله وماله وقلبه ، فينقطع كل ما كان فيه من نعيم فيبقى متحيرا حزينا مكسورا مقطوعا به ، إن نظر إلى ظاهره رأى ما يسوءه أو إلى قلبه وباطنه وجد ما يحزنه وإن سأل الله كشف ما به من البلاء لم ترج إجابته ، وإن طلب وعدا جميلا لم يجد سريعا وإن وعد بشئ لم يصل إليه وإن رأى رؤياه لم يظفر بتعبيرها وتصديقها ، وإن رام الرجوع إلى الخلق لم يجد إليه سبيلا وإن عمل رخصة تسارع إليه العقاب وسلطان أيدى الخلائق على جسمه وألسنتهم على عرضه وإن طلب الإقالة لم يقل أو الرضا أو التنعم بما هو فيه من البلاء لم يعط ، وحينئذ تأخذ النفس فى الذوبان والهوى فى الزوال والأمان والإرادات فى الرحيل والأكوان كلها فى التلاشى ويد ذلك عليه مدة حتى تفنى جميع أوصافه البشرية فإذا سار روحا مجردة تعطف الحق عليه بسمع النداء من باطنه : (**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ** ص 42 . وحينئذ يمطر الله على قلبه ماء رحمته ورأفته ولطفه ومنته ويزيل عنه سائر البلاء ويطلق ألسنة خلقه بمدحه والثناء عليه ويذل له الرقاب وتسخر له الملوك والأرباب .

: فيض القدير - - ص 280 .

هل لنا أن نسأل الله البلاء

مما تقدم يتبين لنا أن الله قد أجزل المثوبة لأهل البلاء ووعدهم بمحو السيئات وتكفير الخطايا وإفاضة رضوانه عليهم .. فهل لنا أن نسأله الأمراض والأوجاع

والأسقام وانتشار الجراثيم والأوبئة لتفتك بالعباد والبلاد ، وتعم الأرجاء والأكوان ، إن هذا تفكير من لا عقل له ولا فهم لديه فهو إلى العته والجنون أقرب ، وإنما المعنى المقصود من هذا : أن يستعلى المؤمن بإيمانه على المصائب والآلام وأن لا يضعف أمام الشدائد فتنهار قواه ، ويهى عزمه ويقينه ، بل عليه أن يتحلى برباطة الجأش وقوة اليقين ولا يتزعزع ولا يتزحزح أمام ا مدلـ مات ، ولا يفقد صفاء دينه أمام النكبات ولا يهون أمام الملمات إذا فقد صفاء دنياه وليعلم أنه ليس أوحديا فى هذه المصائب ولكن له قدوة فى من سبقه من عظماء الرجال وتحملهم للصعاب والمشاق

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وعن صهيب الرومى قال : قال رسول الله ﷺ : عجبا لأمر المؤمن إن أمره له كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له مسلم .

إنه مأجور فى صحته لطاعته لله ومأجور فى مرضه لصبره لقضاء الله فإذا كانت العافية ففيها الطاعة ، وإن كان المرض ففيه الصبر من أجل هذا كان طلب العافية ، قال يحيى بن معاذ : إلهى تبرنى بنعمائك فإنك لطيف ولا تبرنى ببلواك فإنى ضعيف وكان ﷺ يقول فى دعائه : عيل صبرى وضاق صدرى واشتدت فاقتى إلى مغ رتك وعظم رجائى لرحمتك ، ألححت فى الدعاء اضطرارا وأنت تجيبنى اختيارا ، إما ترحمنى محتاجا إليك ومعتمدا فى حاجتى عليك ليس لى إله سواك فألتجئ إليه ولا لك شريك فأعتمد عليه ، بنور جلال وجهك أسألك إلا عجلت فرجى يا أرحم الراحمين ، وقال إبراهيم بن أشعث ، سمعت الفضيل بن عياض يقول

(ولَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنكُمْ و الصَّابِرِينَ ونَبْلُوَ أَخْبَارَ‌كُمْ) محمد 31 .

قال فجعل يردد هذه الآية وهو يقول : إنك إن بل ت أخبا ا هتكت أستارنا إنك إن بلوت أخبارنا فضحتنا ، وروى الديلمى عن أبى هريرة أوحى الله ى أخى عزير : إن أصبتك مصيبة فلا تشكنى إلى خلقى فقد أصابنى منك مصائب كثيرة ولم أشكك إلى ملائكتى ، يا عزير اعصنى بقدر طاقتك على عذابى ، سلنى حوائجك على مقدار عملك

لى ، ولا تأمن من مكرى حتى تدخل جـ ى ، فاهتز عزير بكى ، فأوحى الله إليه لا تبك يا عزير فإن عصيتنى بجهلك غفرت لك بحلمى لأنى كريم لا أعجل بالعقوبة على عبادى وأنا أرحم الراحمين ، وقد أمرنا النبى ﷺ أن نطلب العفو وعلمنا كيفيته ، فقد روى عنه أنه كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا والآخرة ، وفى رواية أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة أحمد .

بسم الله الرحمن الرحيم

الشكر

وهو من أفضل المقامات وأجلها عند الله . . لاندراج كثير من المقامات فيه لذا كما قال ابن القيم : أمر الله به ونهى عن ضده وأثنى على أهله ووصف به خواص خلقه وجعله غاية خلقه وأمره ووعد أهله بأحسن جزائه وجعله سبباً للمزيد من فضله وحارساً وحافظاً لنعمته ، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته واشتق لهم اسماً من أسمائه ــ فإنه سبحانه هو الشكور : وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً . . وهو غاية الرب من عبده ؛ وأهله هم القليل من عباده قال تعالى : (ا **أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن ‌نتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**) البقر 72 .

وقال عن خليله إبراهيم : (**نَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِّلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شاكِراً لأَنْعُمِهِ** . .) النحل 21 .

وقال عن نوح : (**إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً**) الإسراء 3 . وقال : (**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ شْكُرُونَ**) النحل 78

وقال : (**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**) إبراهيم 7 .

وقال : (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**) لقمان 31 .

وسمى نفسه : شاكراً . . وشكوراً : وسمى الشاكرين بهذين الاسمين فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه . وحسبك بهذا محبة وفضلاً . . واعادته للشاكر مشكوراً كقوله : **نَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً**) الإنسان 22 . وقلة أهله فى العالمين تدل على أنهم هم خواصه كقوله : (**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** سبـ 3 .

: مدارج السالكين جـ صـ 242

وهو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع . . وقيل هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه ، وقيل : هو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم من حيث أنه منعم . . فهو رؤية المنعم لا رؤية النعم . . ويؤيد هذا : أن أيوب عليه السلام صبر على البلاء فقيل له : (**نِعْمَ العَبْدُ**) وسليمان عليه السلام شكر على النعم فقيل له : (**نِعْمَ العَبْدُ**) وذلك لاتفاقهما فى المقام بعدم الالتفات إلى النعمة والنقمة . لفقدان اللذة والألم باعتبار كمال المحو والسلوب

صفات البشرية عنهما إنسلاباً انقلب معه الصبر شكراً . . والشكر صبراً . . فعدم التمييز بينهما فكان كما قيل

رق الزجاج وراقت الخمر   وتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح   وكأنما قدح ولا خمر

وقوله : هو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم : من حيث أنه منعم . . وهو تعريف لغوى : لأن أصل الشكر فى اللغة : ظهور أثر الغذاء فى أبدان الحيوان ظهوراً بيناً : يقال شَكِرَت الدابة تشكر شكراً على وزن سمنت تسمن سمناً إذا ظهر عليها أثر العلف ودابة شكور إذا ظهر عليها السمن فوق ما تأكل وتعطى من العلف : وفى صحيح مسلم : حتى أن الدواب لتشكر من لحومهم : أى تسمن :

فهو فى اللغة : الكشف والإظهار . . يقال : كثر وشكر بمعنى إذا كشفت عن ثغره فأظهره فيكون إظهار الشكر وكشفه باللسان : قوت القلوب جـ صـ 262 .

وهو فى الحقيقة : ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده . . ثناء واعترافاً . . وعلى قلبه شهوداً ومحبة وعلى جوارحه انقياداً وطاعة .

ومبناه على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور . . وحبه له . . واعترافه بنعمته وثناؤه عليه بها وأن لا يستعملها فيما يكره : وكل من تكلم فى الشكر وحده ، فكلامه يدور ويرجع إلى هذه القواعد الخمس .

تعريفه عرفاً واصطلاحاً :

وأما تعريفه عرفاً واصطلاحاً : فهو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق من أجله عن عطاء :

قال : دخلت على عائشة مع عبيد بن عمير فقلت : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت وقالت : وأى شئ لم يكن عجباً . . إنه أتانى فى ليلة فدخل معى فى فراشى أو قالت فى لحافى . . حتى مس جلده جلدى ثم قال : " يا بنت أبى بكر . . ذرينى أتعبد لربى . . قالت : قلت إنى أحب قربك . . فأذنت له . . فقام إلى قربة من ماء فتوضأ . فأكثر صب الماء . ثم قام ليصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره . . ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى . . فلم يزل كذلك . . حتى جاءه بلال فآذنه بالصلاة . .

فقلت له : يا رسول الله ما يبكيك ؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . . قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ، ولما لا أفعل وقد أنزل الله علىّ : (**نَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلافِ اللَيْلِ والنَّهَارِ والْفُلْكِ الَتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ومَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**) البقر 64 .

قال العروس : إنما وقع له ذلك فى الصلاة لأنها طهرة للقلوب واستفتاح للغيوب ومحل للمنجاة ومعدن للمصافاة تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار بإفاضة دقائق العلوم ورقائق المعارف فيجد المصلى فى كل سورة معنى بل من كل آية بل من كل حرف ويتجدد ذلك عليه على حسب الفيض والقصد والهمة فهى الجامعة للإشارات واللطائف والدقائق والرقائق فيسرى ذلك من القلب إلى سائر الجوارح والقوالب فيظهر عليها سمت الباطن ونور العمل وأسراره حتى لقد قيل : من كثرت صلاته فى الليل حسن وجهه فى النهار

وقال الشيخ الترمذى :

دعا الله الموحدين إلى هذه الصلوات الخمس رحمة منه عليهم وهيأ لهم ألوان الضيافات لينال العبد من كل قول وفعل شيئاً من عطاياه ؛ فالأفعال كالأطعمة والأقوال كالأشربة هى عروس الموحدين . . نتاج الأفكار القدسية : جـ صـ 14 .

الشكر

والشكر من حيث هو على ثلاثة أقسام : شكر باللسان وهو اعتراف بالنعمة بنعت الإستكانة والخضوع والشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف العبد بالوفاء والخدمة للمشكور وشكر بالقلب وهو اعتكاف منه على بساط الشهود ، وهو حضور الفضل ورؤيته بإدا م ة حفظ الحرمة ، قال أبو بكر الوراق : شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة ، أى معرفة قدرها ومنزلتها وأنه بفضل الله وتوفيقه وأنه المنعم والمتفضل ، لذا قال ابن عطاء إذا أراد أن يظهر فضله عليك ق لك القدرة ونسبها إليك ، وقال لا نهاية لمذامك أن أرجعك لك ، لا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك شرح الرسالة .

وذلك بأن ترى شكرك بتوفيقه تعالى ، ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك فتشكره على الشكر ثم تشكره على شكر الشكر إلى ما لا يتناهى ، **وقال الجنيد** : الشكر ألا ترى نفسك أهلا للنعمة فيلزم أن تدوم على حفظ الحرمة وملازمة الأدب وهو يرجع إلى ثلاث : إقامة الفرائض واتباع السنن ومجاملة الخلق كما قال عليه الصلاة والسلام : " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن . وهذه ا' صول من تركها حرم الوصول نتائج الأفكار القدسية – ص 18 . .

وقسمه ابن عجيبة إلى ثلاثة أقسام من حيث الخصوص وخصوص الخصوص :
الأول .. شكر العوام وهو الشكر باللسان لأجل ما حصل له من متعة النفس وراحة البدن
الثاني .. شكر الخواص وهو الخدمة بالأركان لأجل ما حصل للقلب من الفرح بإقبال الكريم المنان ، **الثالث** : شكر خواص الخواص .. وهو فرح الروح بالمنعم دون الإلتفات لشئ دونه وعلامته دوام شكره فى السراء والضراء لاستغراقه فى شهود المنعم دون قيد وجود النعم .

وقال الحارث المحاسبى : الشكر زيادة الله للشاكرين معناه .. إذا شكر زاده الله توفيقا فزاده شكرا ، وقال أبو سعيد الخراز .. الشكر الاعتراف للمنعم والإقرار بالربوبية وقال أبو على الروزبارى :

لو كل جارحة منى لها لغة تثنى عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكرى إذ شكرت به إليك أزيد فى الإحسان والمنن

وقال الشبلى : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، أى يرى الله قبل كل شئ ويراقبه كذلك ، فأى شئ يحدث للإنسان يكون مذكرا له برؤية الله فيه ، وهذا أعلى مقامات الشكر ، لأن من هذا نعته يرضا محبوبه بطيب وقته ، وبغير هذا يتناهى مقته ، فلو علم رضاه ولو بكونه فى الجحيم كان ذلك عنده هو النعيم المقيم ، والنعيم مع السخط هو العذاب الأليم :

عذابى فيك يحلو لى ومر الصبر أحلى لى

لأنه يرى أن الكل بقضاء الله ، وأن قدرة الله وراء هذه الأشياء ، فهو يرى الفاعل المختار فيشكره على فعله على ما أنعم به عليه فى الدنيا والآخرة ، ثم يشكره على البلايا

لعلمه أنه المبتلى ، والدليل على هذا ، أن المريض يفرح بتناول الدواء المر الكريه لما يرجوه فيه من العافية والصحة .

وقيل النعمة ما وصلك بالحقائق وقطعك عن الخلائق وقيل النعمة ما أسلاك عن دنياك وأدناك من مولاك ، وقيل النعمة ما لا توجب ندما ولا تعقب ألما .

وينقسم الشكر بالنسبة إلى مق ـــ ات الصالحين ثلاث :

شكر هو شكر العالمين يكون من جملة أقوالهم لأنهم لا علم عندهم إلا بالشكر باللسان فشكرهم إنما يكون بالنطق به .

وشكر هو نعت العابدين يكون نوعا من أفعالهم ، أى طاعتهم ، وشكر هو شكر العارفين يكون باستقامتهم له فى عموم أحوالهم ، وهؤلاء ينتقلون من أعمال الجوارح إلى أحوال القلوب ، وهم يتشوقون إلى السلامة فقط لأن العبد من حيث هو أعماله مدخوله وأحواله معل ة فهو صاحب ريبة ، وما كان ا ذلك فرأس ماله غنيمة السلامة من عقوبة ما هو عليه فى محله فضلا عن غيره :

وقائلة مالى أراك مجانبا	أمورا وفيها للتجارة مربح
فقلت لها مالى بر حك حاجة	فنحن أناس بالسلامة نفرح

والمقصود من كل هذه التعريفات هو الحث على الرضا بما قدره والصبر على ما قضاه وأمضاه حيث هو الفاعل المختار العالم بمصالح العباد ، والقادر على إيصالهم إليهم فحق العبودية التخلى عن كل شئ إلا عنه ، والتحلى بما يرضه عنه والدوام على ذلك حتى يلقاه بلا فترة ولا تقصير ، ويعبر عن ذلك بعبارات ، طاعة الله والفناء به عنها ، والصدق فى العبودية والقيام بحقوق الربوبية وامتثال أمره والاستسلام لقهره ، و الإنسان لا يسأل عن قضاء الله وقدره ، ولكن يسأل عن أمره ونهيه فاطلب ربك من حيث يطلبك وما وصلك ف ضر فضله ، فالأمر منه وإليه ، ولولا ذلك ما استحق شيئا ولذا قال القائل : ما هناك إلا فضله ولا نعيش إلا فى ستره ، ولو كشف الغطاء لكشف عن أمر عظيم :

(**وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَد** النور 21 .

الفرق بين الشكر والشكور

قيل الشاكر . هو الذى يشكر على الموجود ، والشكور .. هو الذى يشكر على المفقود . وقيل : الشاكر . هو الذى يشكر على الرفد (العطاء) ، والشكور . هو الذى يشكر على الرد . وقيل : الشاكر . الذى يشكر على النفع ، والشكور . الذى يشكر على المنع . وقيل : الشاكر . الذى يشكر على العطاء ، والشكور . الذى يشكر على البلاء . وقيل : الشاكر .. الذى يشكر عند البذل ، والشكور . الذى يشكر عند المطل . وكلها متقاربة .

أدب ا ي ، تذلل والعبد لا يدع الأدب

فإذا تكامل ذله نال المودة واقترب

وقيل التزم الحسن بن على الركن فقال : إلهى نعمتنى فلم تجدنى شاكرا ، وابتليتنى فلم تجدنى صابرا ، فلا أنت سلبت النعمة بتركى الصبر ، إلهى لا يكون من الكريم إلا الكرم .

فكمال العبد فى شكره وأن يكون متعبدا بشكره متذللا رائيا زيادة فضل الله عليه بإلهامه لشكره مع نظره إلى نفسه وعدم صلاحيته لما من به عليه ، ولذا قيل : الشاكر مع المزيد لأنه فى شهود النعمة ، قال تعالى : (**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** إبراهيم 7 . والصابر مع الله لأنه بشهوده المبلى له ، قال تعالى : (**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** البقرة 153 .

وروى أنه قدم وفد على عمر بن عبد العزيز وكان فيهم شاب فأخذ يخطب فقال عمر : الكبر .. الكبر ، فقال له الشاب يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان فى المسلمين من هو أسن منك ، فقال تكلم ، فقال : لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة ، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك ، وأما الرهبة فقد أمننا منها عدلك ، فقال له فمن أنتم ؟ فقال وفد الشكر جئنا نشكرك وننصرف ولذلك أنشدوا :

ومن الرزية أن شكرى صامت عما فعلت وإن برك نا د ق

أرى الصنيعة منك ثم أسرها   إنى إذاً ل ن ء الكريم لسارق

وقال يحيى بن معاذ : لست بشاكر ما دمت تشكر وغاية الشكر التحير وذلك أن الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها وهذا لا يتناهى . وكان بعض العارفين يق ل : اللهم إنك تعلم عجزى عن مواضع شكرك فاشكر نفسك عنى .

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : اللهم إنك سألتنا من أنفسنا ما لا نملكه إلا بك ، اللهم فأعطنا ما يرضيك عنا صحيح ، فيض القدير - - ص 05 .

قال ليس فى الوجود إلا موجود واحد ، فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان .

الفرق بين الحمد و الشكر

قيل الحمد .. هو الثناء على الله بذكر صفاته الج لة وأفعاله الحسنة يكون على الأنفاس الصالحة ، والشكر .. يكون على نعم الحواس وهى تبع للقلوب ، فالحمد أفضل من الشكر لأنه جعل على أعظم النعم وهى الأنفاس الصالحة ، وهى من أعمال القلوب .

وقيل : الحمد .. ابتداء منه تعالى بأن نحمده على ما تفضل به عليك بغير سبب منك ، و الشكر اقتداء منك بأن تجعله جزاء لنعمته عليك ، فمن أحسن إليك ينبغى أن يحسن وإن كان الجميع من فضله وإحسانه .

وفى الصحيح : أول من يدعى إلى الجنة الحامدون لله على كل حال . وقيل : الحمد .. على ما دفع من البلاء ، و الشكر على ما صنع من العطاء ، وفيه إشارة على أن نعمة البلاء أفضل من نعمة العطاء . والحقيقة أن الإنسان عاجز عن الشكر والحمد ، وصدق رسول الله ﷺ : لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك :

شكرت وما شكرى ببالغ قدركم   ولا همتى تعلو لذاك ولا قدرى

والثناء على الله بما هو أهله ليس فى مقدور البشر ، ولذلك هو يتركه للقادر عليه وهو الله سبحانه وتعالى ، ومن أين يبلغ الإنسان فى هذا الميدان وهو يتفكر فى أقسام نعم الله تعالى ؟ فيقول فى نفسه لنفسه : كنت معدوما محضا فجعلك الله تعالى موجودا ثم أعطاك الصورة الحسنة فى الظاهر ، والعقل الذى هو أشرف الصفات فى الباطن ، وشق

سمعك وبصرك وهداك إلى معرفته وعرضك للثواب العظيم وأثنى عليك فى كتابه الكريم ثم إنك حركت لسانك وقلت : الحمد لله ، فاعتقدت أن تحريك اللسان بذكر هذه الكلمات يفى بشكر هذه النعمة العظيمة ، بعدت عن العقل لأنك لم تفِ بكمال الشكر فى سائر الجهات .

وقيل الفرق بين الحمد لله والشكر لله : الحمد لله ثناء : على الله بسبب كل إنعام صدر منه ووصل إلى غيره ، والشكر لله : ثناء بسبب إنعام وصل إلى القائل ، ولا شك أن الأول أفضل لأن التقدير كأن العبد يقول : سواء أعطيتنى أو لم تعطنى فإنعامك واصل إلى كل العالمين وأنت مستحق للحمد العظيم .

الفائدة فى أنه قال الحمد لله ولم يقل حمد لله : ذكر الإمام الرازى عدة فوائد نذكر منها ما يلى :

الأولى : أنه لو قال حمد الله : أفاد ذلك كون القائل قادراً حمده ، أما إذا قال الحمد لله : فقد أفاد ذلك أر ا ار محمود قبل حمد الحامدين و ل شكر الشاكرين ، فهؤلاء سواء حمدوا أم لم يحمدوا ، وسواء شكروا أو لم يشكروا فهو تعالى محمود من الأزل إلى الأبد بحمده لقديم وكلامه القديم .

الثانية : أنه لو قال : أحمد الله .. لكان قد حمد ، لكن حمدا يليق به ، وأما إذا قال الحمد لله .. فكأنه قال من أنا حتى أحمده ؟ لكنه محمود بجميع حمد الحامدين ، مثاله ما لو سئلت : هل لفلان عليك نعمة ؟ فإن قلت نعم .. فقد حمدته ولكن حمدا ضعيفا ، ولو قلت فى الجواب : بل نعمه على كل الخلائق فقد حمدته بأكمل المحامد .

الثالث : أن الحمد عد رة عن صفة القلب : وهى اعتقاد كون ذلك المحمود منعما مستحقا للتعظيم اللائق بجلال الله كان كاذبا ، لأنه أخبر عن نفسه بكونه حامدا متفضلا مع أنه ليس كذلك ، أما إذا قال : الحمد لله .. سواء كان غافلا أو مستحضرا لمعنى التعظيم فإنه يكون صادقا ، لأن معناه أن الحمد حق لله وملكه وهذا المعنى حاصل سواء كان العبد مشتغلا بمعنى التعظيم والإجلال أم لم يكن ، فثبت أن قوله : الحمد لله أولى من قوله أحمد الله ، فإنه لا يدخله التكذيب ، بخلاف قولنا : أشهد أن لا إله إلا الله ، لأنه قد يكون كاذبا فى قوله : أشهد ولهذا قال تعالى فى تكذيب المنافقين : **(واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ المُنَافِقِينَ**

لَكَاذِبُونَ) المنافقون . ولهذا السر أمر فى الأذان بقوله : أشهد ، ثم وقع الختم على قوله : لا إله إلا الله .

الرابع : قوله الحمد لله .. ثمانية أحرف وأبواب الجنة ثمانية فمن قال هذه الثمانية عن صفاء قلب استحق ثمانية أبواب الجنة .

الخامس : أن قوله الحمد لله ، كما دل على أنه لا محمود إلا الله ، فكذلك العقل دل عليه وبيانه من وجوه :

الأول : أنه تعالى لو لم يخلق داعية الأنعام فى قلب المُنعم لم ينعم فيكون المنعم فى الحقيقة هو الله الذى خلق تلك الداعية .

الثانى : أن كل من أنعم على الغير فإنه يطلب بذلك الإنعام عوضا إما ثوابا أو ثناء أو تحصيل حق أو تخليصا للنفس من خلق البخل وصاحب العوض لا يكون منعما فلا يكون مستحقا للحمد فى الحقيقة ، أما الله سبحانه وتعالى فإنه كامل لذاته والكامل لذاته لا يطلب الكمال لأن تحصيل الحاصل محال فكانت عطاياه جودا محضا وإحسانا محضا فلا جرم كان مستحقا للحمد فثبت انه لا يستحق الحمد إلا الله .

السادس : أن من اعتقد أن حمده وشكره يساوى نعم الله . تعالى الله ، فقد أشرك و هذا معنى قول الواسطى الشكر شرك ، إن الإنسان محتاج إلى نعم الله فى ذاته وصفاته وأحواله ، والله غنى عن شكر الشاكرين وحمد الحامدين ، فكيف يمكن مقابلة نعم الله بهذا الشكر وبهذا الحمد فثبت بهذا أن العبد عاجز عن الإتيان بحمد الله وبشكره فلهذه الدقيقة لم يقل احمدو الله بل قال الحمد لله لأنه لو قال احمدو الله فقد كلف ما لا طاقة لهم به أما لم قال الحمد لله كان المعنى أن كمال الحمد حق وملك سواء قدر الخلق على الإتيان به أو لم يقدروا عليه .

نقل عن داود قال : يا رب كيف أشكرك وشكرى لك لا يتم إلا بإنعامك على وهو أن توفقنى لذلك الشكر ؟ قال : يا داود لما علمت عجزك عن شكرى فقد شكرتنى بحسب قدرتك وطاقتك .

السابعة : الحمد لله كلمة شريفة جليلة لكن لا بد من ذكرها فى موضعها وإلا لم يحصل المقصود منها ، قيل للسرى السقطى : كيف يجب الإتيان بالطاعة ؟ قال : أنا منذ

ثلاثين سنة أستغفر الله عن قولى مرة واحدة الحمد لله ، فقيل كيف ذلك ؟ قال : وقع الحريق فى بغداد واحترقت الدكاكين والدور فأخبرونى أن دكانى لم يحترق فقلت الحمد لله معناه أنى فرحت ببقاء دكانى حال احتراق دكاكين الناس وكان حق الدين والمروءة ألا أفرح بذلك ، فأنا فى الاستغفار منذ ثلاثين سنة عن قولى الحمد لله ، فثبت بهذا أن هذه الكلمة وإن كانت جليلة القدر إلا أنه يجب رعاية موضعها .

انتهى بتصرف - الفخر الرازى - ـ - ص 225 .

من فضائل الشكر

بالشكر يرفع العذاب ويضاعف الأجر ويزداد الثواب فى الدنيا والآخرة فليس بعده مزيد ، قال تعالى : **(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)** النساء 147 . فقد قرن الله الشكر بالإيمان ورفع بوجودهما العذاب و قال تعالى : **(وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ)** آل عمران 145 . وقرنه بالذكر : **(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ)** البقرة 152 .

وفى هذا تعظيم للشكر حيث قال : **(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)** 45 . فدل هذا على تعظيم الشكر تعظيما لا يعـ ـه إلا الله تعالى ، ومعنى قوله تعالى : **(اذْكُرُونِي)** بالطاعة كالصلاة والتسبيح ، **(أَذْكُرْكُمْ)** بمعونتى ومغفرتى ، وقيل فى النعمة والرخاء ، أذكر كـ فى الشدة والبلاء كما قال تعالى :**(فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)** الصافات 143 ، 144 ،

وفى الحديث القدسى أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، إذا ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة . وفى رواية : أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه .

ومن فضيلة الشكر أن الله قطع بالمزيد معه ولم يستثنى فيه واستثنى فى خمسة أشياء : فى الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة ، فقال تعالى :

(فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ) التوبة 28 . وقال تعالى : **(فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ)** الأنعام 41 . و قال تعالى : **(يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ)**

البقرة 212 . و قال تعالى : (**وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ**) المائدة 40 . وقال عز وجل : (**ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ**) التوبة 27 . وختم بالمزيد عند الشكر من غير استثناء فقال تعالى : (**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**) إبراهيم 7 .

فالشاكر على مزيد والشكور فى نهاية المزيد ، وهو الذى يكثر شكره على القليل من العطاء ويتكرر منه الشكر والثناء على الشئ الواحد من النعم .

وأول المزيد شهود النعم أنها من المنعم من غير حول ولا قوة وأوسطه دوام الحال ومتابعة الخدمة والاستعمال ، وقد يكون المزيد أخلاقا وقد يكون علوما وقد يكون تثبيتا ، فهو مفتاح كلام أهل الجنة وختام تمنيهم فى قوله تعالى :(**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ**) الزمر 74 . و قال تعالى : (**وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ**) يونس 10 : قوت القلوب ، ص 359

فأول كلمة قالها آدم الحمد لله ، وأخر كلمة قالها أهل الجنة الحمد لله ، أما الأول فلأنه لما بلغ الروح سرته عطس فقال الحمد لله رب العالمين وأما الثانى فقوله :
(**وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ**) ، فاجتهد فى عملك أوله وأخره أن يكون مقرونا بالحمد .

مراحل الشكر

أول الشكر : معرفة النعم أنها من المولى وحده لا شريك له فيها ولا ظهير له فى شئ إذ قد نفى ذلك عن نفسه ، لأنه هو الأول فى كل شئ ، لا شئ معه ، ولا ظهير له فى شئ إذ قد جعل الضراء والسراء منه وإليه جاريين على عباده ، فقال تعالى :
(**وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ**) سبأ 22 .

الشرك الخلط والظهير المعين ثم قال تعالى : (**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**) النحل 53 . و قال تعالى : (**وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) الأنعام 17 .

و قال تعالى فى جمل النعم بعد إضافتها إليه : (**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ**) الجاثية 13 و قال تعالى :(**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**) لقمان 20 .

فالأسباب مع صحتها والأوساط مع ثبوتها إنما هى حكمه و أحكامه فظروف العطاء وآثار المعطى لا تؤثر فى الحكم بها و لجعل لها حكما ولا جعلا ، يعنى لا تحكم ولا تجعل لأنها محكومات فكيف تحكم ، ومجعولات فكيف تجعل ، لا حاكم إلا الله وحده ولا يشرك فى حكمه أحد .

ومن فضائله التى ليس بعدها فضيلة : ما جاء عن النبى ﷺ : من قال سبحان الله فله عشر حسنات ، ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ، ومن قال الحمد لله كتبت له ثلاثون حسنة .

ليس معنى ذلك أن الحمد أعلى من التوحيد ولكن لفضل مقام الشكر ، ولأن الله افتتح به كلامه فى كتابه ، وفى الحديث : أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله رب العالمين . ويكون أيضا ظهور الشكر وغلبته فى القلب ، شكر القلب ويكون شكر الله لعبده كشفه له ما ستره عنه وإظهاره له ما حجبه منه من العلوم والقدر وهو المزيد فيفيد ، ذلك حسن معرفته به تعالى وعلو مشاهدته منه وكله يرجع إلى معنى الكشف والإظهار ، لأن الشكر فى اللغة هو الكشف والإظهار ، يقال كثر وشكر ، بمعنى إذا كشف عن ثغره فأظهره فيكون إظهار الشكر وكشفه باللسان كما ذكر فى الحديث السابق من زيادة الثواب . وفى الخبر ليس شئ من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد . وعن ابن مسعود قال : كان النبى ﷺ يعلمنا هذا الدعاء : اللهم أصلح ذات بيننا وألف بين قلوبنا ، واهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، اللهم بارك لنا فى أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها قابـ ز لها وأتمها علينا صحيح .

وعن بريدة أن النبى ﷺ كان يقول فى دعائه : اللهم اجعلنى شكورا واجعلنى صبورا واجعلنى فى عينى صغيرا وفى أعين الناس كبيرا البزار وحسنه .

متعلقات الشكر

و الشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح ، أما القلب فقصد الخير وإضمار لكافة الخلق وأما باللسان فإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه ، وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته ، ومعنى هذا أن الشكر

يكون بالقلب خضوعاً واستكانة وباللسان ثناء واعتراف بالجوارح طاعة وانقياداً .

قال الإمام الغزالى :

و الشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله وهو مأمور به فقد قال ﷺ لرجل كيف أصبحت ، قال : بخير ، فأعاده ﷺ السؤال ، حتى قال فى الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره فقال ﷺ هذا الذى أردت منك الطبرانى .

وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له مطيعا ، وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق ، وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت ، فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شئ إلى عبد مملوك لا يقدر على شئ فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله فهو المبلى والقادر على إزالة البلاء ، وذل العبد لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذل وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح ، قال تعالى : **(إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَ وا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ واعْبُدُوهُ واشْكُرُوا لَـ** العنكبوت 7 .

و قال تعالى : **(نَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ** الأعراف 94 إتحاف السادة المتقين - ـ ا ص 03 .

وفى هذا المعنى قال صاحب الحك :

كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متحققا وأوصاف الربوبية أربعة : الغنى والعز والقدرة والقوة ، والتعلق بها الاعتماد عليها ، وأوصاف العبودية أربعة : الفقر والذلة والعجز والضعف ، والتحقق بها أن تراها ملازمة لك ، ويختلف الحال باختلاف التعلق والتحقق ، فالأول موقف الأدب والتعظيم ، والثانى موطن البسط والتكريم هذا رسول الله ﷺ : أطعم ألفا من صاع وشد على بطنه حجرا من الجوع

: نتائج الأفكار القدسية - ـ ص 18 .

وشكا رجل فقره وغمه إلى آخر ، فقال الرجل : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال : فيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف ، قال : لا ، قال : فيسرك

أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرة آلاف ، قال : لا ، قال : فيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، قال فما تستحى أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا .

المنعم المتفضل

قال تعالى : (**يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ والَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**) البقرة 21 . إن أول نعمة أنعم بها الحق عز و جل هى نعمة العقل و الإيجاد من عدم .. ثم نعمة الخلق لأن الإنسان بعقله يعلم نفسه و غيره و يميز بين الأشياء الضار منها و النافع بما وهبه من حواس مدركة قال تعالى :

(واللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) النحل 78 . لتستعملوا هذه الحواس فى طاعته لا فى معصيته .. هذه الحواس الخمس التى هى مشاعر ضرورته وهى : السمع الذى يدرك به الأصوات ، والبصر الذى يدرك به الألوان ، والشم الذى يدرك به الروائح ، واللمس الذى يدرك به خشونة الشئ ولينه ، والطعم الذى يدرك به مرارة الشئ وحلاوته وقد ذكر الله هذه النعم وهذه المنافع لتشكروه ، وبين العلماء شكر كل نعمة من هذه النعم .

قال رجل لأبى حازم : ما شكر العينين يا أبا حازم ؟ قال إن رأيت بهما خيرا أعلنته وإن رأيت بهما شرا سترته . قال فما شكر الأذنين ؟ قال إن سمعت بهما خيرا وعيته وإن سمعت بهما شرا أخفيته . قال فما شكر اليدين ؟ قال لا تأخذ بهما ما ليس لهما ولا تمنع حقا لله عز وجل هو فيهما . قال فما شكر البطن ؟ قال أن يكون أسفله طعاما وأعلاه علما . قال فما شكر الفرج ؟ قال كما قال الله : (**إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ**) المؤمنون 6 قال فما شكر الرجلين ؟ قال إن رأيت حيا غبطته استعملت بها عمله ، وإن رأيت ميتا مقته كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله عز وجل . فأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه لم ينفعه ذاك من الحر والبرد والثلج والمطر . وقال أبو بكر الوراق : لا يكمل الحمد إلا بخلال ثلاث : محبة المنعم بالقلب ابتغاء مرضاته بالنية وقضاء حقه بالسعى ، وقال السرى السقطى :

الشكر على ثلاثة أوجه : شكر اللسان وشكر البدن وشكر القلب ، فشكر القلب أن تعلم أن النعم كلها من الله عز وجل ، وشكر البدن أن لا تعمل جارحة من جوارحك إلا فى طاعته بعد أن عافاك الله ، وشكر اللسان دوام الحمد عليه .

وقال من أدى الفرائض واجتنب المحارم وشكر النعمة عنده فما عليه لأحد سبيل .

وقال شقيق تفسير الحمد على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك الله شيئا تعرف من أعطاك والثانى أن ترضى بما أعطاك ، والثالث ما دام قوته فى جسدك أن لا تعصيه ، وقال الجنيد : كنت بين يدى السرى ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت : ألا تعصى الله بنعمه ، فقال : يوشك أن يكون حظك من الله لسانك ، قال الجنيد فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى ، وقال الجنيد : قال السرى يوما ، ما الشكر ؟ وكان إذا أراد أن يفيد الإنسان جعله سؤال فقلت له : أما الشكر عندى ألا يستعان على المعاصى بشئ من نعمه فاستحسن ذلك وقال لى أعد الكلام على ، ثم قال وأينا لا يستعين بنعمه على معاصيه ومكث حينا من الدهر يقول لى ، كيف قلت لى فى الشكر ؟ فأعيد الكلام عليه وقال الجنيد وهذا هو فرض الشكر ألا يعصى فى نعمه ، وقال أبو بكر السمساطى وسئل عن أصل الشكر فقال : أصل الشكر رؤية المنة بالقلب والمعرفة بأنه من الله عز وجل وحقيقة الشكر فى الأصل والفرع أن تتقى الله خاصة وذكر عن بعض السلف أنه قال : الشكر تقوى الله ألا ترى أنه يقول : **(ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** آل عمران 123 . فالمتقى هو الشاكر لنعمة الله ومن لم يكن متقيا فليس بشاكر .

كبائر النعم

ومن كبائر النعم ثلاث من جهلها أضاع الشكر عليها ومعرفتها شكر العارفين ، **أولها** : استتار الله بقدرته وعزته عن الأبصار ولو ظهر للعباد لكانت معاصيهم كفرا لأنهم لم يكونوا ينقصون من المعاصى المكتوبة عليهم جناح بعوضة ولأنه تبارك وتعالى كان يظهر بوصف لا يمتنعون معه على المعاصى ووراء هذا سرائر الغيوب إلا أنهم كانوا يكفرون بالمواجهة لانتهاك حرمة المشاهدة أيضا لما كان لهم فى الإيمان به من

عظيم الدرجات ما لهم الآن لأنهم حينئذ يؤمنون بالشهادة وهم اليوم يؤمنون بالغيب فرفعت لهم الدرجات بحسب اليقين ولذلك مدحهم الله تعالى .

والنعمة الثاني : إخفاء القدر والآيات عن عيون الخلق لأنها من سر الغيب وصلاح العبيد واستقا الدنيا والدين ولو ظهرت لهم لكانت خطاياهم الصغائر كبائر مع معاينة الآيات ولما ض عفت لهم الحسنات كمضاعفتها الآن للإيمان بالغيب .

والنعمة الثالث : تغيب الآجال عنهم إذ لو علموا بها لما كانوا يزدادون ولا ينقصون من أعمالهم الخير والشر ذرة فكان مع علمهم بالآجال أشر مطالبة لهم وأوقع للحجة عليهم فأخفى ذلك عنهم معذرة لهم من حيث لا يعلمون ولطفا بهم ونظرا لهم من حيث لا يحتسبون قوت القلوب .

وقال جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث : رضاه فى طاعته فلا تحتقر منها شيئا لعل رضاه فيه ، وخبأ غضبه فى معاصيه فلا تحتقر منها شيئا لعل غضبه فيه ، وخبأ ولايته فى عباده المؤمنين فلا تحتقروا منهم أحدا لعله ولى الله تعالى ، ويكون مثل ذلك مثل من أذى نبيا وهو لا يعلم بنبوته وأن الله نبأه قبل أن يخبره أنه نبى الله عز وجل ورسوله إليه فلا يكون وزره وزر من انتهك حرمة نبى قد أعلمه أنه نبى الله لعظيم حرمة النبوة .

نعم الله كثيرة لا حصر لها

قال تعالى : (**وإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** إبراهيم 34
إن نعم الله على الإنسان كثيرة وفضله عميم فهو الذى أوجده وبنعمه أغدق عليه وتولاه ومنحه بكثير من جوده وعطاياه فبنعمته أطاعه العاملون وبنعمته عصاه الجاهلون وبنعمته ستر وحلم ، وبنعمته أغدق وأنعم ومن النعم إظهار الجميل وستر القبيح فلا ندرى أى النعمتين أعظم جميل ما أظهر أو قبيح ما ستر ، **وقال الفضيل** :

عليكم بمداومة الشكر على النعم ل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم ، وورد فى الخبر ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقد قال تعالى : (**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**)

الرعد 1 . قيل لا يغير نعمه عليهم حتى يعيروها بتضييع الشكر فيعاقبهم بالتغيير :
يراجع البحر المديد ــ ـ ص 374 .

ولما كانت نعم الله كثيرة لا حصر لها والشكر لا يحيط بها ولا يدركها قال الإمام القشيرى إن شكر العبد للخالق غير ميسور وبيان ذلك من وجوه :

الأول : أن شكر النعمة مشروط بمعرفة تلك النعمة ومعرفة نعم الله تعالى غير حاصلة ، يقول الله تعالى :

(**وإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**) إبراهيم 34 . فإذا كانت معرفة النعم غير حاصلة كان الشكر غير ممكن من هذه الوجهة .

الثانى : شكر النعمة مخلوق من المنعم وذلك الشكر أعظم قدرا من تلك النعمة فكيف يعقل شكر نعمته من غير نعمته .

الثالث أن الله يعطى على هذا الشكر نعمة زائدة فإن وقع هذا الشكر فى مقابلة النعمة السابقة بقيت النعمة اللاحقة بلا شكر وإن وقع شكر فى مقابلة اللاحقة بقيت النعمة السابقة بلا شكر وعلى التقديرين لا يفى شكر العبد بنعمة الرب .

الرابع : أن الله يعطيك مع استغنائه عنك ، وأنت تشكره مع افتقارك إليه فكيف يقع هذا الشكر الصادر عن الحاجة والضرورة فى مقابلة الإنعام الذى هو محض التفضيل والإحسان ؟ لذا قال أبو عثمان فى تعريفه : الشكر معرفة العجز عن الشكر .

ولما قال الله لآل داود (**اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا**) سبأ 13 ، قال داود : يا رب كيف أشكرك وشكرى لك نعمة علىّ من عندك تستوجب بها شكرا ؟ قال : الآن شكرتنى يا داود . وفى أثر آخر : أن موسى قال : يا رب خلقت أدم بيدك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وعلمته أسماء كل شئ ، وفعلت وفعلت فكيف أطاق شكرك ؟ قال الله عز وجل : عرف أن ذلك منى ، فكانت معرفته بذلك شكرا لى .

ذكر لبعض النعم

ينبغى للإنسان أن يكون على ذكر ولو ببعض هذه النعمة المودعة لديه والمكرورة عنده ، والتى قد لا يشعر بها لإلفه لها وتعوده عليها .

جاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق صدره وحاله ، فقال يونس : أيسرك ببصرك هذا الذى تبصر به مائة ألف درهم ؟ قال الرجل : لا ، قال : فذكره نعم الله عليه فقال يونس : أرى عندك مئات الآلاف وأنت تشكو الحاجة .

وقال على بن الحسن : سمعت أبا طالب يقول فى كلامه : اختط لك الأنف فأقامه وأتمه فأحسن تمامه ، ثم أراد منك الحدقة فجعلها بجفون مطبقة وبأشفار معلقة ، ونقلك من طبقة إلى طبقة ، وحنى عليك الوالدين رقة وسعة فنعمه عليك مورقة وأياديه بك محدقة .

وقال عبد الله المزنى : يا ابن أدم إن أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك . وعن بكر بن عبد الله أنه لحق حمالا عليه حمله ، وهو يقول : الحمد لله .. أستغفر الله ، قال : فانتظرته حتى وضع ما على ظهره ، وقلت له : أما تحسن غير هذا ؟ قال : بلى ، أحسن خيرا كثيرا وأقرأ كتاب الله عز وجل ، غير أن العبد بين نعمة وذنب ، فأحمد الله على نعمائه السابغة وأستغفره لذنوبى ، فقلت الحمال أفقه من بكر . ومر هب بن منبه بمبتلى أعمى مجذوم مقعد عريان به وضح وهو يقول : الحمد لله على نعمته ، فقال له رجل مع هب : أى شئ بقى عليك من النعمة تحمد الله عليها ؟ فقال المبتلى : ارم ببصرك إلى أهل المدينة فانظر إلى كثرة أهلها ، أولا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيرى .

عن منصور بن صقير أن النبى ﷺ مر برجل وهو يقول : الحمد لله الذى هدانى إلى الإسلام وجعلنى من أمة أحمد ، فقال النبى ﷺ : شكرت عظيما .

وأمة أحمد هى الأمة الحمادة التى قال عنها النبى ﷺ . إن الله عز وجل قال : يا عيسى بن مريم إنى باعث بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم ، قال : يا رب كيف يكون هذا لهم ولا حلم ولا علم ؟ قال : أعطيهم من حلمى وعلمى .

وأفضل نعمة أنعم الله بها على العباد ، هى نعمة التوحيد ، وكلمة التوحيد وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، قال سفيان بن عيينة : ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم : لا إله إلا الله و ن لا إله إلا الله لهم فى الآخرة كالماء فى الدنيا . وكان

مجاهد يقرأ (**وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً**) لقمان 20 ، قال لا إله إلا الله . وقال ابن حبان : (**وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً** قال أما الظاهرة فالإسلام وأما الباطنة فستره عليكم المعاصى .

وقال عطاء : سألت ابن عباس عن قوله عز وجل (**وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً** قال هذه من كنوز علمى ، سألت رسول الله ﷺ ، قال أما الظاهرة فما سوى من خلقك ، وأما الباطنة فما ستر من عورتك ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم . وقال رسول الله ﷺ : للشيطان لمة وللملك لمة ، يا ابن أدم ، فأما لمة الشيطان فإيعاذ بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاذ بالخير وتصديق بالحق فمن رأى منكم من ذلك شيئا فليحمد الله ، وتلا هذه الآية (**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ**) البقرة 286 وتلا يحيى بن معاذ (**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**) طه 43 ، 44 .

قال يحيى : إلهى وسيدى هذا رفقك بمن زعم أنه إله ، فكيف رفقك بمن يقول أنت إله . وكان من دعاء بعضهم : إلهى أنت الشكور جذبتنا إليك بحسن معاملتك فشرحت الصدور وكشفت للعارفين الحقيقة ، فلم يعاملوا سواك ، ورفعت النقاب عن بصائر الواصلين فدخلوا فى رضاك ، شاهدوك متجليا فشكروك وعاينوا نورك فى كل المواطن فعبدوك ، تحققوا بالشكر فأعطيتهم المزيد ، وجعلتهم بفضلك نورا مشرقا للعبيد ، أسألك أن تكشف عن بصيرتى الحجب حتى أكون مظهرا للشكر وأنت الشكور ، وجاء بكر بن عبد الله المزنى إلى أبى تميمة الهجيمى ، قال له : كيف أصبحت ؟ قال أصبحت بين نعمتين أميل بينهما لا أدرى أيتهما أفضل : ما ستره الله على فلا أخاف أن يرمنى به أحد ومودة رزقنى من الناس بعزة ربى ما بلغه علمى .

وكان أبو تميمة ، إذا قالوا له : كيف أنت ؟ قال بين نعمتين ، ذنب مستور ولا يعلم به أحد ، وثناء من هؤلاء الناس ، لا والله ما بلغته ولا أنا كذلك .

وقال إبراهيم بن الحكم : سمعت ذا النون يقول : وقال له بعض أصحابه كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت وبنا من نعم الله ما لا يحصى فلا ندرى على ما نشكر على جميل ما نشر أو على قبيح ما ستر وكان يحيى بن معاذ يقول فى مناجاته : إلهى ما

أكرمك إن كانت الطاعات فأنت اليوم تبذلها وغدا تقبلها ، وإن كانت الذنوب فأنت اليوم تسترها وغدا تغفرها ، فنحن من الطاعات بين عطيتك وقبولك ، ومن الذنوب بين سترك ومغفرتك .

فكل نعمة من هذه النعم فهى منه وإليه وهو غنى عن العباد ، ففى الحقيقة هو الشاكر وهو المشكور ، مشكور من عباده شاكر موفق لعباده لأن يشكروه ، وهو الذى ألهم ألسنتهم وقلوبهم الثناء له فبهذا الاعتبار يسمى شاكرا ، فإنه المحب وإنه المحبوب ، فالكل منه وإليه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب .

ومن هنا قال حبيب بن أبى حبيب حيث قرأ : (**إِنَّا وجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ص 44 ، فقال : واعجباه ، أعطى وأثنى فهذا ثناء الله على عباده ، وهو إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى ، فهو المثنى وهو المثنى عليه . وقال أبو سعيد ا هنى : حيث قرئ بين يديه : (**يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ**) المائدة 54 ، فقال لعمرى يحبهم و ع يحب ، فبحق يحبهم لأنه إنما حب نفسه ، إشارة إلى أنه المحب وأنه المحبوب . قال الإمام الغزالى وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حد عقلك فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه ، والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه ، والوالد إذا أحب ولده حيث أنه ولده فقد أحب نفسه ، وكل ما فى الوجود سوى الله فهو تصنيف الله وصنعته ، فإن أحبه فما أحب إلا نفسه ، وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب ، وهذا كله نظر بعين التوحيد ، وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس ، أى فنى عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى : إتحاف السادة المتقين ج ـــ ص 10 .

ولما أمر الله رسوله بطلب القرب ، فقيل له : (**واسْجُدْ واقْتَرِبْ**) العلق 19 . قال فى سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك ، لا احصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك مسلم . قوله أعوذ بعفوك من عقابك ، كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله عن فعله ، وهذا قسم من الفناء المطلق ، وهو أن يتجلى الحق لعبده بطريق الأفعال ويسلب عنه اختياره وإرادته فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا إلا بالحق ، ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال

وترقى إلى مصادر الأفعال وهى الصفات ، فقال : وأعوذ برضاك من سخطك وهما صفتان من صفات الله ثم رأى نقصانا فى التوحيد فاقترب من معالم مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال : أعوذ بك منك وهذا فرار منه إليه فى غير رؤية فعل وصفة ، ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستعيذاً ومثنياً ففنى عن مشاهدة فناء نفسه إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، فقوله ﷺ لا أحصى خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها ، وقوله أنت كما أثنيت على نفسك بيان أنه المثنى والمثنى عليه وأن الكل منه بد وإليه يعود وأن كل شئ هالك ا وجهه فكان أول مقاماته نهاية مقا ات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله وأفعاله فيستعيذ من فعل بفعل ، فانظر إلى ماذا نهايته إذا انتهى الواجد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان ﷺ لا يرقى من رتـ إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعدا بالإضافة إلى الثانية فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك نقصا فى سلوكه وتقصيرا فى مقامه ، وإليه الإشارة بقوله : إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة ، فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما بعضها فوق بعض ، أولها وإن كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ، ولكن كان نقصانا بالإضافة إلى آخرها فكان استغفاره لذلك ، ولما قالت عائشة : أليس الله قد غفر لك قال : أفلا أكون عبدا شكورا ، معناه أفلا أكون طالبا للمزيد من المقامات فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال : (**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**) إبراهيم 7

الجزاء من جنس العمل

وقوله تعالى : (**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ولَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**) إبراهيم 7 فشدة العذاب كفاءة لخباثة الجحود والنكود ، فإن الله قص علينا قصة سبأ لنعرف منها عاقبة الجحود والنكود وكيف أنها كانت أمة زاهرة زاخرة ، ثم صارت خرابا يبابا

(**لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ واشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ورَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ وبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الكَفُورَ**) سبأ 15 ـ 17 .

وعن ابن مسعود قال : من أعطى أربعا لم يحرم أربعا ، من أعطى الدعاء لم يحرم الإجابة ، لأن الله عز وجل يقول : (**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**) غافر 60 ، ومن أعطى الشكر لم يحرم الزيادة لأن الله يقول : (**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ، ومن أعطى الاستغفار لا يحرم المغفرة لأن الله يقول : (**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً**) النحـ 10 ، ومن أعطى الذكر ذكره الله لأن الله يقول : (**اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**) البقر 52 . النعمة الحقيقية .

قال أبو حازم : كل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية وقال : إذا رأيت الله عز وجل يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره .

وقال أحمد بن حنبل سمعت أبا معاق النحوى يقول :

(**سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ**) الأعراف 82 ، قال أظهر لهم النعمة وأنسـ هم الشكر . وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك له منه استدراج ونزع بهذه الآية : (**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** الأنعام 44 ، 45 .

وعن أبى هريرة أن رسول الله قال : لا يغرنكم فاجر فى نعمة فإن له عند الله قائلا لا يموت (**كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً**) الإسراء 97 . النار .

وعن ابن عمر قال : كان من دعاء النبى ﷺ : اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عافيتك ومن فجأة نقمتك ، ومن جميع سخطك وغضبك : مسلم .

وقال معروف الكرخى : ما أنعم الله على عبد نعمة فاستظهر بنعمته على معاصيه إلا ابتلاه الله بفقد أعز الأشياء عليه . وقال الفضيل : عليكم بالشكر فإنه قل قوم كانت عليهم من الله نعمة فزالت عنهم ثم عادت إليهم ، وكان يقال : لا زوال لنعمة إذا شكرت ، ولا بقاء لنقمة إذا كفرت .

وعن عائشة قالت : دخل على رسول الله فرأى كسرة ملقاة فمسحها فقال : يا عائشة أحسنى جوار نعم الله عز وجل ، فإنها ما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم : البيهقى فى الشعب .

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم

لماذا الشكر

ولقد أمر الله بالشكر لأن قلة الشكر خسة ينبغى التنزه عنها ، فإنك لو قدمت عونا للإنسان ثم تنكر لك وأعرض بوجهه عنك لرأيت أن زواله من على الأرض أفضل فما ظنك برب العالمين الذى خلق من عدم وأغدق وأمد الأعوام بعد الأعوام . إذا تنكر لمسديها (**خَ قَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** النحل 4 .

وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى : (**نَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ** قال يعد المصائب , ينسى النعم ، وقال القائل :

يا أيها الظالم فى فعله	والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى	تشكو المصيبات وتنس النعم

وقال ال بى :

الكنود بالنعمة البخيل بما أعطى الذى يمنع رفده ويجيع عبده ويأكل وحده ولا يعطى ال سة تكون فى قومه ، ولا يكون كنود حتى تكون هذه الخصال فيه .

تمام النعمة

روى أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول : اللهم إنى أسألك تمام النعمة فقال : هل تدرى ما تمام النعمة ؟ قال : لا ، قال : دخول الجنة . وقيل لبعض الحكماء ما النعيم ؟ قال : الغنى ، فإنى رأيت الفقير لا عيش له ، قيل زدنا ، قال : العافية فإنى رأيت السقيم لا عيش له ، قال : زدنا ، قال : الأمن فإنى رأيت الخائف لا عيش له ، قيل زدنا ، قال : الشباب فإنى رأيت الهرم لا عيش له ، قال : زدنا ، قال لا أجد مزيدا .

وقد قيل فى قوله تعالى : (**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا** الأحقاف 20 . الشباب وقيل الفراغ وقيل الأمن والصحة وقيل فى قوله تعالى (**وعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ** آل عمران 52 .

قيل العوافى والغنى وفى قوله تعالى : (**وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً** لقمان 20
قيل ظاهرة العوافى وباطنة البلاوى لأنه سبب نعيم الآخرة ومزيدا لقوله تعالى : (**و ص مِّنَ الأَمْوَالِ والأَنفُسِ والثَّمَرَاتِ وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** البقرة 155 .

وفى الآثر : من أصبح معافى فى بدنه أمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيذت له الدنيا بحذافيرها .

إذا القوت تأتى لك والصحة والأمن
وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

وعن أبى بكر الصديق أن النبى ﷺ قال : سلو الله العافية وما أعطى عبد أفضل من العافية إلا اليقين ، ففضل العافية على كل عطاء ، ورفع اليقين فوق العافية لأن بالعافية يتم نعيم الدنيا ، واليقين معه وجود نعيم الآخرة فاليقين فضل على العافية كفضل الدوام على الانتقال ، والعافية سلامة الأبدان من الأسقام والعلل واليقين سلامة الأديان من الزيغ والأهواء .

نعمة اللّه فى البلية

قال بعض العلماء ما من مصيبة إلا ولله تعالى فيها خمس نعم : أولها أنها لم تكن فى الدين ، ويقال كل مصيبة فى غير الدين ذ ء طريق من الدين والثانية أنها لم تكن أكبر منها والثالثة أنها كانت مكتوبة عليه لا محالة قد نفذت واستراح منها ، الرابعة أنها عجلت فى الدنيا ولم تؤجل فى الآخرة فتعظم على مقدار عذاب الآخرة ، والخامسة أن ثوابها خير منها ، فإن المصيبة إذا كانت فى أمر الدنيا فهى طريق الآخرة ولما توفى العباس جلس ابنه عبد الله للتعزية فدخل الناس عليه أفواجا يعزونه فدخل عليه إعرابى وأنشده :

اصبر نكن بك صابرين إنما صبر الرعية بعد صبر الرأس
خير من العباس أجرك بعده والله خير منك للعباس

فقال : ما عزانى أحد تعزية الإعرابى واستحسن ذلك ، والمؤمن الحق يرى فى كل شئ نعمة لأنه لا يرى إلا المنعم حتى المصائب يرى فيها يد المنعم عز وجل والمصائب لا تخلوا من ثلا أقسام كلها من الله تعالى إما أن تكون درجة وهذا للمقربين والمحسنين

وإما أن يكون كفارة ولهذا خصوص أصحاب اليمين والأبرار أو تكون هذه عقوبة وهذا للكافة من المسلمين فتعجل العقوبة فى الدنيا رحمة ونعمة ومعرفة هذه النعم طريق الشاكرين قوت القلوب - - ص 372 .

وفى مناجاة أيوب عليه السلام : إن الله تعالى أوحى إليه ما من عبد لى من الأد ين إلا ومعه ملكان فإذا شكر على نعمائى قال الملكان اللهم زده نعمة على نعمه فإنك أهل الشكر والحمد فكن من الشاكرين قريبا وزدهم من النعماء وكفى بالشاكرين يا أيوب علو الرتبة عندى وعند ملائكتى ، فأنا أشكر شكرهم وملائكتى تدعوا لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكى عليهم ، فكن لى يا أيوب شاكرا ولآ لائى ذاكرا ، ولا تذكرنى حتى أذكرك ولا تشكرنى حتى أشكرك أعمالك ، أنا أوفق أعمالى لصالح الأعمال وأشكرهم على ما وفقتهم واقتضيتهم الشكر ورضيت به مكافأة فرضيت بالقليل عن الكثير وتقبلت القليل وجازيت عليه بالجزيل ، وشر العبيد عندى من لم يشكرنى إلا فى وقت حاجاته ولم ضرع بين يدى إلا فى وقت عقوبته المرجع السابق .

مقامات الشكر

للشكر مقامان : أعلاهما الشكور .. وهو الذى يشكر على المكاره والبلاء والشدائد و لأواء ، ولا يكون كذلك حتى يشهد ذلك نعماً توجب عليه الشكر بصدق يقينه وحقيقة زهده وهذا مقام فى الرضا وحال فى المحبة وبهذا الوصف ذكر الله نبيه نوحا (**إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً**) الإسراء 3 . يشكر الله على كل حال من نفع أو ضر أو خير أو شر وفى الأثر ينادى منادٍ يوم القيامة ليقم الحمادون فيقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة ، قيل ومن الحمادون ؟ قال : الذين يشكرون الله على كل حال وفى لفظ أخر على السراء والضراء ، وقيل فى قوله تعالى :(**وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وبَاطِنَةً**) الظاهرة العوافى والغنى والباطنة البلوى والفقر فهذه نعم الآخرة كما قال ﷺ لا عيش إلا عيش الآخرة . الثانى أن ينظر إلى من هو دونه فى أمر الدنيا وإلى من هو فوقه فى أمر الآخرة فيكتب بهذا من الشاكرين ، وللشكر مقامان : أحدهما أعلى من الآخر أولها شكر الراجين : وهو حسن المعاملة لما أملوه ورجوه من ظواهر النعم فعملوا رجاء إتمامها فكان حالهم المسارعة والمسابقة إلى الأعمال الصالحة شكرا لما ابتدأهم به وخصهم دون

خلقه وأعلاهم شكر الخائفين وهو خوف سوء الخاتمة والإشفاق من ترك الشقاء بحكم السابقة نعوذ بالله تعالى منها فكان خوفهم دليلا على اغتباطهم بموهبة الإيمان وكان اغتباطهم يدل على عظيم قدر الإسلام فى قلوبهم ونفيس مكانه عنده فعظ ت النعمة به عليهم فمعرفتهم بذلك هو شكرهم فكان الخوف والإشفاق طريقا لهم فى الشكر للرزاق .

قوت القلوب - ـ ص 365 .

أيهما أفضل الشكر أم الصبر

اختلف العلماء فى هذه المسألة والأقرب إلى الفهم ما قاله أبو طالب المكى فى قوت القلوب ـ ص 374 . وليس يمكن التفضيل بينهما عند أهل التحصيل من قبل أن الشكر مقام لجملة من المؤمنين والترجيح بين جماعة على جماعة لا يصح من قبل تفاوتهم فى اليقين فى المشاهدات لأن بعض الصابرين أفضل من بعض الشاكرين لفضل معرفته وحسن صبره وخصوص الشاكرين أفضل من عموم الصابرين لحسن يقينه وعلو مشاهدته ولكن تفضيل ذلك من طريق الأحوال والمقامات أن نقول الله أعلم .

إن الصبر ر النعيم أفضل لأن فيه الزهد والخوف وهذا أعلى المقامات وأن الشكر على المكاره أفضل لأن فيه البلاء والرضا وأن الصبر على الشدائد والضراء أفضل من الشكر على النعم والسراء من قبل أنه أشق على النفس مع حال الغنى والمقدرة أن يعصى بذلك أفضل من الشكر على النعم من قبل أن الصبر على المعاصى بالنعم

أفضل من الطاعة بها لمن جاهد نفسه فيها فإذا شكر على ما يصبر عليه فقد صار البلاء عنده نعمة وهذا أفضل لأنها مشاهدة المقربين وإذا صبر عما يشكر عليه من النعم كان أفضل لأنها حال المجاهد ، وقد قال رسول الله ﷺ : نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل يعنى الأقرب شبها بنا فالأقرب فرفع أهل البلاء إليه ووصف نفسه به وجعلهم الأمثل فالأمثل منه ، فمن كان برسول الله ﷺ أمثل كان هو الأفضل وقد كان النبى ﷺ شاكرا على شدة بلائه كذلك الشاكر من الصابرين يكون أفضل لشكره على البلاء إذ هو الأقرب والأمثل بالأنبياء وكل مقام من مقامات المقربين يحتاج إلى صبر وشكر وأحدهما لا يتم إلا بالآخر لأن الصبر يحتاج إلى شكر عليه ليكمل و الشكر يحتاج إلى صبر عليه ليستوجب المزيد ، وقد قرن الله بينهما ووصف المؤمنين بهما فقال :

(**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** لقمان 31 .

شكر الله مع الشعور بالمنة

إن الله خلق الكون وخلق الإنسان بقدرته ومشيئته واقتضت حكمته أن يودع فى الإنسان من الاستعدادات ما يؤهله لمعرفة الله ، ومعرفة قوانين هذا الكون واستخدام نواميسه فى حاجته ، وجعل بينهما من التناسق والترابط ما يحقق الإنسجام التام ليعيش الإنسان فى كون مأنوس صديق وفى رعاية حكيمة مدبرة مطمئن القلب مستروح النفس ثابت الخطو ينهض برسالة الخلافة لله فى الأرض فى اطمئنان الواثق بأنه معان على هذه الخلافة ، ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة ، ويشكر الله كلما اهتدى إلى سر من أسرار الوجود وكلما تعرف على قانون من قوانينه التى تعينه فى خلافته وتيسر له قدرا

من الرقى والراحة والمتاع بخلاف التصورات والعقائد الجاهلية القديمة من إغريقية ورومانية وأوربية التى تصور الكون على أنه غول بشع يتربص بالإنسان الدوائر .

وقف الإسلام أمام هذه التصورات وقفة شامخة بما وضع من عقائد وبين من حقائق أزالت كل بذ وأذهبت كل شك وأوضحت أن الإنسان إنما هو ابن لهذه الأرض وهذا الكون الذى مكنه الله فيه وجعل فيه رزقا ومعايش ويسر له المعرفة التى تحقق له السعادة وجعل نواميسه موافقة لوجود هذا الإنسان تساعده وتيسر له حياة كريمة ، ولكن الناس قليلا ما يشكرون ، ذلك لأنهم فى جاهليتهم لا يعلمون وحتى الذين يعلمون لا يستطيعون ولا يملكون أن يوفوا نعمة الله حقها من الشكر ، قال تعالى :

(ولَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ و ۦ لْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ الأعراف 0 .

والمهم أن يردد المسلم الحمد والثناء والشكر وهو شاعر بالمنة والجميل مقر من أعماقه بأن الله مصدر كل خير وهو يتعرف إلى عباده بما يمنحهم من بركات وما ينزل عليهم من خيرات متجددات على اختلاف الليل والنهار فلا غرو إذا استقبلوها بالشكر

(وهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً الفرقان 62 .

دخل سفيان الثورى على جعفر الصادق فقال له : علمنى مما علمك الله ، فقال جعفر : إذا تظاهرت الذنوب فعليك بالاستغفار ، وإذا تظاهرت النعم فعليك بالشكر ، وإذا تظاهرت الغموم فقل : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فخرج سفيان وهو يقول ثلاث وأى ثلاث . وقال بن عطاء الله السكندرى : شكوت إلى العباس ما أجده من هموم وأحزان ، فقال : أحوال العباد أربع لا خامسة لها : النعمة والبلية ، والطاعة والمعصية ، فإن كنت فى النعمة فمقتضى الحق منك الشكر ، وإن كنت فى البلية فمقتضى الحق منك الصبر ، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عل ك وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار ، فقمت من عنده كأنما كانت الهموم ثوبا نزعته .

وقال بعض العارفين حاكيا عن الله تعالى : عبدى خلقت الأشياء كلها من أجلك وخا ك من أجلى فاشتغلت بما خلقته لك عنى ، فإذا اشتغلت بالنعمة عن المنعم وبالعطايا عن المعطى ، فما أديت شكر نعمته ولا راعيت حرمة عطائه ، لأن كل نعمة شغلتك عنى

فهى نقمة وكل عطية ألهتك عنى فهى بلية . وقال أبو حازم كل نعمة لا تقرب من الله عز وجل فهى بلية . و الشكر على النعمة يختلف :

منها اعتقاد أن الله عز وجل قد أنعم فأكثر وأجزل وأن كل ما بنا من نعمة فمنه ، ومنها الثناء على الله عز وجل وحمده وإظهار ما فى القلب من حقوق وهذه النعم باللسان والجمع فيها بين الاعتقاد والاعتراف بها كذلك فى الإيمان ، ومنها الاجتهاد فى إقامة طاعته فعلا بما أمر وكفا عما عنه نهى فإن هذا هو الذى يقتضيه تعظيمه ولا تعظيم كالطاعة ، ومنها أن يكون العبد مشفقا فى عامة أحواله من زوال نعم الله تعالى عنه ، وجلا من معرفتها إياه مستعيذا بالله تعالى من ذلك سائلا إياه متضرعا إليه أن يديمها له ولا يزيلها عنه ، ومنها أن ينفق مما أتاه الله ويواسى أهل الحاجة وأن لا يفخر بما أتاه الله على غيره و لا يتبذخ ولا يتصلف ولا يزهو ولا يتكبر (**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً**) النساء 36 ــ شعب الإيمان ــ ــ ص 38 .

وعن جابر قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى فرغ منها قال : مالى أراكم سكوتا الجن كانوا أحسن منكم ردا ما قرأت عليهم من مرة : (**فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**) إلا قالوا ولا بشئ من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد ، وأنشد محمود الوراق :

إذا زان شكرى بنعمة الله نعمة   على له فى مثلها يجب الشكر
وكيف وقوع الشكر إلا بفضله   وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها   وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه منة   تضيق بها الأوهام والبر والبحر

وقال رسول الله ﷺ : من ابتلى فصبر ، أعطى فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفر قيل ما له ؟ قال : (**أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهُم مُّهْتَدُونَ**) الأنعام 82 .

وروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من كانت فيه ثلاث أدخله الله فى رحمته وأراه محبته وكان فى كنفه ، من إذا أعطى شكر وإذا قدر غفر ، وإذا غضب فتر الشعب .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا ، وزوجة لا تبغيه حوبا فى نفسها ولا فى ماله .

التحدث بالنعمة

عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : التحدث بنعم الله شكر وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله والجماعة بركة والفرقة عذاب ابن أبى الدنيا .

وقيل من كتم النعمة فقد كفرها ومن أظهرها فقد شكرها ، وهذا مأخوذ من قول النبى ﷺ : إن الله إذا أنعم على العبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده :

ومن الرزية أن شكرى صامت عما فعلت وأن ب رك ناطق
وأرى صن ـ من ك ثم أسرها إنى إذا لندى الكريم لسارق

وقال رسول الله ﷺ : من أعطى عطاء فليجز به فإن لم يجد فليثن به فإن من أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره أبو داود و الترمذى .

وقال الحسن أكثروا ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر ، وقال إن الله إذا أنعم على قوم سألهم الشكر ، فإذا شكروه كان قادرا على أن يزيدهم ، وإذا كفروه كان قادرا على أن يبعث بدل نعمته عليهم عذابا ، وقد أمر نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال :

(وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) الضحى 1 .

وعن عائشة أن النبى ﷺ قال : ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها ، وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفره وإن الرجل يشترى الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له . عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ : ما أنعم الله على عبد من نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : لا حول ولا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت . وقال رسول الله ﷺ : من قال حين يصبح وحين يمسى : اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر إلا أدى شكر ذلك اليوم . وكان يقول فى دعائه اللهم انفعنى بما

علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علما والحمد لله على كل حال وأعوذ بك ربى من حال أهل النار . وكان ﷺ إذا أتاه الأمر يسره قال : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال ، وكان إذا أوى إلى فراشه قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم من لا كَ ؤ له ولا ى . وعن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ من قال إذا أوى إلى فراشه : الحمد لله الذى كفانى وآوانى والحمد لله الذى طع نى و انى والحمد لله الذى من على فأفضل فقد حمد الله بجميع محامد الخلق كلها .

وكان ﷺ إذا تعار من الليل قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، وإذا استيقظ من النوم قال : الحمد لله الذى رد لى روحى وعافانى فى جسدى وأذن لى بذكره ، وإذا عاد من الخلاء يقول : الحمد لله الذى أذاقنى لذته وأبقى فى قوته وأذهب عنى أذاه ، وإذا لبس ثوبا جديدا قال : الحمد لله الذى كسانى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة ونحن إذا تصفحنا حياة النبى ﷺ رأينا من مظاهر الشكر وآيات الحمد والثناء ما يثير الدهشة ويسرى فى القلوب شوقا ورقة ، ففى الصحيح أن الرسول ﷺ قال : أتحبون أيها الناس أن تجتهدوا فى الدعاء ؟ قالوا نعم يا رسول الله ، قال : قولوا اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، وفى رواية عن معاذ ﷺ أن رسول الله ﷺ أخذ بيده يوما ثم قال يا معاذ والله إنى لأحبك فقال له معاذ بأبى أنت وأمى يا رسول الله وأنا والله أحبك قال : أوصيك يا معاذ لا تدعن فى دبر كل صلاة أن تقول اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك أبو داود والنسائى وابن خزيمة وابن حيان فى صحيحهما وقال الحاكم على شرط الشيخين .

عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله ﷺ كان يهلل دبر كل صلاة حين يسلم بهذه الكلمات : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون مسلم .

وعن ابن عباس أن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة كان على عهد النبى ﷺ وقال ابن عباس : كنت أعلم إذا انصرفوا بذلك إذا سمعته :

فتح البارى باب الذكر بعد الصلاة ـ ، صر 378 .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يدعوا بهؤلاء الكلمات : اللهم أعنى ولا تعن على وانصرنى ولا تنصر على و مكر لى ولا تمكر على واهدنى ويسر الهدى لى وانصرنى على من بغى على ، رب اجعلنى لك شكارا ، لك ذكارا ، لك رهابا ، لك مطواعا ، لك مخبتا إليك أواها منيبا ، رب تقبل توبتى واغسل حوبتى وأجب دعوتى وثبت حجتى وسدد لسانى واهد قلبى واسلل سخيمة صدرى النسائى .

وعن جويرية أن النبى ﷺ خرج من عندها ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة فقال : مازلت على الحالة التى فارقتك عليها ؟ قالت : نعم ، قال النبى ﷺ : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن . سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته مسلم وغيره . ولقد أمر النبى ﷺ أن يكثروا من الحمد ووعدهم عليه الجزاء الوفير والأجر العظيم من الله ، عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن .. سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم البخارى و مسلم . وهما أحب الكلام إلى الله عز وجل .

عن أبى ذر قال ، قال رسول الله ﷺ : ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ قلت : يا رسول الله أخبر ؤ بأحب الكلام إلى الله ، فقال : إن أحب الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده مسلم وغيره .

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ومن قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر مسلم وغيره .

عن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس : مسلم و الترمذى .

وعن سمرة بن جندب قال ، قال رسول الله ﷺ : أحب الكلام إلى الله أربع .. سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لا يضرك بأيهن بدأت مسلم وغيره .
وعن أبى مالك الأشعرى قال ، قال رسول الله ﷺ : الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تمـ ن أو تملأ ما بين السماء والأرض والصلاة نور

والصدقة برهان ، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها . مسلم و الترمذى و النسائى .

عن أبى سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله ﷺ : استكثروا من الباقيات الصالحات قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله أحمد والنسائى والحاكم .

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : خذوا جنتكم ، قالوا يا رسول الله عدو حضر ؟ قال : لا ، ولكن جنتكم من النار ، قولوا : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يأتين يوم القيامة مجتنبات ومعقبات وهن الباقيات الصالحات النسائى وغيره .

عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص عن أبيها أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبح به ، فقال : أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا أو أفضل فقال سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ، سبحان الله عدد ما خلق فى الأرض ، سبحان الله عدد ما بين ذلك ، سبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك - أبو داود و الترمذى و النسائى وابن حيان و الحاكم .

هذا الشعور العميق والإحساس الكبير من سيد الشاكرين بفضل الله ونعمه انتقل من قلب النبى ﷺ إلى قلوب أصحابه فأخذوا يتسابقون إلى حمد الله وشكره .

عن أنس قال : قال أبى بن كعب لأدخلن المسجد فلأصلين ولأحمدن الله بمحامد لم يحمده بها أحد ، فلما صلى وجلس ليحمد الله ويثنى عليه فإذا هو بصوت عال خلفه يقول اللهم لك الحمد كله وبيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره ، لك الحمد إنك على كل شئ قدير ، اغفر لى ما مضى من ذنبى واعصمنى فيما بقى من عمرى وارزقنى أعمالا زاكية ترضى بها عنى وتب على فأتى رسول الله ﷺ فقص عليه فقال : ذاك جبريل عليه السلام ابن أبى الدنيا .

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم أن عبدا من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها

فصعدا إلى السماء فقالا : يا ربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله تعالى وهو أعلم بما قال عبده : ماذا قال عبدى ؟ قالا : يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها أحمد وابن ماجة .

وعن أبى أيوب قال ، قال رجل عند رسول الله ﷺ : الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فقال رسول الله ﷺ : من صاحب الكلمة ؟ فسكت الرجل ورأى أنه قد هجم من رسول الله على شئ يكرهه ، فقال رسول الله من هو ؟ فإنه لم يقل إلا صوابا ، فقال الرجل أنا قلتها يا رسول الله أبغى بها الخير ، فقال النبى ﷺ : والذى نفسى بيده لقد رأيت ثلا عشر ملكا يبتدرون كلمتك أيهم يرفعها إلى الله تعالى الطبرانى .

وعن رفاعة بن رافع قال : صليت خلف رسول الله فعطست ، فقلت : الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى ، فلما صلى النبى ﷺ قال : من المتكلم فى الصلاة فلم يتكلم أحد ، فقال الثانية : فلم يتكلم أحد ، ثم قال الثالثة : فقال رافع أنا يا رسول الله ، فقال والذى نفسى بيده لقد ابتدرها بضع وثلاثون ملكا أيهم يصعد بها : النسائى و الترمذى والبخارى بلفظ آخر .

وعن معاوية أن رسول الله خرج على حلقة من أصحابه فقال ك ما أجلسكم قالوا جلسن ذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا ، قال : آلله ما أجلسكم إلا لك قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه آتانى جبريل فأخبرنى أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة مسلم و الترمذى و النسائى .

هذا الإحساس الصادق بفضل الله وكرمه ومزيد نعمه التى لا تعد ولا تحصى كما انتقل من فؤاد النبى ﷺ إلى قلوب أصحابه انتقل كذلك إلى أحبابه ومتبعيه وسيكون عنوانهم دائما وأبدا الحمد والشكر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . كان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول : الحمد لله ، اللهم ربنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا ، لك الحمد بالإسلام والقرآن ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاه ، كبت عدونا وبسطت رزقنا وأظهرت أمتنا وجمعت فرقتنا ، وأحسنت معاف تنا ومن كل والله ما سألناك ربنا أعطيتنا فلك الحمد على ذلك حمدا كثيرا ، لك الحمد بكل نعمة أنعمت

بها علينا فى قديم أو حديث أو سر أو علانية أو خاصة أو عامة أو حى أو ميت أو شاهد أو غائب ، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت . وكان وهب إذا قام إلى صلاة الوتر قال : الحمد لله الدائم السرمد حمد لا يحصيه العدد ولا يقطعه الأبد وكما ينبغى لك أن تحمد وكما أنت له أهل وكما هو لك ير حق .

وكان على بن الحسين بمنى فظهر من دعائه أن قال : كم من نعمة أنعمتها على قل لك عندها شكرى ، وكم من بلية ابتليتنى بها قل لك عندها صبرى ، فيا من قل شكرى عند نعمه فلم يحرمنى ، ويا من قل صبرى عند بلائه فلم يخذلنى ويا من رآنى على المعاصى والذنوب العظام فلم يهتك سترى ، ويا ذا المعروف الذى لا ينقضى ، ويا ذا النعم التى لا تحول ولا ز ول صل على محمد وعلى آل محمد واغفر لنا وارحمنا .

وقال يوسف بن الحسين :

سمعت ذا النون يقول فى مناجاته : كم من ليلة بارزتك يا سيدى بما استوجبت منك الحرمان وأسرفت بقبيح فعالى منك على الخذلان فسترت عيوبى عن الإخوان وتركتنى مستورا بين الجيران لم تك نى بجريرتى ، ولم تهتكنى بسوء سريرتى ، فلك الحمد على صيانة جوارحى ، ولك الحمد على ترك إظهار فضائحى ، فأنا أقول كما قال الشيخ الصالح : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين .

عن عبد الله بن عمرو قال وهو يطوف بالكعبة : إن العبد إذا قال : سبحان الله .. فهى صلاة الخلائق ، وإذا قال : الحمد لله .. فهى كلمة الشكر التى لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها ، وإذا قال : لا إله إلا الله .. فهى كلمة الإخلاص التى لم يقبل الله من عبد قط عملا حتى يقولها ، وإذا قال : الله أكبر .. ملأ ما بين السماء والأرض ، وإذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .. قال الله تعالى : أسلد واس تسلم الحلية .

السؤال عن النعيم

عن محمود بن لبيد قال : لما نزلت (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) التكاثر . قالوا يا رسول الله عن أى شئ نسأل ؟ وإنما هما الأسودان .. الماء والتمر وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر فعن ماذا نسأل ؟ قال : إن ذلك سيكون .

وعن أبى هريرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبى بكر وعمر ، فقال : ما أخرجكما من بيوتكما فى هذه الساعة ؟ قالا : الجوع يا رسول الله ، قال : وأنا والذى نفسى بيده أخرجنى الذى أخرجكما ، قوموا فقاموا معه فأتوا رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته ، فلم رأته المرأة قالت : مرحبا وأهلا ، فقال لها رسول الله ﷺ : أين فلان ؟ قالت : ذهب يستعذب لنا الماء إذا جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله وصاحبيه ، ثم قال ، الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى ، فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر ورطب وقال : كلوا وأخذ المدية فقال رسول الله : إياك والحلوب ، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما أن شبعوا وترووا ، قال رسول الله ﷺ : لأبى بكر وعمر ، والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة رواه مالك بلاغا و مسلم و فظ له و الترمذى ، والأنصارى هو أبو الهيثم .

وفى رواية ابن عباس : فكبر ذلك على أصحابه فال : بل إذا أصبتم مثل هذا فضربتم بأيديكم فقولوا بسم الله فإذا شبعتم فقولوا الحمد لله الذى أشبعنا وأنعم علينا فأفضل فإن هذا كفاف بهذا الطبرانى وابن حيان ، والأنصارى هنا هو أبو أيوب ولا مانع من تكرر الحادثة ، ثم قال لأبى الهيثم إذا جاءنا سبى فأتنا نأمر لك بخادم ، فأتى بسبى فجاء أبو الهيثم فقال له رسول الله ﷺ : اختر أيهما شئت فقال يا رسول الله اختر لى فقال : المستشار مؤتمن مرتين أو ثلاثة ، ثم قال : خذ هذا واستوصى به خيرا ، فإنى رأيته يصلى وإنى نهيت عن قتل المصلين فأخذه أبو الهيثم فانطلق إلى منزله ثم قال إن رسول الله أوصانى به خيرا فأنت حر لوجه الله ، وفى رواية ولك سهم من مالى البيهقى فى الشعب .

وعن ابن عباس فى قوله تعالى : (**لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**) التكاثر 8 .

قال النعيم صحة الأبدان والأبصار والأسماع ، قال : يسأل الله العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم وهو قوله :

(**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**) الإسراء 36 .

وشرب ابن عمر ماء باردا فبكى فاشتد بكاؤه فقيل : ما يبكيك : قال تذكرت آية فى كتاب الله : (**أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ**) الأعراف 50 . وقيل الأمن الصحة قال الشاعر :

أخى وإن كان جمع المال يعجبنى	فليس يعدل عندى صحة الجسد
المال زين وفى الأولاد مكرمة	والسقم ينسيك ذكر المال والولد

نعمة العقل

عن قرة بن هبيرة أنه أتى النبى ﷺ فقال : إنه كان لنا أرباب تعبد من دون الله ، فدعوناهن فلم يجبن وسألناهن فلم يعطين ، وجئناك فهدانا ، فقال رسول الله ﷺ : أفلح من رزق لبا . وقال عمر بن الخطاب : حسب الرجل دينه ومرؤته خلقه وأصله عقله . وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى : أنفع العقل ما عرفك نعم الله عليك وأعانك على شكرها وقام بخلاف الهوى . وقال أبو عمرو الزجاجى : كان الناس فى الجاهلية يتبعون ما استحسنت عقولهم وطبائعهم ، فجاء النبى ﷺ فردهم إلى الشريعة والاتباع بالعقل الصحيح الذى يستحسن محاسن الشريعة ويستقبح ما تستقبحه .

وسئل السرى عن العقل فقال : ما قامت به الحجة على مأمور ومنهى . وقال ذو النون : والذى رفض الدنيا بحب الله هم قوم من أهل المعرفة والعقل فى الآخرة . وقال تجوع وتخلى ترى العجب من أحب الله عاش ومن مال إلى غيره طاش والأحمق يغدو ويروح فى لا شئ ، والعاقل عن خواطر نفسه فتاش ، والكريم يعطى قبل السؤال ، فكيف يبخل بعد السؤال ؟ ويقدر قبل الاعتذار ، فكيف يحقد بعد الاعتذار ؟ ويعفو قبل الامتناع ، فكيف يطمع الأزورار ؟ .

وقيل لجعفر بن محمد ما الشئ الذى يعول عليه المرء ، قال : عقله الذى يرجع إليه فيه ، قيل فأين العقل من الهوى ، هما جميعا فى وعاء ، قيل : فأيهما على صاحبه

أقوى ، قال : العدل من سلطان العقل ، والجور من سلطان الهوى ، والنفس بينهما ، فمن أطاع عقله سدده وأرشده ومن مال به هواه أضله وأهلكه .

قال ابن القرية الرجال ثلاثة : عاقل وأحمق وفاجر .. فالعاقل إن كلم أجاب وإن سمع وعى وإن نطق ، نطق بصواب .. والأحمق إن تكلم عجل وإن حدث ذهل وإن حمل على القبيح فعل . والفاجر إن ائتمنته خانك وإن حادثته شانك .

وعن عروة بن الزبير قال : قيل لقيس بن ساعدة ، ما العقل ؟ قال : معرفة الإنسان نفسه ، قيل فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . وكان عبد الله الساجى يقول : كيف يكون عاقلا من لم يكن لنفسه ناظرا ، أم كيف يكون عاقلا من يطلب بأعمال طاعته من المخلوقين ثوابا عاجلا ، أم كيف يكون عاقلا من كان بعيوب نفسه جاهلا وفى عيوب غيره ناظرا ، أم كيف يكون عاقلا من لم يكن لما يراه فى نفسه من النقص وأهل زمانه محزونا باكيا ، أم كيف يكون عاقلا من كان فى قلة الحياء من الله عز اسمه متماديا .

عن وهب بن المنبه قال حكمة آل داود حق : على العاقل ألا يشغل عن أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يخلو فيها إلى خوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات و جـ ام للقلوب وفضل يلقاه ، وعلى العاقل ألا يظعن إلا فى إحدى ثلاث : زاد معاد أو مرمة لمعاش أو لذ فى غير محرم . وفى رواية وفضل وبلغة . وعلى العاقل أن يكون عالما بزمانه ممسكا للسانه مقبلا على شأنه .

وقيل لابن المبارك : أى خصلة فى الإنسان خير ؟ قال غريزة عقل ، قال فإن لم يكن قال فأدب حسن ، قيل فإن لم يكن : قال : أخ يق يشاوره ، قيل فإن لم يكن ، قال : فصمت طويل ، قيل فإن لم يكن ، قال : فموت عاجل .

وسئل بعض الـ فاء : أى شئ يؤيد العقل وأى شئ أشد به إضرارا ؟ قال : أما أشده تأييدا فمشاورة العلماء وتجربة الأمور وحسن التثبت ، وأشد به إضرارا فالاستبداد والتهاون والعجلة .

وقال مالك بن أنس : العاقل من عقل عن الله عز وجل أمر وصبر على بلوى زمانه وقال أبو بكر بن عياش : العقل إمساك اللسان والتؤدة والحق ذرب اللسان وشدة البيان .

وقال يزيد بن هارون : من كان علمه أكثر من عقله خش ـ عليه ، ومن كان عقله أكثر من علمه رجوت له . وقال ، هب بن منبه لما بلغ ذو القرنين مطلع الشمس قال له ملكها يا ذا القرنين صف الناس ، قال : إن محادثتك من لا يعقل بمنزلة من يضع الموائد لأهل القبور ومحادثتك من لا يعقل بمنزلة من يبل الصخرة حتى تبتل أو يطبخ الحديد يريد أدمه ونقل الحجارة من رؤوس الجبال أيسر من محادثة من لا يعقل .

وقال منصور بن المعتمر : اللهم اجمع على الهدى أمرنا واجعل التقوى زادنا والجنة مآبنا ، وارزقنا شكرا يرضيك عنا ، وورعا يحجزنا عن معاصيك وخل ا نعيش به بين الناس وعقلا ينفعنا به ، فقيل له فى ذلك فقال : إن الرجل ليكون عنده ويكون عنده ولا يكون له عقل فلا يكون عنده شئ . وقال الحليمى : من أعظم نعم الله تعالى جدة الاستدلال بها على المنعم فإن فيها الدليل عليه وعلى قدرته وعلمه وحكمته ووحدانيته وقد نبه الله على ذلك فى غير موضع من كتابه فإنه تعالى أمن علينا بأن جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة بعد أن أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا : (**وفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**) الذاريات 21 . أى لا عقول لكم تدركون بها الخير من الشر وتعرفون بها نعمه وإن نزعها أو بعضها فمن إله غيره يأتيكم بها ، لا أحد سواه جل جلاله ، وإذا تخلق الإنسان بالصبر والشكر صفا قلبه ، وحلم طبعه ، وعفا عن الناس زلاتهم ، لذا كان لزاما علينا أن نتحدث عن الصفح والعفو والـ م فنقول وبالله التوفيق .

بسم الله الرحمن الرحيم

الصفح والعفو والحلم

إن أرباب البصائر النيرة والعزائم الصلبة والقلوب السليمة والفطر المستقيمة تصبوا إلى الخير وتنبوا عن الشر وتتوقى الرذيلة وتبتعد عن منابع الغل والحقد والحسد والغضب ، وتتمسك بالصفح والعفو وتلجأ إليه فى جميع أمورها لما تجد فى هذا من سكينة النفس وطمأنينة القلب ، قال ابن القيم : وفى الصفح والعفو والحلم وشرف النفس وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام ما ليس شئ منه فى المقابلة والانتقام مدارج السالكين ، ـــ ، ص 319 .

عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال : قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيه - أحمد والبيهقى .

فرعاية الله وعنايته تتجه إلى قلوب المؤمنين الأصفياء السمحاء فتغشاهم بالرحمات والبركات وتبعدهم عن وساوس الشيطان وثوران الأحقاد وتذكرهم بما كان يقول النبى ﷺ فى الصباح والمساء : اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر أبو داود .

من أجل هذا هم فى سعادة غامرة وطمأنينة لا نهاية لها وعزة لا يصل إليها أصحاب التيجان ولا يقترب من ساحتها الملوك والسلاطين ، فهم بعيدون عن الغضب والانتقام والتشفى بما منحهم الله من قوة إيمانية ذاتية تجعلهم يميلون إلى العفو ويجنحون

إلى الصفح ولا يتدلون إلى الصغائر ، وهم الأشداء الأقوياء الذين لا تؤثر فيهم النكبات ولا تزحزحهم العواصف العاتية لأنهم مع الله ملتزمون بشرعه وأمره ونهيه ، قال رسول الله ﷺ : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب : متفق عليه .
عن أبى هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله مرنى بعمل وأقلل ، قال : لا تغضب ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب - متفق عليه . وفى رواية لأحمد عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : قلت يا رسول الله أوصنى ، قال : لا تغضب ، قال الرجل : فذكرت حين قال النبى ﷺ ما قال ، فإذا الغضب يجمع الشر كله : ورواه مالك . وقوله لا تغضب يحتمل أمرين : أحدهما أن يكون مراده الأمر بالأسباب التى توجب حسن الخلق فإن النفس إذا تخلقت بالأخلاق الج لة وصارت لها عادة أوجب لها ذلك رفع الغضب عند حصول أسبابه ، والثانى أن يكون المراد لا تعمل بمقتضى الغضب إذا حصل لك بل جاهد نفسك على ترك تنفيذه والعمل بما يأمر به فإن الغضب إذا ملك ابن أدم كان كالآمر الناهى له ، وإذا لم يمتثل ما يأمره به غضبه وجاهد نفسه اندفع عنه شر الغضب وربما سكن غضبه وذهب فكأنه حينئذ لم يغضب إتحاف السادة المتقين ، ص 390 .

والغضب يجمع الشر كله : لأن الحسد من نتائج الحقد والحقد من نتائج الغضب فهناك تلازم بين هذه الأشياء وذم بعضها يستلزم ذم الآخر وذم الفرع ذم الأصل والعكس بالعكس ، قال تعالى : (**إذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وعَلَى المُؤْمِنِينَ وأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وأَهْلَهَا وكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** الفتح 26 . ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب الباطل ومدح المؤمنين بما أنزل عليهم الله من السكنية والطمأنينة الناشئ عنها إلزامهم كلمة التقوى وأنهم هم أهلها وأحق بها ، و قال تعالى : (**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** النساء 54 .

وفى قوله ﷺ : لا تغضب ، قال بعض المحققين :

الغضب من نزغات الشيطان يخرج به الإنسان عن حد الاعتدال صورة وسيرة حتى يتكلم بالباطل ويفعل المذموم شرعا وعرفا وينوى الحقد والبغض وغير ذلك من القبائح

التى كلها من أثر سوء الخلق ، بل قد يكفر ، ولهذا قال : لا تغضب وأصر عليه مع إلحاح السائل مريدا للزيادة أو التبديل فكأنه قال له : حسن خلقك .

: مرقاة المفاتيح ـ ص 305 .

وقال التوربشتي : قد كان ﷺ مكاشفا بأوضاع الخلق عارفا د دوائهم يضع الهنا موضع النقب يأمرهم بما هو أولى بهم فلما استوصاه الرجل وقد رآه مملوء بالقوة الغضبية لم ير له خيرا من أن يتجنب عن دواعى الغضب ، ويزحزح نفسه عنه . عن عروة السعدى قال ، قال رسول الله ﷺ : إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ . أبو داود و أحمد . فالشيطان هو الذى يشعل نار الغضب ويلهب أوارها ، من أجل هذا أمرنا بمحاربته والاستعاذة منه قال أرباب الإشارات : لك عدوان أحدهما ظاهر والآخر باطن وأنت مأمور بمحاربتهما ، قال تعالى فى العدو الظاهر (**قاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ**) التوبة 29 ، و قال فى العدو الباطن (**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواًّ**) فاطر آية 6 ، إذا حاربت عدوك الظاهر كان مددك الملك كما قال تعالى : (**يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**) وإذا حاربت عدوك الباطن كان مددك الملك كما قال تعالى (**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**) وأيضا فمحاربة العدو الباطن أولى من محاربة العدو الظاهر لأن العدو الظاهر إن وجد فرصة ففى متاع الدنيا ، والعدو الباطن إن وجد فرصة ففى الدين واليقين ، وأيضا فالعدو الظاهر إن غلبنا كنا مأجورين ، والعدو الباطن إن غلبنا كنا مفتونين ، وأيضا من قتله العدو الظاهر كان شهيدا ومن قتله العدو الباطن كان طريدا ، فكان الاحتراز عن شر العدو الباطن أولى ، وذلك لا يكون إلا بأن يقول الرجل بقلبه ولسانه : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وقال الشيطان عدوك وأنت عنه غافل غائب ، قال تعالى : (**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ**) الحجر 27 ، فعلى هذا لك عدو غائب ولك حبيب غالب لقوله تعالى : (**واللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ**) يوسف 21 .

فإذا قصدك العدو الغائب فافزع إلى الحبيب الغالب والله أعلم بمراده : الفخر الرازى ، ـ ص 99 . . **وفى الحديث** : إن الغضب جمرة توقد فى القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا فليجلس ، وإن كان جالسا

فلينم فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو ليغتسل فإن النار لا يط ؤ ها إلا الماء وفى رواية لا ن الغضب جمرة فى قلب ابن أدم ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيئا فليلصق خده بالأرض ، قال الغزالى وكان هذا إشارة إلى السجود وتمكن أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب تستشعر به النفس الذل فتزيل به العزة والزهو الذى هو سبب الغضب واستنشق عمر بماء عند غضبه وقال : إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب الزواجر . وعن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : ثلاث من كن فيه آواه الله فى كنفه وستر عليه برحمته وأدخله فى محبته . من إذا أعطى شكر وإذا قدر غفر وإذا غضب فتر : الحاكم وقال صحيح الإسناد .

عن عكرمة فى قوله تعالى : (**وَسَيِّداً وَحَصُوراً** آل عمران 39 ، قال : السيد هو الذى لا يغلبه الغضب . وقال على بن زيد أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول : فأطرق عمر زمانا طويلا ثم قال : أردت أن يستفزنى الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله منى غدا ؟ .

وقال ابن عمر ، قال النبى ﷺ : من كف غضبه ستر الله عورته ، و فى رواية من كف لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه - ابن أبى الدنيا .

وقال أبو الدردا ، قلت يا رسول الله : دلنى على عمل يدخلنى الجنة ، قال : لا تغضب ابن أبى الدنيا والطبرانى بإسناد حسن . قال ابن عمر ، قال رسول الله ﷺ : ما تجرع عبد أفضل عند الله عز وجل من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى - أحمد وعن ابن عباس فى قوله تعالى : (**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**) المؤمنون 96 ، قال : الصبر عند الغضب والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا عصمهم الله وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم قريب البخارى .

وقوله (**هِيَ أَحْسَنُ** فيه مبالغة عظيمة حيث عدل عن الحسنة لى الأحسن مع الرخصة المفهومة من قول : (**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**) فصلت 34 ، أو المراد أنها أحسن من مجازاة السيئة بالسيئة فإنها حسن دائما سميت سيئة فى الآية للمشاكلة أو بالنسبة

والإضافة إلى الأحسن . والحاصل أن هذه الخصلة التى هى أحسن تقلب العداوة محبة وترفع الأخلاق الذميمة من الحقد والحسد والغيبة ونحوها ، **قال الطيبى** : هذا التفسير على أن تكون : لا ، فى قوله تعالى (**ولاَ لسَّيِّئَةُ**) فصلت 34 ، مزيدة والمعنى لا تستوى الحسنة ولا السيئة فـ ; هذا يراد بالتى هى أحسن التى هى حسنة ، فوضع الأحسن ليكون أبلغ فى الدفع بالحسنة وإذا لم تجعل لا مزيدة يكون المعنى أن الحسنة والسيئة متفاوتتان فى أنفسهما فخذ بالحسنة التى هى أحسن من أختها فإذا اعترضتك حسنات فادفع بها السيئة التى ترد عليك من بعض أعدائك ، ومثاله رجل أساء إليك إساءة فالحسنة أن تعفو عنه والتى هى أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك مثل أن يذمك فتمدحه ، فإنك إذا فعلت ذلك انقلب المشاق مثل الولى الحميم مصفاة لك المرق ـ ـ ص 315 .

وقال رسول الله ﷺ : من كظم ـ ذ ا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين يزوجه منها ما شاء الله أصحاب السنن الأربعة . وعن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : قال موسى بن عمران عليه السلام : يا رب من أعز عبادك عندك ، قال : من إذا قدر غفر البيهقى .

وقد قالو : العبادة هى ص ى غاية الخضوع والتذلل ولذلك لا تستعمل إلا لله تعالى ، مع أن الغفران مع القدرة إنما هو من باب التخلق بأخلاق الله سبحانه وأشار إلى هذا المعنى فى قوله (**ن تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُواً قَدِيراً**) النساء 94 ، وفيه تنبيه له عليه السلام على العفو لما كان الغالب عليه الحدة الجلالية ليحصل له الاعتدال كما يقتضيه الكمال بل ينبغى ، غلب نعت الجمال كما أشار إليه الحديث القدسى : غلبت رحمتى غضبى . ولكون الرحمة غالبة على نبي ن ا ﷺ وصف بكونه رحمة للعالمين وأمته أمة مرحومة فإن الراحمين يرحمهم الرحمن . وفى الجامع الصغير : من عفا عند المقدرة عفا الله عنه يوم العسرة المرقا ـ ـ ص 317 .

روى ابن عساكر من حديث على : ينادى مناد يوم القيامة من بطنان العرش ألا فليقم من كان أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا عن أخيه .

قال عمر بن الخطاب : من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال ابن عباس : قدم عيينة بن حصين

فنزلا على الحر بن قيس وكان مما يدنيهم عمر وكان القراء أصحاب مجلس عمر ، فقال عيينة لابن أخيه الحر : يا ابن أخى هل لك وجه عند هذا الأمير تستأذن عليه ؟ فأذن له عمر فدخل ، فقال : يا ابن الخطاب ما تعطينا الجزل وما تحكم بيننا بالعدل ؟ فغضب عمر حتى هم به فقال الحر : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه : (**خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ** الأعراف 99 . وإن هذا من الجاهلين ، قال فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافا عند كتاب الله البخارى وانفرد به .

وقال محمد بن كعب القرظى : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان بالله .. إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق وإذا قدر لم يتناول ما ليس له . وسب رجل أبا بكر فقال : ما ستر الله عنك أكثر فكأنه كان مشغولا بالنظر فى تقصير نفسه عن أن يتقى الله حق تقاته ويعرفه حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان وذلك لجلالة قدره .

إتحاف السادة المتقين .

وسب رجل الشعبى فقال : إن كنت صادقا فغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك . وقيل لأبى يزيد البسطامى : لحيتك أفضل أم ذنب الكلب ؟ فقال : إن مت وأنا مؤمن فلحيتى وإلا ذنب الكلب ، فكان همه مشغولا بحسن الخاتمة .

قال العرجى :

وإذا غضبت فكن وقورا كاظما	للغيظ تبصر ما تقول وتسمع
فكفى به شرفا تصبر ساعة	يرضى بها عنك الإله وترفع

وقال عروة بن الزبير :

لن يبلغ المجد أقوام وإن شرفوا	حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مشرقة	لا عفو ذل ولكن عفو إكرام

عن أبى كبشة الأنمارى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ثلاث أقسم عليه ن وأحدثكم حديثا فاحفظوه ، قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزا فاعفوا يعزكم الله ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها أحمد والترمذى و قال حسن صحيح .

عن ِ. رو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ : إذا جمع الله الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل ؟ قال : فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعا إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون ، وما فضلكم ؟ فيقولون : كنا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسئ إلينا حلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين الأصبهانى .

عن أنس قال : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال له عمر : ما أضحك يا رسول الله ؟ بأبى أنت وأمى ، قال رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة ، فقال أحدهما يا رب خذ لى مظلمتى من أخى ، فقال الله : كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شئ ؟ قال : يا رب فليحمل من أوزارى وفاضت عينا رسول الله بالبكاء ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس أن يحمل من أوزارهم ، فقال الله للطالب ارفع بصرك فانظر فرفع ، فقال يا رب : أرى مدائر من ذهب وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ أى نبى هذا ؟ ، لأى صديق هذا ؟ أو لأى شهيد هذا ؟ قال : لمن أعطى الثمن قال : يا رب ومن يملك ذلك ؟ قال : أنت تملكه ، قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك ، قال يا رب إنى قد عفوت عنه ، قال الله : فخذ بيد أخيك وأدخله الجنة ، فقال رسول الله عند ذلك اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، فإن الله يصلح بين الناس الحاكم و البيهقى .

قال تعالى : (**خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ * وإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**) الأعراف الآيتان 99 ، 200 .

قال ابن عباس قوله (**خُذِ العَفْوَ** يعنى : خذ ما عفا لك من أموالهم وما آتوك به من شئ فخذه وكان هذا قبل أن تنزل (**بَرَاءَةٌ**) بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات قاله السدى ابن كثير ، ـ ص 534 .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (**خُذِ العَفْوَ** أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين ثم أمره بالغلظة عليهم واختاره ابن جرير .

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن الزبير قال : إنما أنزل " خذ العفو " من أخلاق الناس وهذا هو المشهور لما روى عن سفيان بن عيينة عن أنس قال : لما أنزل الله على نبيه ﷺ (**خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ**) .

قال رسول الله ﷺ : ما هذا يا جبريل ؟ قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك . ابن جرير وابن أبى حاتم .

عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت : يا رسول الله : أخبرنى بـ ضـ ل الأعمال ، فقال : يا عقبة صل من وصلك وأعط من حرمك وأعرض عمن ظلمك أحمد .

وقال ابن كثير : وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف ويدخل فى ذلك جميع الطاعات وبالإعراض عن الجاهلين وذلك وإن كان أمرا لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالإعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله ، ولا بالصفح عمن كفر الله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين ـ رب ، وأنشد بعضهم :

خذ العفو وأمر بعرف كما أمرت وأعرض عن الجاهلين

ولن فى الكلام لكل الأنام فمستحسن من ذوى الجاه لين

وقال بعض العلماء : الناس رجلان .. فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه ، وإما مسئ فمره بالمعروف فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر فى جهله فأعرض عنه ، فلعل ذلك أن يرد كيده ، كما قال الله تعالى : (**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ**) . المؤمنون 96 ـ 98 ، و قال تعالى :

(**وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا** (أى هذه الوصية) **إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**) فصلت 34 36 . وقال فى هذه السورة :

(**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** فهذه الآيات الثلاث فى الأعراف والمؤمنون و (**حم**) السجدة لا رابع لهن ، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصى من الإنس بالمعروف والتى هى أحسن فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ، ولهذا قال : (**فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**) فصلت آية 43 ، ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجن فإنه لا يكفه عن الإحسان

وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك ابن كثير ـــ ـ ص 37ـ .

قال ابن جرير فى تفسير قوله تعالى : (**وإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ**) وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهلين ويحملك على مجازاتهم (**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** فاستجر بالله من نزغه (**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ** إن الله الذى تستعيذ به من نزغ الشيطان سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شئ عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزل : (**خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ** قال رسول الله ﷺ : يا رب كيف بالغضب ؟ فأنزل الله : (**وإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** . وأصل النزغ : الفساد إما بالغضب أو غيره ، قال تعالى :

(**وقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**) الاسراء 53ـ . والعياذ : الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر ، وأما الملاذ ففى طلب الخير كما قال المتنبى :

يا من ألوذ به فيما أؤمل ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره

هؤلاء المطيعون لما أمر الله به والمجتنبون لما عنه نهى وزجر إذا عرض لهم بذنب أو غيره تذكروا عقابه وثوابه ووعده ووعيده : (**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** الأعراف 201 .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه : أن شابا كان يتعبد فى المسجد فهويته امرأة فدعته إلى نفسها وما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل فذكر هذه الآية " إن الذين اتقوا فخر مغشيا عليه ثم أفاق فأعادها فمات فجاء عمر فعزى فيه أباه وكان قد دفنه ليلا فذهب فصلى على قبره بمن معه ثم ناداه عمر فقال : يا فتى (**ولِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**) الرحمن 46 ، فأجابه الفتى من داخل القبر : يا عمر قد أعطانيهما ربى عز وجل فى الجنة مرتين ابن كثير ، ـ ص 39ـ .

الحلم :

وهو من أفضل الصفات التى ينبغى للمسلم أن يتحلى بها وإلا فلا فائدة فى عبادته ولا قبول لعمله ، قال ابن عباس ، قال رسول الله ﷺ : ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشئ من عمله تقوى تحجزه عن معاصى الله عز وجل ، وحلم يكف به السفيه وخلق يعيش به فى الناس " أبو نعيم والطبرانى .

وفى رواية للبزار عن أنس :

ثلاث من كن فيه فقد استوجب الثواب واستكمل الإيمان .. خلق يعيش به فى الناس ، وورع يحجزه عن محارم الله ، وحلم يرده عن جهل الجاهل .

عن عبادة بن الصامت قال ، قال رسول الله ﷺ : ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : تحلم على من جهل عليك وتعفو عن من ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك البزار والطبرانى .

وقيل فى قوله تعالى : (**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ** آل عمران 79 أى حلم علماء ، وقال مجاهد : (**وإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً** الفرقان 72 ، إذا أوذوا صفحوا . وعن الحسن فى قوله تعالى (**وإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً** الفرقان 63 .

قال : حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا ، وقال على : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن لا تباهى الناس بعبادة الله وإذا أحسنت حمدت الله ، تعالى وإذا أسأت استغفرت الله تعالى .

وقال عمر : تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وقال الحسن : اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم . وقال أنس فى قوله تعالى : (**فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ ولِيٌّ حَمِيمٌ**) فصلت 34 . فقلت هو الرجل الذى يشتمه أخوه فيقول : إن ت كاذباً فغفر الله لك وإن كنت صادقاً فغفر الله لى .

وقال معاوية لعرابة بن أوس :

بم سدت قومك يا عرابة ؟ قال يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطى سائلهم وأسعى فى حوائجهم ، فمن فعل فعلى فهو مث ; ومن جاوزنى فهو أفضل منى ومن قصر عنى فأنا خير منه .

وقال محمود الوراق :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب　　　وإن كثرت منه على الجرائم

وما الناس إلا واحد من ثلاثة　　　شريف ومشر ف ومثل مقاوم

فأما الذى فوقى فأعرف قدره　　　وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذى دونى فإن قال صنت عن　　　إجابته عرض ؛ وإن لام لائم

وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا　　　تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

وعن على بن الحسين : أنه سبه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم ، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمودة .. الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعده من الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى المدح بعد الذم ، اشترى جميع ذلك بشئ من الدنيا يسيرا : الإحياء .

وعن الأحنف : أن رجلا شتمه فسكت عنه وأعاد الرجل فسكت عنه فقال الرجل : والهفاه ، ما يمنعه أن يرد على إلا هوانى عنده . وشتمه رجل وجعل يتبع حتى بلغ حيه فقال الأحنف : يا هذا إن كان بقى فى نفسك شئ فهاته وانصرف لا يسمعك بعض سفهائنا فتلقى ما تكره . وكان رحمه الله يقول : من لم يصبر على كلمة سمع كلمات ورب غيظ ، قد ت ر ته مخافة ما هو أشد منه عيون الأخبار . ص 284 .

وقال الأحنف بن قيس : ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المنقرى ، لأنه قتل ابن أخ له بعض بنيه ، فأتى بالقاتل مكتوفا يقاد إليه ، فقال : ذعرتم الفتى ، ثم أقبل على الفتى قال : بئس ما فعلت ، نقصت عد ك وأوهنت عضدك ، مت عدوك وأسأت بقومك وأثمت بربك وقطعت رحمك ور يت نفسك بسهمك ، خلوا سبيله واحملوا إلى أم المقتول ديته فإنها غريبة ، ثم انصرف القاتل وما حل قيس حبوته ولا تغير وجهه : البداية والنهاية ـ ص 327 .

وقيل أن أويسا القرنى : كان إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم : إخوتاه إن كان ولا بد فارمونى بالصغار حتى لا تدموا ساقى فتمنعونى عن الصلاة . الإحياء .

واجتاز إبراهيم بن أدهم يوما فى سكة فطرحت عليه إجانة رماد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيئا ، فقيل ألا زبرتهم ؟ فقال إن من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب . وخرج رحمه الله إلى بعض البرارى فاستقبله رجل جندى فقال : أنت عبد ؟ قال : نعم ، فقال له : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة فقال الجندى : إنما أردت العمران ، فقال : هو المقبرة ، فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده إلى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر ؟ فأخبرهم الجندى ما قال له ، فقالوا هذا إبراهيم بن أدهم ، فنزل الجندى عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر إليه ، فقيل بعد ذلك له : لم قلت له : أنا عبد ؟ فقال ، إنه لم يسألنى عبد من أنت ؟ ، بل قال أنت عبد ؟ فقلت نعم ، لأنى عبد الله فلما ضرب رأسى سألت الله له الجنة ، فقيل كيف وقد ظلمك ؟ فقال علمت أننى أؤجر على ما نالنى منه فلم أرد أن يكون نصيبى منه الخير ونصيبه منى الشر الإحياء – ص 76 .

وكان معن بن زائدة أميرا على العراق وكان حليما كريما يضرب به المثل فيهما وقد قدم عليه إعرابى يمتحن حلمه فقال له :

أتذكر إذ لحافك جلد شاة … وإذ نعلاك من جلد البعير

قال نعم أذكر ذلك ولا أنساه ، فقال :

فسبحان الذى أعطاك ملكا … وعلمك الجلوس على السرير

قال سبحانه وتعالى ، قال :

سألت مسلما إن عشت دهرا … على معن بتسليم الأمير

قال : يا أخا العرب ، السلام سنة ، قال :

سأرحل عن بلاد أنت فيها … ولو جار الزمان على الفقير

قال يا أخا العرب ، إن جاورتنا فمرحبا بك وإن رحلت فمصحوبا بالسلامة ، قال :

فجد لى يا ابن ناقصة بشئ … فإنى قد عزمت على المسير

قال أعطوه ألف دينار يستعين بها على سفره فأخذها وقال :

قليل ما أتيت به وإنى لأطمع منك بالمال الكثير

قال أعطوه ألفا آخر ، فقال الإعرابى :

سألت الله أن يبقيك ذخرا فمالك فى البرية من نظير

فقال أعطوه ألفا آخر ، فقال : أيها الأمير ما جئت إلا مختبرا حلمك لما بلغنى عنه فلقد جمع الله فيك من الحلم لو قسم على أهل الأرض لكفاهم ، فقال معن : يا غلام ، كم أعطيته على نظمه ؟ قال : ثلاثة آلاف دينار ، فقال : أعطه على نثره مثلها ومضى فى طريقه شاكرا .

خرج زين العابدين على بن الحسين يوما من المسجد فسبه رجل ، فانتدب الناس إليه فقال : دعوه ، ثم أقبل عليه ، فقال : ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل فألقى زين العابدين إليه خميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم ، فكان الرجل بعد ذلك إذ رآه يقول : إنك من أولاد الأنبياء . ونال منه رجل يوما فجعل يتغافل عنه ، يريه أنه لم يسمعه ، فقال له الرجل : إياك أعنى ، فقال له : على ، وعنك أغضى .

وقال عبد الرزاق : سكبت جارية لعلى بن الحسين عليه ماء ليتوضأ فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجه ، فرفع رأسه إليها ، فقالت الجارية : إن الله يقول : **(والْكَاظِمِينَ الغَيْظَ)** آل عمران آية 34 ، فقال قد كظمت غيظى ، قالت : **(والْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ، فقال : عفا الله عنك ، فقالت : **(واللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ** ، قال : أنت حرة لوجه الله . وروى ابن أبى الدنيا أن غلاما سقط منه سفود وهو يشوى شيئا فى التنور على رأس صبى لعلى بن الحسين فقتله ، فنهض على بن الحسين مسرعا فلما نظر إليه قال للغلام : إنك لم تتعمد أنت حر ثم شرع فى جهاز ابنه .

أوصى جعفر الصادق عنوان البصرى فقال : أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتى لمن يريد الطريق إلى الله تعالى والله أسأل أن يوفقك ، ثلاثة فى رياضة النفس وثلاثة فى الحلم وثلاثة فى العلم : فأما اللواتى فى الرياضة : فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنه يورث الحماقة والبله ، ولا تأكل إلا عند الجوع وإذا أكلت فكل حلالا ، فإن رسول الله ﷺ يقول : ما ملأ آدمى وعاء شر من بطنه فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ، وأما اللواتى هن فى الحلم : فمن قال لك إن قلت واحدة سمعت عشرا فقل له إن قلت عشرا لم تسمع واحدة ، ومن شتمك فقل إن كنت صادقا فأسأل الله أن يغفر لى وإن كنت كاذبا فأسأل الله أن يغفر لك ، ومن توعدك فعده بالنصيحة والدعاء ، وأما اللواتى فى العلم : فاسأل العلماء ما جهلت وإياك أن تسألهم تعنتا وتجربة ، وإياك أن تعمل برأيك ، وخذ بالاحتياط فى جميع ما تجد إليه سبيلا واهرب من الفتيا هربك من الأسد ولا تجعل رقبتك فى النار جسرا .

وقال يوسف بن أسباط : علامة حسن الخلق عشر خصال : قلة الخلاف ، وحسن الإنصاف ، وترك طلب العثرات ، وتحسين ما يبدو من السيئات ، والتماس المعذرة ، واحتمال الأذى ، والرجوع بالملامة على النفس ، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون غيره وطلاقة الوجه للصغير والكبير ، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه . وسئل سهل عن حسن الخلق فقال : أدناه احتمال الأذى وترك المكافأة والرحمة للظالم الاستغفار له والشفقة عليه الإحياء – ص 77 .

قال السرى السقطى : الحلم على خمسة أقسام ، **الأول** : حلم غريزى وهو هبة من الله تعالى للعبد به يعفو عمن ظلمه ويعطى من حرمه ويصل به رحمه وإن قطعه ، **والثانى** : حلم تحالم وهو أن يكظم العبد غيظه رجاء الثواب وفى القلب كراهة ، **الثالث** : حلم مذموم وهو حلم العبد على من جنى عليه رياء وسمعة يعنى يرائى به جلساءه وهو حاقد ساكت ، **الرابع** : حلم كبر وهو أن الشخص لا يراه أهلا بأن يجاوبه ، **الخامس** : حلم مهابة ومذلة تنبيه المغترين ص 72 .

وكان الفضيل إذا قيل له : إن فلانا يقع فى عرضك ، يقول : والله لأغيظن من أمره يعنى إبليس ، ثم يقول : اللهم إن كان صادقا فاغفر لى وإن كان كاذبا فاغفر له .

العفو والإحسان فيه

والعفو معناه أن تستحق حقا وتبرأ عنه من قصاص أو غرامة ، قال تعالى : (**خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ**) الأعراف 99 . و قال تعالى : (**وأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** البقرة 237 . وهذا كثير فى سنة رسول الله ﷺ القولية والفعلية التى لا حصر لها . عن ابن مسعود قال : كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون البخارى و مسلم .

وهذه القصة حدثت مع النبى ﷺ عندما حاول المشركون فى أحد إغتياله وألجأوه إلى حفرة ليكب فيها ونظر إلى زهرة أصحابه فوجدهم مضرجين فى دمائهم ونظر إل يه أصحابه فإذا خده قد شق وسنه قد سقطت فى هذه الأزمة قيل له : ادع على المشركين ، فقال : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون . وعن عائشة أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيته منهم يوم العقبة إذا عرضت نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد بن كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسى وإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بأمرك فيما شئت إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال النبى ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا متفق عليه .

ومن ذلك أيضا ما رواه البخارى : توفى عبد الله بن أبى بن سلول كبير المنافقين فكفنه النبى ﷺ فى ثوبه وأراد أن يستغفر له ويصلى عليه ، فقال له عمر : أتصلى علي ه وقد نهاك ربك ؟ قال : إنما خيرنى فقال : (**استَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ**) التوبة 80 ، وسأزيده على السبعين وصلى عليه فأنزل الله (**ولاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ولاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ**) التوبة 84 ، فترك الصلاة عليهم البخارى .

وهذا يسمى بالإحسان فى العفو وهو أن يقابل إساءة المسئ إليه بالإحسان فيحسن إليه ما أساء هو إليه ويهون هذا عليه علمه بأنه قد ربح عليه وأنه قد أهدى إليه حسناته ومحاها من صحيفته وأثبتها فى صحيفة من أساء إليه ، فينبغى لك أن تشكره وتحسن إليه بما لا نسبة له إلى من أحسن به إليك . ويهون عليك أيضا : علمك بأن الجزاء من جنس العمل فإن كان هذا عملك فى إساءة المخلوق إليك عفوت عنه وأحسنت إليه مع حاجتك وضعفك وفقرك وذلك ، فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغنى بك فى إساءتك يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك فهذا لا بد منه ، وشاهده فى السنة من وجوه كثيرة لمن تأملها : مدارج - ص 320 .

وهذا أبو بكر لما حلف أن لا ينفق على مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف وكان قريبه ، لأن أم مسطح بنت خالة أبى بكر مطلبية أسلمت قديما وكان أبو بكر يمونه لأجل قرابته ، لما تكلم فى واقعة الإفك نزل قوله تعالى : (**وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُوا الفَضْلِ** .. النور 22 . إلى قوله (... **أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ**) فقال أبو بكر : نعم نحب ذلك وعاد إلى الإنفاق عليه البخارى و أحمد وعبد الرزاق وغيرهم .

عفوه ﷺ عن ثمامة بن أثال وهو سيد من سادات بنى حنيفة وملك من ملوك اليمامة لا يعصى له أمر ، وكان شديد العداوة للنبى وأصحابه وقتل مجموعة منهم ف هدر النبى ﷺ دمه وقد جاء إلى المدينة ليتحين الفرصة لقتل من يجده أمامه ولكن شاءت إرادة الله أن يقع أسيرا فى يد سرية كانت تحرس المدينة ، فأسرته وهى لا تعرفه وربطته فى سرية من سوارى المسجد ، فخرج النبى ﷺ فرآه فقال لأصحابه : أتدرون من أخذتم ؟ فقالوا : لا يا رسول الله ، فقال هذا ثمامة بن أثال الحنفى فأحسنوا أساره ، ثم رجع النبى ﷺ إلى أهله فقال : اجمعوا م عندكم من طعام وابعثوا به إلى ثمامة ثم أمر بناقته أن تحلب له فى الغ و والرواح وأن يقدم إليه لبنها وذلك قبل أن يلقاه صلوات الله وسلامه عليه . عن أبى هريرة قال : بعث النبى ﷺ خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بنى ح فة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سوارى المسجد فخرج إليه النبى ﷺ ، فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ فقال عندى خير يا محمد إن تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت فترك حتى كان الغد ثم قال له ما عنك يا ثمامة ؟ قال : ما قلت

لك إن تنعم تنعم على شاكر فتركه حتى كان بعد الغد ، فقال ما عندك يا ثمامة ؟ قال : عندى ما قلت لك ، فقال أطلقوا ثمامة فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، يا محمد والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلى ، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلى وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ، قال : لا والله ولكن أسلمت مع محمد ﷺ ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى ﷺ البخارى ومسلم .

قال ابن هشام : حتى إذا كان ببطن مكة لبى فكان أول من دخل مكة يلبى ، فأخذته قريش فقالوا : لقد اخترت علينا فلما قدموه ليضربوا عنقه ، قال قائل منهم ، دعوه فإنكم تحتاجون إلى اليمامة لطعامكم فخلوه ، **فقال الحنفى فى ذلك** :

ومنا الذى لبى بمكة معلنا برغم أبى سفيان فى الأشهر الحرم

وفى رواية قالوا صبوت يا ثمامة ؟ فقال لا ولكن اتبعت خير الدين ، دين محمد ولا والله لا تصل إليكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم إلى مكة شيئا فكتبوا إلى رسول الله ﷺ إنك تأمر بصلة الرحم وإنك قد قطعت أرحامنا وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يخلى بينهم وبين الحمل الروض الآنف – صر 245 .

فهذا من الإحسان فى العفو ولا يصل إلى هذه الدرجة إلا صاحب القلب الكبير و الإنسان الذى اختاره الله ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه . ومن النفر التسعة الذين استثناهم النبى ﷺ وأهدر دمه هبار بن الأسود فهو الذى كان قد تعرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت فطعن ناقتها فى جنبها حتى سقطت زينب على صخرة وأسقطت جنينها ففر هبار يوم فتح مكة ، ثم أسلم وحسن إسلامه .

قال ابن هشام : إن فضالة بن عمير بن الملوح أراد قتل النبى ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : أفضالة ؟ قال نعم فضالة يا رسول الله ، قال : ماذا كانت تحدثك نفسك ؟ قال : لا شئ كنت أذكر الله ، قال : فضحك النبى ﷺ ثم قال : استغفر الله ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه فكان فضالة يقول والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شئ أحب إلىّ منه ــ قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت هلم إلى الحديث ، فقلت : لا وانبعث فضالة يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام
أوما رأيت محمدا وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بينا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

: البداية والنهاية ، ص 306

وروى ابن سعد عن عثمان بن طلحة قال : لقينى رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة فدعانى إلى الإسلام ، فقلت : يا محمد العجب لك تطمع أن أتبعك وقد خالفت دين قومك وجئت بدين محدث وكنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس فأقبل يوم يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فغلظت عليه ونلت منه وحلم عنى ، ثم قال : يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت ، فقلت : هلكت قريش وذلت ، فقال بل عمرت يومئذ وعزت ودخل الكعبة فوقعت كلمته منى موقعا ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال ، فأردت الإسلام فإذا قومى يز روننى زبرا شديدا فلما كان يوم فتح مكة ، قال لى : يا عثمان أين المفتاح فأتيته به فأخذه منى فدفعه إلى وقال : خذها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم ، فلما وليت نادانى فرجعت إليه فقال : ألم يكن الذى قلت لك ؟ فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت فقلت : بلى أشهد أنك رسول الله حقا سبل الهدى ابن ماجا 10 الصبر 306 .

وفى رواية لابن إسحاق : أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ألا وقتيل الخطأ

شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها فى بطونها أولادها ، يا معشر قريش : إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالا اء ، الناس من أدم وأدم من تراب ثم تلا هذه الآية : (ا **أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ..) الحجرات 3 . الآية كله ثم قال يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل فيكم قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال اذهبوا فأنتم الطلقاء ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده قال يا رسول الله أجمع لنا الحجابة مع ، قاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة فدعى له فقال : هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء ، وقال لعلى : إنما أعد ا م ما ترزءون بالضم لا ما ترزءون بالفتح : الروض الآنف ـ صر 3(.

ألا ما أجمل العفو عند المقدرة وما أعظم النفوس التى تسمو على الأحقاد وترتفع عن الانتقام وتعفو وتصفح عن من عذبوه وأصحابه وهموا بقتله مرارا وأخرجوه هو وأصحابه ر ديارهم وأهليهم وأموالهم ومع ذلك يعفو ويصفح ضاربا المثل الأعلى للدنيا كلها وللأجيال المتعاقبة أروع الأمثال فى البر والرحمة والوفاء وسمو النفس ما لم تعرفه الدنيا ولن تعرفه فى تاريخها الطويل إلا فى هذا النبى الكريم المسماح .

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب فقال : ما تقولون وما تظنون ؟ فقال : أخ وابن عم حليم رحيم ، قالوا ذلك ثلاثا ، فقال ﷺ : أقول كما قال يوسف : (**ۚ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** يوسف 2(. قال : فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا فى الإسلام ابن أبى الدنيا وابن الجوزى .

وقال إبراهيم التميمى : إن الرجل ليظلمنى فأرحمه ، وهذا إحسان وراء العفو لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله بالظلم وأ يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب ، وقال بعضهم إذا أراد الله أن يتحف عبدا قيض له من يظلمه فإن صبر على مظلمته ولم ينتصر كان ذلك سببا لمزيد الأجر ، ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز فجعل يشكو أليه رجلا ظلمه ويقع فيه فقال له عمر : إن تلقى الله ومظلمتك كما هى خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها .

وقال يزيد بن ميسرة : إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى ابن أبى الدنيا . وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه : كل الظالم إلى ظلمه فإنه أسرع عليه من دعائك عليه إلا أن يتداركه بعمل وقمن ألا يفعل . ابن أبى الدنيا .

عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة فإذا مكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال وقال معاوية : وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله العفو عن إخوانه فلان هارب من زلته إلى عفوك لائذ منك بك واعلم أنه لن يزداد الذنب عظما إلا إذا ازداد العفو فضلا – ابن أبى الدنيا . وروى أن زيادا اخذ رجلا من الخوارج فأفلت منه فأخذ أخا له فقال له : إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك ، فقال : أرأيت إن جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلى سبيلى ؟ قال : نعم ، قال : فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى ثم تلا : (**مْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وفَّى * لاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وزْرَ أُخْرَى**) النجم 36 – 38 . فقال زياد : خلو سبيله ، هذا رجل قد لقن حجته

وقيل مكتوب فى الإنجيل : من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان الإحياء . وذكر صاحب خلاصة التواريخ أن المهلب بن أبى صفرة وكان يكنى أبا سعيد بلغه عن رجل شئ كرهه فقال له جلساؤه : ألا تأمر بقتله ؟ فقال : ما أعرفنى بدوائه فبعث إليه خمسة آلاف درهم وتختا من ثياب وطيب ثم دخل المهلب على ابن زياد فلقيه الرجل فقبل يده ، فقال : يدك يد يتقى بها الذم ويكسب بها الحمد و ل بها العدو ، فبلغ ابن زياد ذلك ، فقال : كان المهلب أعلم بدوائه . عن أبى هريرة أن رجلا قال : يا رسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن إليهم ، يسيئون إلى ويجهلون على وأحلم عنهم ، فقال : إن كان كما تقول فكأنما تسفهم المل " يعنى الرمل " ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك مسلم .

وكان ع ي بن زيد بن حارثة رجلا من أصحاب النبى ﷺ ، فلما حض على الصدقة جاء كل رجل منهم بطاقته وما عنده فقال عاي بن زيد : اللهم إنه ليس عندى ما

أتصدق به ، اللهم إنى أتصدق بعرد ; على من ناله من خلقك فأمر رسول الله ﷺ مناديا فنادى : أين المتصدق بعرضه البارحة ، فقدم عليه فقال : قد قبلت صدقتك .

: البزار والطبرانى وابن اسحاق وغيرهم .

و الحلم وعدم العجلة منحة من الله العلى الأعلى يكرم بها من يشاء من عباده الصالحين . عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ للأشج : ن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة مسلم . وذلك أنه وفد إلى النبى ﷺ الأشج العبدى ويقال له أشج عبد القيس وأشج بنى عصر مشهور بلقبه واسمه المنذر ابن عابد بن الحرث ، قال الواقدى : كان قدوم الأشج ومن معه سنة عشر من الهجرة وقيل سنة ثمان قبل فتح مكة ، فأناخ راحلته ثم عقلها ثم طرح عنه ثوبين كانا عليه وأخرج من اله بـ ة ثوبين حسنين أبيضين فلبسـ ا وذلك بعين رسول الله أى بمرأى منه ما يصنع ، وكان أصغرهم سنا وهم أقبلوا بثياب سفرهم فقابلوا النبى ﷺ ، ثم أقبل يمشى إلى رسول الله ﷺ فقبل يده ، فقال ﷺ يا أشج إن فيك خلقين يحبهما الله ورسوله ، فقال : ما هما بأبى أنت وأمى ؟ فقال : الحلم والإنا بالكسر فقال خلقان تخلقتها أو خلقان جبلتهما قال بل خلقان جبلك الله عليهما فقال الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله ورسوله متفق علي إتحاف السادة المتقين ـ صر 439 .

وقال ﷺ : ليلنى منكم ذو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم وإياكم وهيشات الأسواق هى الفتنة والاضطراب ، والمعنى لا تكونوا مختلطين اختلاط أهل الأسواق فلا يتميز الذكور من الإناث ولا الصبيان من البالغين وعليكم بالسكينة و ، قار التى هى من صفات أهل النهى .

وقال الحسن : العلم خليل المؤمن والعقل دليله والعمل قيمه والحلم وزيره و الصبر أمير جنوده والرفق والده واللين أخوه . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة فى دين وحزم فى لين وإيمان فى يقين وعلم فى حلم وكيس فى رفق وإعطاء فى حق وقصد فى غنى وتجمل فى فاقة وإحسان فى قدرة وصبر فى شدة لا يغلبه الغضب ولا تجمح به الحمية ولا تغلبه شهوته ولا يفضحه بطنه ولا يستخفه حرصه ، ينصر المظلوم ويرحم

الضعيف ولا يبخل ولا يبذر ولا يسرف ولا يقتر ، يغفر إذا ظلم ويعفو عن الجاهل نفسه منه فى ِ ناء والناس منه فى رخاء الزواجر لابن حجر ص 58 .

فلا بد من التوسط بين الغضب الذى يدفع الى الانتقام والتشفى وبين الخوف والخور الذى يدعو إلى الجبن والمهانة وعدم الغيرة ، ولقد قال سفيان بن عيينة لأصحابه : تدرون ما الرفق ؟ قالوا : قل يا أبا محمد ، قال : أن تضع الأمور مواضعها ، الشدة فى موضعها واللين فى موضعه والسيف فى موضعه والسوط فى موضعه وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل المتنبى :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وأما الكمال المطلق فهو اعتدال تلك القوة بأن لم يكن فيها تفريط ولا إفراط وإنما تكون طوع العقل والدين ف بعث حيث وجبت الحمية وتنطفئ حيث حسن الحلم وهذا هو الاستقامة التى كلف الله بها عباده والوسط الذى مدحه النبى ﷺ بقوله خير الأمور أوسطها فمن أفرط أو فرط فليعالج نفسه إلى وصولها إلى هذا الصراط المستقيم . وروى ابن أبى الدنيا ، أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه فى التأنى ، فكتب إليه معاوية : أما بعد .. فإن التفهم فى الخير زيادة رشد وإن الرشيد من رشد عن العجلة وإن الخائب من خاب عن الأناة وإن المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيبا ، وإن العجل مخطئ أو كاد أن يكون مخطئا وإن من ينفعه الرفق يضره ا خر ق ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالى .

والغضب منه مذمو : وهو ما كان عن باطل ، ومنه محمود : وهو ما كان عن حق ، ومن ثم كان رسول الله ﷺ لا يغضب إلا لله . فعن عائشة قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله فإذا انتهك من محارم الله شئ كان أشدهم فى ذلك غضبا ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثم ا – وفى رواية فإن كان إثما كان أبعد الناس منه البخارى و مسلم وغيرهما . وفى رواية للحاكم : ما لعن رسول الله ﷺ مسلما بذكر وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يضرب فى سبيل الله ، ولا سئل شيئا قط فمنعه إلا أن يسأل مأثما ولا انتقم لنفسه من شئ إلا أن

تنتهك حرمات الله تعالى فيكون لله فينتقم . وأخرج الشيخان : أن رجلا قال يا رسول الله إنى لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل فما رأيت النبى ﷺ غضب فى موعظة قط أشد مما غضب فى موعظة يومئذ ، فقال أيها الناس : إن منكم منفرين فأيكم أم الناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة .

وعن أنس قال : رأى رسول الله ﷺ نخامة فى القبلة فشق ذلك عليه حتى رؤى فى وجهه الغضب فقام فحملها بيده ، وقال إن أحدكم إذا قام فى صلاته فإنه يناجى ربه أو قال إن ربه بينه وبين القبلة فلا يبزقن أحدكم قبل القبلة ولكن عن يساره أو تحت قدمه أو فى غير المسجد ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه ثم رد بعضه على بعض وقال أو يفعل هكذا وغير ذلك كثير .

وكان رسول الله ﷺ يغضب أحيانا حتى تحمر وجنتاه ففى مسلم عن جابر كان إذا غضب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ـ وللحاكم : كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه . وعن أبى هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما مسلم سببته أو لعنته أو ضربته فاجعلها له صلاة عليه وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة مسلم وغيره .

وغضبه ﷺ محمود لأنه لا يخرجه عن الحق ، فعن عبد الله بن عمرو قال : أكتب عنك كل ما قلت فى الغضب والرضا ، قال : اكتب فوالذى بعثنى بالحق ما يخرج منه إلا حق وأشار إلى لسانه : أبو داود ، فلم يقل ﷺ : إنى لأغضب ولكن قال : إن الغضب لا يخرجنى عن الحق أى لا أعمل بموجب الغضب ومقتضاه .

وغضبت عائشة مرة فقال لها رسول الله ﷺ : مالك ؟ جاءك شيطانك ، فقالت : ومالك شيطان ؟ فقال : بلى ، ولكن دعوت الله فأعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير : مسلم . وقال على ﷺ : كان رسول الله ﷺ لا يغضب للدنيا فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له الترمذى فى الشمائل .

وقال الشافعى : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان البيهقى .

عن أبى سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله ﷺ : ألا إن بنى أدم خلقوا على طبقات ألا وإن منهم البطئ الغضب السريع الفئ ، ومنهم سريع الغضب سريع الفئ فتلك بتلك ، ألا وإن منهم سريع الغضب بطئ الفئ ألا وخيرهم بطئ الغضب سريع الفئ ، وشرهم سريع الغضب بطئ الفئ ، ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن أدم أما رأيتم إلى حمرة عينه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشئ من ذلك فليلصق بالأرض الترمذى وحسنه : الترغيب والترهيب ، . ص 147 .

الحمية والحد :

ومن فقد قوة الغضب والحمية فهو ناقص الرجولة بعيد عن مرتبة الكمال لا أنفة محتمل للذل والمهانة خسيس الطبع ، صغير النفس ميم الخلق لا غيرة له على الحرمات خنوثة لا رجولة له . ولقد وصف الله تعالى صحابة رسوله بالشدة والحمية فقال : (**أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**) الفتح 29 . وقال : (**أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ عِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ**) المائدة 54 ، وقال لنبيه : (**ا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ**) التوبة 73 وقال رسول الله ﷺ : إن سعدا لغيور وأنا أغير من سعد وإن الله أغير منى : متفق عليه .

وقال الغزالى : وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب ولذلك قيل : كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات ، وقد قال النبى ﷺ : خير أمتى أحداؤها " يعنى فى الدين جمع حديد وهو النشيط المسرع إلى الخير ، والمراد بالحدة الصلابة فى الدين ، وهى تنشأ من غيرة الإيمان حمية للدين لأن الحكم إذ نيط بوصف صار علة فيه ، فخيار أمة الإيمان من تزايدت حدته عن تزايد قوة الإيمان لا عن كبر وهوى .

الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط و البيهقى فى الشعب : الإتحاف ، ص 106 .

قال تعالى : (**ولاَ تأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ** النور 2 . وقد قال ﷺ : لا أحد أغير من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من

الله ولذلك مدح نفسه ولا أحد أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل   الشيخان وأحمد والترمذى .

وقال ﷺ إن من الغيرة ما يحب الله تعالى ومنها ما يبغض الله وإن من الخيلاء ما يحب الله ومنها ما يبغض ، فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة وأما الغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير الريبة ، وأما الخيلاء التى يحبها الله فاختيال الرجل فى القتال واختياله عند الصدقة وأما الخيلاء التى يبغضها الله فاختيال الرجل فى البغى والفخر   : أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجة .

وقال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى يغار وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه   الشيخان والترمذى وفى الطبرانى :

إن الله يحب من عباده الغيور إن الله تعالى يغار للمسلم فليغر . وقال رسول الله ﷺ : إن الغيرة من الإيمان   البيهقى . وقال ابن حجر فى الزواجر ، الطبرانى : خيار أمتى أحداؤهم الذين إذا غضبوا رجعوا الحدة تعترى خيار أمتى - وابن عدى : الحدة تعترى حملة القرآن لعزة القرآن فى أجوافهم - والديلمى

الحدة لا تكون إلا فى صالحى أمتى وأبرارها   والسخرى والديلمى : ليس أحد أحق بالحدة من حامل القرآن لعزة القرآن فى جوفه . الزواجر ص 32 .

قال الشاعر :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدر

وقال آخر :

ألا إن حلم المرء أكرم نسبة ... تسامى بها عند الفخار حليم

فيا رب هب لى منك حلما فإننى ... أرى الحلم لم يندم عليه كريم

